سلسلة الرسائل الجامعية

أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين

تأليف

يوسف إبراهيم الشيخ عيد

دار المعالي



اللهم يسر ولا تعسر

أثر الحركات الباطنية
في عرقلة الجهاد
ضد الصليبيين

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

دار المعالي

عمان - صويلح .. ص.ب ١٧٧٩ الرمز البريدي ١١٩١٠ الأردن

هذا الكتاب

رسالة تقدم بها المؤلف إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، شرفها الله لنيل درجة الماجستير فى التاريخ من كلية الشريعة عام ١٤٠٨ هـ ، وتم إجازتها .

قال الله تعالى:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ

[سورة العنكبوت: آية ٦٨]

وقال رسول الله ﷺ:

((ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة)).

صحيح: أخرجه أبوداود وأحمد

جامع الأصول: ٣٢/١٠

شكر وتقدير

الحمد لله الذي تتم به الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد بن عبدالله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه أفضل الصلاة وأتم التسليم... وبعد..

«رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه».

فامتثالاً لقول المولى عز وجل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وقول الرسول ﷺ: «من لم يشكر الناس لا يشكر الله»، وقوله: «إنّ أشكر الناس لله عز وجل أشكرهم للناس».

من هذه التوجيهات ينطلق المسلم المتأدب بأدب القرآن، والمتخلق بأخلاق النبي العدنان، والذي من أبرز صفاته إقراره بالفضل، واعترافه بالجميل، ومن كريم خلاله شكره لمن أسدى له المعروف وقدم له العون فالإنسان أسير الإحسان، تأسره اللفتة الكريمة، وتهز مشاعره المعاملة الطيبة، فيخفق قلبه بالامتنان، وينطلق لسانه بالشكر والعرفان.

وطالب العلم المتصف بالأمانة، والمتحلي بأدب الطلب، هو أولى من يتعين عليه ذكر أهل الفضل بفضلهم، وتشنيف الأسماع بشكرهم. لذا وجدت أنه من الواجب عليّ أن أصدر هذا البحث بحمد الله وشكره لأنه صاحب الفضل والمنة أولاً وآخراً، ثم أنوه بمن كان لهم من طيب إخلاصهم، وجميل فعالهم وكريم معونتهم، وصائب مشورتهم ما لا يوفيه الشكر وإن عظم، ولا يكافئه الثناء وإن كثر، غير أن لي في حسن قبولهم طمعاً، وفي رضاهم عني رجاء وهم عندي أعظم وأجل من أن

يؤاخذوا من عرفوا تقصيره، وحسبي أن أؤدي جزءاً يسيراً من حقهم ويكفيني منهم حسن ظنهم.

وأول من أخصه بالشكر الجزيل، والثناء العاطر، والتقدير الوافر بعد والدي.. أستاذي الفاضل الدكتور محمد الحبيب الهيلة -المشرف على هذه الرسالة، فقد وجدت فيه الأب الحاني، والأخ الناصح، والباحث الفطن، والأستاذ الموجه، والصديق الرفيق، إذ أعطاني من وقته وجهده أضعاف ما هو ملزم به، وأغدق علي من عطفه ونصحه ما سأظل مديناً له به ولقد أفدت منه في الأخلاق والسلوك مثلما نهلت منه في المعارف والعلوم فجزاه الله خير الجزاء وجنبه كل بلاء، ومنحه في كل أمر الرفعة والعلاء.

كما وإنني أتقدم بخالص الشكر والامتنان لجامعة أم القرى الموقرة والقائمين عليها، لما حبتني به من رعاية واحتضان لمواصلة دراساتي العليا، حفظها الله قلعة للعلم والعلماء.

ولا يفوتني أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ممثلة بعميدها سعادة الدكتور/ سليمان بن وائل التويجري وعميدها ووكيلها السابقين سعادة الدكتور/ صالح بن حميد وسعادة الدكتور/ حمزة الفعر- على ما قدمته لي من رعاية وما أتاحته لي من فرصة الالتحاق في الدراسات العليا التاريخية، راجياً لهذه الكلية أن تبقى عامرة بأساتذتها وطلابها، وأن تحقق هدفها في نشر العلم وتخريج الأجيال.

كما أخص بالشكر أيضاً الأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة على ما بذلوه من جهد ومتابعة في تقويم هذه الرسالة ، وما تفضلوا به من توجيه وإرشاد سيكون محل عنايتي واهتمامي بإذن الله .

وختاماً أشكر كل أستاذ وفي كل مرحلة من مراحل تعليمي غرس فيّ غرساً طيباً وكل من أعانني في إعداد هذا البحث وقدم فيه جهداً مشكوراً.

جزى الله الجميع عني خير الجزاء، والله المستعان وعليه التكلان.

وصلِّ اللهم وبارك على خير خلقك أجمعين، محمد بن عبدالله المبعوث رحمة للعالمين.

المقدمة

١- موضوع البحث وخطة الدراسة

٢- دراسة وتحليل لأهم المصادر التي اعتمد عليها البحث

١- موضوع البحث وخطة الدراسة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم، الحمد لله الذي رفع الذين آمنوا وأوتوا العلم درجات، أحمده حمداً كثيراً يوافي نعمه، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه أفضل الصلاة وأتم التسليم..

وبعد:

تعتبر فترة الحروب الصليبية من الفترات الدقيقة والمهمة في تاريخنا الإسلامي، فهي تشكل إحدى التجارب الفتية في تاريخ العرب والمسلمين، وآثار هذا الغزو الصليبي لا تزال ماثلة للعيان، فالعالم الإسلامي ما يزال إلى اليوم يعاني من الهجمات الاستعمارية الصليبية لذلك فإن دراسة فترة الحروب الصليبية أمر مفيد ومهم، خاصة وأن العديد من حوادث الحروب الصليبية وظروفها يمكن أن تقدم لنا درساً صالحاً، لأنها قامت في وضع يشابه وضعنا الراهن من نواح عديدة.

تحركت الجموع الصليبية من أوروبا في أواخر القرن الخامس الهجري في أول حملة صليبية لها على العالم الإسلامي والأمل يحدوها في الاستيلاء على الأراضي المقدسة وتأسيس ممالك صليبية لها من ديار الإسلام، وقد حققوا الشيء الكثير مما كانوا يحلمون به، وما كان ليتحقق حلمهم لولا تفكك العالم الإسلامي وانقسامه على نفسه وظهور خلافتين في العالم الإسلامي الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في مصر، إلى جانب ذلك ظهرت كثير من الزعامات الصغيرة التي كانت تطمح في تأسيس دول خاصة بها، ونشأ نتيجة لذلك العديد من الدول المستقلة والإمارات التي كانت تتناحر وتتحارب فيما بينها، فساهم ذلك مساهمة كبيرة في زيادة تفكك العالم الإسلامي.

وبالإضافة إلى هذا كله ظهرت في العالم الإسلامي حركات باطنية هدامة كان لها دور واضح في زيادة تفكك العالم الإسلامي، وهذه الحركات أخذت تنشئ لها التنظيمات السرية وتجمع حولها الأتباع، وتبثّ بينهم الأفكار المنحرفة عن الإسلام، وكان لهذه الحركات الباطنية أيضاً دور مهم في أحداث التاريخ الإسلامي خاصة في عصر الحروب الصليبية، حيث ساهمت بشكل واضح في عرقلة سير حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبين.

ولكن الله سبحانه وتعالى توكل بحفظ دينه، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ «أن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»، فمن وسط هذا الضعف والانحلال والتفكك الذي كان يعيشه العالم الإسلامي في تلك الحقبة نهض رجال أقوياء حملوا على عاتقم راية الجهاد في سبيل الله، وعملوا جاهدين على توحيد المسلمين وجمع صفوفهم في جبهة إسلامية واحدة للجهاد ضد الصليبيين وطردهم من بلاد المسلمين، وتكللت جهودهم بالنجاح والتوفيق، فاستطاعوا إحراز انتصارات عديدة على الصليبيين في أكثر من معركة، كما أنهم استطاعوا تحرير أجزاء كبيرة من الأراضي التي احتلها الصليبيون، وواصلوا السير في الطريق الذي رسموه لأنفسهم، والهدف نصب أعينهم، ولكن أهل الحقد والغدر من أصحاب تلك الحركات الباطنية وقفوا حجر عثرة في طريق هؤلاء القادة، فعرقلوا سيرهم، وبددوا كثيراً من جهدهم، فطالت أيديهم الخبيثة وخناجرهم الغادرة باغتيال معظم هؤلاء القادة المسلمين الذين هبوا للجهاد ضد الصليبيين.

من هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة تحاول البحث في دور الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، ولقد أرخ القدماء لهذه الحركات وذكروا أعمالها الوحشية في أماكن متناثرة من كتبهم ومؤلفاتهم.

وأما الباحثون المحدثون فأرخوا لفترة الحروب الصليبية وذكروا الحركات الباطنية وما قامت به من أعمال في تلك الفترة، بالتلميح تارة وبالدراسة الجزئية تارة أخرى، وكل ما هنالك عن دور الحركات الباطنية في تلك الفترة نتف أو شذرات مبعثرة في بطون المصادر العربية أو المؤلفات الحديثة، ولم أعثر على كتاب متكامل مستقل بحث هذا الموضوع بجميع جوانبه.

كل هذه العوامل دفعتني لأن أقوم بهذه الدراسة، فأجمع النصوص المتناثرة والمتفرقة فأرتبها بالدراسة والتحليل في عمل علمي آمل أن يكون متكاملاً، وأوضح بالتفصيل الدور الذي قامت به هذه الحركات خلال الحروب الصليبية، وكيف أنها عرقلت مسيرة الجهاد والوحدة الإسلامية ضد الصليبيين.

وكنت أحس وأنا أجمع مادة هذه الدراسة بالفرح أحيانا وبالألم أحياناً أخرى، فكنت أفرح عندما أقرأ ما سجله التاريخ عن الروح الجهادية التي كانت عند القادة المسلمين أمثال عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، وما حققوه من انتصارات باهرة ضد الصليبيين وكنت أتألم عندما أقرأ مخازي الحركات الباطنية وما قامت به من أعمال هدامة لعرقلة جهود هؤلاء القادة وغيرهم في جهادهم ضد الصليبيين. لقد أتاحت لي الفرصة الاطلاع أثناء قيامي بإعداد البحث على فترة زاخرة بأحداث أقرب ما تكون إلى ما نعانيه اليوم، ولكن أسلافنا تغلبوا على تلك الأحداث بالإيمان العميق والتعاون الوثيق والوحدة الشاملة.

إضافة إلى ذلك كنت أهدف من وراء الكتابة في هذا الموضوع أن يكون جزء كبير منه تاريخاً لبلد أنتمي إليه وأحبه وله علي دين وواجب، حاولت أن يكون تاريخاً لبلد يشدني إليه محبة ووفاء، وتاريخاً يقرؤه أبناء هذه الأمة ليعرفوا ماضيهم فيكون منه الدرس والعبرة، التي تفيد في جمع الصفوف ولمّ الشمل وتقوية النفوس

وشحذ الهمم والتأليف بين القلوب حتى ينطلق المخلصون من هذه الأمة نحو غدٍ مشرق يستطيعون به تحرير الأرض، أرض النبوات والمقدسات، والتي كانت مطمعاً للغزاة والمستعمرين على مر الأيام والسنين، وتخليص أولى القبلتين من أيدي الصليبيين الجدد.

تتكون رسالتي هذه من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة وبعض الملاحق واقتصرت المقدمة على ذكر سبب اختيار الموضوع ودراسة وتحليل لأهم المصادر التي اعتمدتها في البحث، وأما الفصل الأول وعنوانه الحركات الباطنية عند قدوم الغزو الصليبي فهو يحتوي على أربعة مباحث، تناول المبحث الأول أهم الحركات الباطنية المتواجدة على ساحة الأحداث وقت وصول الغزو الصليبي وخصائص هذه الحركات، وهي أربعة حركات رئيسية: النزارية (الحشاشون) في بلاد فارس والشام، والمستعلية (الفاطميون) في مصر، والنصيرية والدروز في بلاد الشام، وتطرق المبحث إلى نشأة هذه الحركات كل على حدة، وذكر زعماء كل حركة والجهود التي قام بها في دعم أفكار وعقائد الحركة التي ينتمي إليها، كما أشار المبحث إلى أهم عقائد ومبادئ كل حركة بصورة موجزة بما يعطي القارئ لمحة عن تصورات كل حركة للعقيدة والعبادات الإسلامية، حتى يقف على حقيقة ما قامت عليه.

أما المبحث الثاني فلقد أشار إلى مناطق نفوذ هذه الحركات وتحديد منطقة تواجد كل حركة وأسماء المدن والقرى والقلاع والحصون التابعة لهذه الحركات، كما أشار على وجه الخصوص إلى قلاع وحصون الحركة النزارية لأنها تمركزت واتخذت من القلاع والحصون مأوى لها، وكيفية استيلاء هذه الحركة على هذا العدد الهائل من القلاع والحصون والحيل التي استخدموها في السيطرة عليها.

وألقى المبحث الثالث الضوء على علاقة هذه الحركات بالمسلمين من أهل السنة

كل حركة على حدة، فوضح العلاقات بين النزارية الباطنية وبين السلاجقة السنيين وبم اتسمت به هذه العلاقة من عداء مطلق بين الطرفين والجهود التي بذلها بعض سلاطين السلاجقة للتخلص من خطر الباطنية وفسادها في المجتمع الإسلامي، كما أشار أيضاً إلى علاقة هذه الحركة بحكام بلاد الشام في دمشق وحلب وكيف تغلغلوا في المجتمع الإسلامي هناك وما فعله بهم حكام تلك الولايات من قتل وبطش للتخلص من خطرهم.

كما تناول المبحث أيضاً علاقة المستعلية (الدولة الفاطمية) بحكام بلاد الشام، وأشار إلى العلاقة الودية التي حصلت بين رضوان ملك حلب السلجوقي وبين خليفة مصر المستعلي، وإقامة رضوان الخطبة للمستعلي في حلب ثم قطع هذه الخطبة وتقليص هذه العلاقات، وبين المبحث أيضاً طبيعة علاقة العداء الذي تكنه هذه الحركة للقوى السنية في بلاد الشام، فكانت باستمرار تشن الغارات وترسل الحملات للسيطرة على المناطق السنية في جنوب بلاد الشام، فاستطاعت أن تخضع بيت المقدس لنفوذها وأن تنتزعه من أيدي الأراتقة السنيين في وقت قدوم الحملة الصليبية الأولى.

وعالج المبحث الرابع والأخير في الفصل الأول العلاقات بين النزارية والمستعلية، وبين أن العلاقة بينهما كانت علاقة عداء مستحكم وكيف أن كل طرف يتربص بالطرف الآخر الدوائر ويتحين الفرص للانتقام من خصمه، فتحدث عن ما قام به الوزير الأفضل من تتبع أنصار نزار والتنكيل بهم وتصفيتهم، وتحدث أيضاً عمّا قامت به النزارية من أعمال ضد خصومهم المستعليين حيث استطاعوا اغتيال عدوهم الأول الوزير الأفضل ثم اغتيال الخليفة المستعلي الفاطمي الآمر بأحكام الله عام ٥٢٤هـ.

أما الفصل الثاني وعنوانه العلاقات السياسية والعسكرية بين الفاطميين والصليبيين فهو ينقسم إلى مبحثين، المبحث الأول تناول علاقات التعاون التي تمت بين الفاطميين والصليبيين إبان وصول الحملة الصليبية الأولى وحصارها لأنطاكية عام ٤٩١هـ وتوغلها جنوباً في بلاد الشام، وتطرق إلى المراسلات التي تمت بين الطرفين ووقوف الفاطميين السلبي في بداية الأمر من الزحف الصليبي وتوغله في بلاد الشام صوب بيت المقدس مما ترتب على ذلك سقوط المدن والمعاقل الإسلامية الواحدة تلو الأخرى بسبب عدم ملاقاة الصليبيين لأي مقاومة تذكر.

وأشار المبحث أيضاً إلى ما تم من مراسلات بين الوزير الفاطمي شاور وملك الصليبيين يستنجدهم على أسد الدين شيركوه وجنوده لطردهم من مصر بعد أن أعادوه إلى الوزارة وقضوا على خصومه وتنكره لهم وعدم وفائه بوعوده التي قطعها على نفسه للملك نور الدين محمود، فاستنجد بهم عدة مرات متوالية عندما كان أسد الدين يعود إلى مصر لإبعاد الخطر الصليبي عنها وصرف نظرهم عن احتلالها، إضافة إلى ذلك حنقه على شاور لنقضه وعوده لأسد الدين إلى أن انتهى الأمر باستنجاد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين محمود بسبب سياسة شاور المتعاونة مع الصليبيين فأرسل نور الدين محمود قائده أسد الدين شيركوه إلى مصر وقبض على شاور وأعوانه وقطع رأسه وأراح مصر من شره، وقلد بعد ذلك الخليفة العاضد شيركوه في الوزارة مكان شاور، وبعد وفاته قلد مكانه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي انتهى به الأمر بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامة الخطبة للخليفة العباسي وأنهى أمر الدولة الفاطمية في مصر وذلك في عام ٥٦٧هـ.

وعالج المبحث الثاني العلاقات العسكرية بين الفاطميين والصليبيين فبين دور الفاطميين في مقاومة الصليبيين، والحملات العسكرية المتوالية التي بعثتها الدولة

الفاطمية لمقاومة الصليبيين ووقف زحفهم جنوباً في بلاد الشام، وتحدث المبحث عن دور بعض الوزراء الأقوياء في الدولة الفاطمية الذين كانوا متحمسين للجهاد ضد الصليبيين مثل رضوان بن الوخشي وغيره الذين هبوا لمقاومة الصليبيين رغم تقاعس الخلفاء الفاطميين عن ذلك وعدم تشجيعهم لهم، كذلك أشار المبحث إلى جهود الوزير العادل ابن السلار ومشروعه لمقاتلة الصليبيين وإرساله لأسامة ابن منقذ أحد أمراء قلعة شيزر في الشام الذي كان موجوداً في مصر إلى نور الدين محمود يخبره بخطة مشروعه لمقاتلة الصليبيين وما قام به أسامة بن منقذ بعد ذلك بتشجيع من نور الدين محمود لمقاتلة الصليبيين.

أما الفصل الثالث وعنوانه الباطنية النزارية ودورهم في الحروب الصليبية، فهو ينقسم أيضاً بدوره إلى أربعة مباحث، ألقى المبحث الأول منها الضوء على تعامل الباطنية النزارية مع الصليبيين، فبين حقيقة الدور الذي لعبته الحركة النزارية في تعاملها مع الصليبيين بتبادل الرسائل بينهما وما قدمته هذه الحركة من تسهيلات للصليبيين لتثبيت أقدامهم في بلاد الشام، وذلك بالعرض عليهم أخذ دمشق، كما أشار المبحث إلى العلاقات الوثيقة التي كانت بين الحركة الباطنية النزارية والصليبيين لدرجة أن أصحاب هذه الحركة كانوا يخوضون المعارك مع الصليبيين جنباً إلى جنب، كما حصل في موقعة أنب، وكشف المبحث النقاب أيضاً عما كان بين هذه الحركة واليهود من تعاون وثيق وبين أن هناك عدداً كبيراً من اليهود يعمل داخل صفوف هذه الحركة ويخوض معها المعارك ضد القوى الإسلامية المجاورة ومحاولتها عرقلة كل جهود تبذل للوحدة الإسلامية والجهاد ضد الصليبيين، وأشار المبحث أيضاً إلى المراسلات التي تمت بين زعيم الحركة النزارية في الشام وبين القادة الصليبيين طالباً منهم العون والتحالف ضد المسلمين السنيين مقابل تقديم خدماته لهم بالاغتيال والفتك بأي قائد مسلم يجدون فيه خطراً عليهم.

ودرس المبحث الثاني دور الحركة النزارية في اغتيال القادة المسلمين، وكيف كانت هذه الحركة تتربص الدوائر بكل قائد مسلم، فطالت أيدي أصحاب هذه الحركة العديد من قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين وكل قائد حاول أن يوحد جهود المسلمين للوقوف في وجه الصليبيين، إلى جانب ذلك اغتالت أيدي أصحاب هذه الحركة العديد من العلماء والوزراء والسلاطين والخلفاء والوعاظ والفقهاء، فقتلت كل من سولت له نفسه أو قام بأي عمل من الأعمال ضد الباطنية أو النيل من أصحابها فراح ضحيتها العشرات من هؤلاء القادة والعلماء.

أما المبحث الثالث فلقد ألقى أضواء جديدة على دور الحركة النزارية في إفساد المجتمع الإسلامي من الداخل، وكيف عملت على نشر الرعب والخوف والفزع بين أفراد هذا المجتمع، فأصبح المجتمع الإسلامي يعاني من خطرين في آن واحد، الخطر الباطني الذي لا هم له إلا النيل من أهل السنة والفتك بهم وقتلهم، والخطر الصليبي الذي استهدف الأرض والإنسان. فبين المبحث ما قامت به الحركة النزارية من سلب ونهب وقتل للأبرياء من الناس العزل من نساء وأطفال وشيوخ، لإشاعة الرعب والخوف بين أفراد المجتمع الإسلامي، وأشار إلى اعتداءات هذه الحركة على القرى والمدن الإسلامية المجاورة لمناطق نفوذهم، فكانوا يغيرون عليها بين الحين والآخر فيقتلون ويسلبون ويخربون، مما جعل الناس يعيشون في قلق وخوف دائمين لدرجة أنه إذا تأخر الإنسان عن منزله تيقن أهله بأن الباطنية قد قتلوه فيجلسون للبكاء عليه، وشرح هذا المبحث أيضاً ما كان يقوم به أفراد هذه الحركة من اعتداء على قوافل المارة وقوافل الحجاج التي كانت تمر من جوارهم فكانوا يباغتون هذه القوافل ويقتلون أصحابها ويستولون على ما فيها من مال ومتاع، وكذلك ما كانوا يقومون به من اعتداءات متكررة على قوافل الحجيج

المتجهة إلى الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج، فيغيرون عليهم ليلا وهم نائمون آمنون فيضعون السيف فيهم ويستولون على ما بأيديهم من أموال وأقوات أعدوها لرحلة سفرهم لأداء الفريضة.

وصور لنا المبحث صورة واضحة عن ما أشاعته هذه الحركة من فساد ورعب وخوف في أرجاء المجتمع الإسلامي وكيف أن مؤرخاً كبيراً من مؤرخي الدولة السلجوقية (العماد الأصفهاني) لم يستطع التحدث عن الباطنية بصراحة مكشوفة بل تحدث عنهم بالتلميح والإشارة حتى لا تناله أيديهم فتصرعه كما صرعت غيره... وكذلك صور لنا صورة من حياة الناس وكيف كانوا يخبئون في الليل ما لديهم من مال ومتاع في أماكن غير معروفة ثم يأخذونها في الصباح، وهكذا يفعلون في كل ليلة خوفاً من كبسات الباطنية في الليل.

وشرح المبحث الرابع والأخير من هذا الفصل موقف القادة المسلمين من الباطنية، وتحدث عن الجهود المشكورة التي بذلها القادة المسلمون للحد من خطر الباطنية في المجتمع الإسلامي، فتحدث عما قام به سلاطين الدولة السلجوقية في هذا المجال وما بذلوه من جهود جبارة، فأشار إلى جهود كل من السلطان ملكشاه وأولاده من بعد بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود بن محمد، وكذلك أشار إلى دور كل من الدولة الغورية والدولة الغزنوية في هذا الصدد. وألقى المبحث أيضاً الضوء على جهود كل من ألب أرسلان بن رضوان صاحب حلب وتاج الملوك بوري صاحب دمشق للقضاء على الباطنية، وكيف نكلوا بها وطهروا المدينتين منهم بعد أن أصبح خطرهم يتهدد الكبير والصغير، وبين كذلك ما قام به السلطان صلاح الدين الأيوبي للحد من خطر هؤلاء القوم وما قام به من محاصرته لقلعتهم الرئيسية في بلاد الشام ودكها بالمنجنيقات، وبرهنت الدراسة أيضاً عن عجز هؤلاء القادة

عن القضاء على الباطنيـة قضـاء نهائيـاً وتطهـير المجتمـع الإسـلامي منهـم، ولكنهـم استطاعوا إلى حد بعيد التخفيف من خطرهـم وتقليصـه، وإعطـاءهم دروسـاً قاسـية على ما كانوا يرتكبونه من جرائم ضد أفراد المجتمع الإسلامي ومصالحه.

أما الفصل الرابع والأخير في الرسـالة وعنوانـه النصيريـة والـدروز ودورهـم في الحروب الصليبية فهـو ينقسـم إلى ثلاثـة مبـاحث، تنـاول المبحـث الأول منهـا تـأثر النصيرية بالمجوسية والنصرانية، فبـين الأفكـار والعبـادات المجوسـية الـتي تـأثرت بهـا النصيرية نتيجة لانتماء مؤسسها محمد بن نصير الذي يعود أصله لبلاد فارس، وبـين كذلـك التأثيرات النصرانيـة على الفرقـة النصيريـة نتيجـة لانخـراط الأخـيرة في المجتمعات الصليبيـة إبـان الحـروب الصليبيـة، فتـأثرت ببعـض العبـادات والطقـوس النصرانية نتيجة لذلك.

وأشار المبحث الثاني إلى مساعدة النصيرية للصليبيين وما قدمته هذه الفرقة مـن معونات للصليبيين للاستيلاء على أنطاكية وغيرها مـن المعـاقل الإسـلامية، وبـين مـا قاله شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة عـن هـذه الفرقـة مـن أنهـا اشـد خطـراً مـن اليهـود والنصارى على المسلمين وكيف أنها كانت عوناً للنصارى الصليبيين على المسـلمين أثناء الهجمة الصليبية على العالم الإسلامي.

وبين المبحث الثالث مساعدة الدروز للصليبيين وكيف كان موقفهـم سـلبياً مـن الزحف الصليبي، بحيث لم يبدوا أي مقاومة لهذا الزحف، وكذلك أشار المبحـث إلى تعاون بعض أمراء وزعماء الدروز مع الصليبيين وعقد الصلح معهم، وأشار المبحث إلى دور السلطان الظاهر بيبرس في القبض على زعماء الدروز عندما أدرك خطرهم واتصالهم بالصليبيين حتى يأمن جانبهم أثناء جهاده ضد الصليبيين، وفي النهاية ذكـر جـواب ابـن تيميـة عـن الـدروز والنصـيريين بأنـه لا يجـوز اسـتخدامهم في الحراسة

والبوابة لأن هؤلاء القوم دأبوا على الخيانة وتقديم العون للصليبيين وكل عدو للمسلمين.

وأخيراً تضمنت الرسالة خاتمة تبين أهم النتائج التي توصل إليها البحث، ومجموعة من الملاحق تشتمل على بعض النصوص والوثائق الهامة المتعلقة بموضوع البحث مع بعض التراجم لأشهر القادة المسلمين الذين جاهدوا الصليبيين والباطنية وتراجم أشهر زعماء الباطنية في تلك الفترة.

٢- دراسة وتحليل لأهم المصادر التي اعتمد عليها البحث

لقد اعتمدت في بحثي هذا على عدد لا بأس به من المصادر العربية بعضها كان معاصراً لأحداث تلك الفترة فأمد البحث بمادة علمية جيدة عن تلك الأحداث، وبعضها كان قريب العهد منها فكان شارحاً ومكملاً لبعض جوانب النقص في المصادر السابقة، كما اعتمدت على عدد كبير من المراجع العربية الحديثة التي شرحت وبينت بعض جوانب الموضوع، وسأقتصر في هذا العرض على دراسة وبحث أهم المصادر التي اعتمدت عليها، والتي تتصل اتصالاً مباشراً بموضوع البحث وبرزت أهميتها من خلال معالجتي لهذه الدراسة.

فمن المصادر الأصيلة التي اعتمد عليها البحث كتاب الكامل في التاريخ لمؤلفه عز الدين أبوالحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى عام ٦٣٠هـ، وهو أحد إخوة ثلاثة اشتهر كل واحد منهم في فن من الفنون حيث اتجه كل واحد منهم اتجاهاً خاصاً في حياته العلمية، فاختار الأخ الأكبر مجد الدين أبوالسعادات العلوم الدينية فاشتهر في مؤلفاته في الحديث والتفسير، واختار ضياء الدين الأدب فاشتهر بمؤلفاته الأدبية وفي مقدمتها ((المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر))، أما عز الدين الأخ الأوسط فقد اختار التاريخ فاشتهر بمؤلفاته التاريخية وفي مقدمتها كتابه ((الكامل في التاريخ)) و((التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية))[١].

ولد المؤرخ عز الدين بجزيرة ابن عمر ونشأ بها، ثم انتقل إلى الموصل مع والده وأخويه وأقاموا بها، فتلقى العلم والدراسة بها وتنقل ما بين بغداد ودمشق وحلب

(١) انظر ابن الأثير: التاريخ الباهر، مقدمة المحقق ص٩، شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ١١١/٢.

والقدس حيث التقى فيها بعدد من المشايخ تلقى على أيديهم عدداً من العلوم والمعارف فكان «إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم»[1].

ويعتبر كتابه الكامل في التاريخ من أهم المصادر التاريخية فهو أحسن ما صنف من كتب في التاريخ الإسلامي العام، فلقد جمع فيه أخبار العالم الإسلامي شرقه وغربه، وما بينهما، وهذا ما لم يسبقه إليه أحد، وأفاده في ذلك صلته الوثيقة بإدارة الحكم في الموصل، وبفضل أسفاره العديدة في طلب العلم، والاضطلاع بمهام سياسية رسمية من قبل صاحب الموصل[2].

بدأ ابن الأثير كتابه الكامل بالتأريخ من أول الزمان وانتهى به عند آخر سنة ٦٢٨هـ وسار فيه على منهج الكتابة على حسب السنين (نسق الحوليات) مع عدم الإخلال برواية الحادثة الواحدة التي جاءت مقطعة في سنة واحدة، وحرص كذلك على حفظ التوازن بين أجزاء تاريخه المختلفة، كما بذل جهداً كبيراً في مراعاة التوازن بين الأحداث في مختلف أنحاء العالم الإسلامي[3].

ويعتبر كتاب الكامل العمود الفقري والمصدر الأساسي الذي اعتمد عليه هذا البحث، فلقد وردت فيه معلومات غزيرة ومفصلة عن فترة الحروب الصليبية والباطنية لم ترد بهذا الشكل في أي مصدر آخر وحرص ابن الأثير كعادته في كتابه على إعطاء الصورة الكاملة عن الحدث الذي يتكلم عنه بحيث يعطي القارئ صورة

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٣٤٨.

(٢) انظر نفس المصدر السابق، الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٤، ٢٠٥، ابن الأثير: التاريخ الباهر، مقدمة المحقق ص١٥، سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٣٩٩.

(٣) الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٦، عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب ص ١٠٣، سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٣٩٩، ٤٠٣.

متكاملة عن ذلك الحدث. فحين تكلم عن أمر السلطان بركيارق في قتل الباطنية عرف من هم الباطنية وما هو أصلهم، ثم تحدث عن أول ابتداء أمرهم، وكيف ظهروا واشتهروا، ثم تكلم عن سبب قتلهم فقال: «في هذه السنة أمر السلطان بركيارق بقتل الباطنية وهم الإسماعيلية وهم الذين كانوا قديماً يسمون القرامطة ونحن نبتدئ بأول أمرهم الآن ثم بسبب قتلهم»[1].

واستفاد البحث أيضاً من كتاب الكامل لابن الأثير في تحديد مناطق نفوذ الحركة النزارية الباطنية في بلاد فارس، فذكر عدداً لا بأس به من قلاعهم وحصونهم وكيفية استيلائهم على هذه القلاع والحصون، وكان يعرف أحياناً بهذه القلاع من حيث الموقع، وكيف بنيت ومن الذي بناها وكيف آلت إلى الباطنية فكانت معلوماته في ذلك دقيقة ومفصلة[2].

وأفاد كتاب الكامل لابن الأثير البحث في تحديد أسماء القادة والوزراء والعلماء والسلاطين الذين اغتالتهم الباطنية، فذكر طرقهم وأسلوبهم في ذلك، ويعتبر كتاب الكامل الكتاب الوحيد الذي أتى على ذكر أكبر عدد من أسماء الرجال الذين اغتالتهم الباطنية وشرح كيفية وقوع عملية الاغتيال كاملة[3]. وعند الحديث عن دور الباطنية في إفساد المجتمع الإسلامي أمدنا ابن الأثير بمعلومات دقيقة وهامة عن ذلك، وذكر لنا صوراً تاريخية عما كان يفعله هؤلاء القوم بأفراد المجتمع الإسلامي وكيف كانوا ينشرون الرعب والخوف بين الناس حتى أصبح الواحد منهم لا يستطيع أن ينفرد بنفسه وحيداً ماشياً في الطريق، وكعادة ابن الأثير في إبراز المادة التاريخية في عبارات قصيرة ذات أسلوب بسيط واضح، أوضح ذلك المعنى في

---

(١) انظر ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٣.

(٢) انظر نفس المصدر السابق ١٠/٣١٥-٣١٩.

(٣) انظر تفصيلات ذلك في المبحث الثاني من الفصل الثالث.

عبارات ابتدأ فيها الحديث عما يريد ذكره عن ما كان يفعله الباطنية في المجتمع الإسلامي، وأمثلة ذلك كثيرة منها: «لما عمت هذه المصيبة الناس بأصبهان، أذن الله تعالى في هتك أستارهم والانتقام منهم»، «وشاعت الغارة في تلك النواحي، وأكثروا القتل في أهلها والنهب لأموالهم، والسبي لنسائهم»[1].

كما وأمدنا ابن الأثير بمعلومات هامة عن الجهود التي بذلها القادة والحكام المسلمون للفتك بالباطنية وقتلهم ومحاولة تقليص خطرهم ومنعهم من التوسع على حساب مناطق أهل السنة أو الاستيلاء على مزيد من القلاع والحصون، فأشار إلى جهود كل من ملكشاه وبركيارق ومحمد وسنجر ومحمود في جهادهم ضد الباطنية ومحاولاتهم المستمرة لتصفيتهم من المجتمع الإسلامي، والمعارك التي خاضوها ضدهم[2]، وأشار كذلك إلى جهود كل من الدولة الغورية والدولة الخوارزمية في هذا المجال.

أما كتاب التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، فلقد خصصه لتاريخ الأسرة الزنكية، والدولة التي أسسوها في الموصل على يد عماد الدين زنكي، فبدأ بسرد أخبار الدولة بدأ بقسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين زنكي، فذكر صلته بالسلطان السلجوقي ملكشاه وولايته على حلب من قبله، ثم ذكر مقتل قسيم الدولة سنة ٤٨٧هـ، ثم تناول أخبار عماد الدين زنكي وجهاده ضد الصليبيين حتى وفاته سنة ٥٤١هـ، ثم تحدث عن أخبار نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وجهوده الجبارة في جهاده ضد الصليبيين، وبين ما قام به من عمل متواصل من أجل توحيد القوى الإسلامية في الشام ومصر من أجل الوقوف في وجه الصليبيين،

(١) انظر ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٤-٣١٥-٣٩٢.

(٢) انظر نفس المصدر السابق ١٠/٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٢، ٤٣٠، ٥٢٧، ٦٣١.

فذكر استيلاءه على حلب بعد وفاة أبيه، ودمشق سنة ٥٤٩هـ ومصر سنة ٥٦٤هـ والموصل سنة ٥٦٦هـ[١].

ولقد أفاد البحث من كتاب التاريخ الباهر عند دراسة جهود نور الدين محمود في ضم مصر إلى صف أهل السنة وإدخالها في الجبهة الإسلامية الموحدة ضد الصليبيين، فأشار إلى الحملات العسكرية المتوالية التي بعثها بقيادة قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي وبين كيف استطاعا في النهاية إسقاط الدولة الفاطمية الشيعية وإعادة مصر إلى صف أهل السنة، وضم جهود مصر مع جهود الشام في الجهاد ضد الصليبيين.

ومن المصادر الأصيلة التي اعتمد عليها موضوع البحث كتاب ذيل تاريخ دمشق لمؤلفه أبي يعلى حمزة بن علي بن أسد التميمي المعروف بابن القلانسي والمتوفى عام ٥٥٥هـ، وينتمي ابن القلانسي إلى إحدى الأسر الدمشقية الشهيرة والتي كانت رئاسة دمشق لبعض رجالها ومنهم المؤرخ ابن القلانسي، فتلقى ابن القلانسي تعليمه في دمشق فدرس الأدب والحديث والحساب واللغة الفارسية، وتولى ابن القلانسي العديد من المناصب الإدارية في دولة ظهير الدين طغتكين وأولاده من بعده، فأصبح رئيساً لدمشق مرتين، حيث رأس ديوان الرسائل وديوان الخراج، فأتيح بذلك لابن القلانسي عن طريق الوثائق المحفوظة بتلك الدواوين الاطلاع على كثير من أسرار السياسة في دمشق وبلاد الشام خلال فترة حكمه التي تزامنت مع قدوم الغزو الصليبي لبلاد الشام[٢].

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر، مقدمة المحقق ص ١٥-١٦، سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٣٩٦.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ١٧٤/٤، شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ٢٣٧/٢، الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٩٢.

جعل ابن القلانسي كتابه ذيل تاريخ دمشق، ذيلا على كتاب المؤرخ المشهور هلال الصابئ الذي ينتهي به عند حوادث سنة ٤٤٨هـ وأنهاه إلى عام ٥٥٥هـ وهي السنة التي توفي فيها ابن القلانسي، وكتاب ذيل تاريخ دمشق من كتب التاريخ المحلي، فلقد خصصه ابن القلانسي لتدوين تاريخ دمشق وما يدور حولها من أخبار، ويعتبر ابن القلانسي من أقدم من كتب في التاريخ المحلي في بلاد الشام[١].

وجاءت أهمية كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي في أنه أمدنا بمعلومات قيمة ونادرة عن الباطنية والدور الذي قامت به في دمشق خاصة وبلاد الشام عامة، فجاء ابن القلانسي بمعلومات هامة ودقيقة عن الباطنية لم نجدها في أي مصدر آخر، فذكر أول ابتداء أمرهم في الشام واستفحال أمرهم في دمشق وما كان من تاج الملوك بوري صاحبها بعد ذلك في التنكيل بهم وقتلهم وتخليص البلد من نفوذهم بعد أن أشاعوا الرعب والخوف بين أهلها، وتحدث كذلك عن جهود تاج الملوك بوري في جهاده ضد الصليبيين[٢].

كما وأفاد كتاب ذيل تاريخ دمشق البحث في ذكر معلومات قيمة عمّا كان بين طغتكين أتابك دمشق والدولة الفاطمية من تفاهم واتفاق على الجهاد ضد الصليبيين[٣]، وتكلم أيضاً عن جهود ظهير الدين طغتكين في المحافظة على مدينة صور من سقوطها في أيدي الصليبيين والدفاع عنها[٤] وذكر أخبار الحملات العسكرية الفاطمية المتكررة التي أرسلتها الدولة الفاطمية لمقاومة الصليبيين[٥].

---

(١) عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب ص ١١٠.

(٢) انظر ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٠ وما بعدها.

(٣) انظر نفس المصدر السابق ص ٢٣١، ٢٤٠، ٢٩٠، ٢٩١.

(٤) انظر نفس المصدر السابق ص ٢٩٠، ٢٩١، ٣٠٠.

(٥) انظر نفس المصدر السابق ص ٢٢٧، ٢٢٩.

ومما أفاد ابن القلانسي البحث أنه أتى على ذكر عدد لا بأس به من أسماء القادة المسلمين الذين هبوا للجهاد ضد الصليبيين وعملوا على توحيد صفوف المسلمين واغتالتهم يد الباطنية، وعرقلة جهودهم في ذلك أمثال جناح الدولة حسين صاحب حمص والأمير مودود صاحب الموصل[1].

ومن المصادر التي استفاد منها البحث كتاب اتعاظ الحنفا لمؤلفه تقي الدين أحمد ابن علي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ، ولد المقريزي في حارة برجوان بالقاهرة، ولقب بالمقريزي لأنه ينتمي إلى أسرة أصلها من مدينة بعلبك -إحدى مدن لبنان الحالية- وكانت هذه الأسرة تسكن في حارة المقارزة بمدينة بعلبك. نشأ المقريزي في القاهرة وتتلمذ على عدد من الشيوخ فحفظ القرآن ودرس الفقه والحديث والتفسير والتاريخ، وتأثر إلى حد بعيد بأستاذه المؤرخ الكبير عبدالرحمن ابن خلدون الذي تتلمذ على يده لبضع سنوات أثناء إقامته في القاهرة وتوليه قضاء المالكية بها، وإلى جانب ذلك اشتغل المقريزي بعدد من الوظائف الحكومية فعمل أولاً موقعاً بديوان الإنشاء ثم قاضياً ثم اشتغل بالتدريس مدرساً للحديث، وولي الحسبة في القاهرة أكثر من مرة كان أولها سنة ٨٠١هـ، بتعيين من السلطان المملوكي برقوق (٧٩٢-٨٠١هـ)[2].

وتأتي أهمية كتاب اتعاظ الحنفا للبحث كون المؤلف خصصه لتاريخ الدولة الفاطمية، وجاء فيه بخلاصة ما كتبه المؤرخون الذين أرخوا للفاطميين، ولم يكن المقريزي في منهج هذا لكتاب ناقلاً وحسب، بل كان يحسن اختيار نصوصه

(١) انظر نفس المصدر السابق ص ٢٣٠، ٢٥٦، ٣١٥، ٣٣٦، ٣٤١.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٢/٢١-٢٢، الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١/٧٩، ٨٠، المقريزي: اتعاظ الحنفاء، مقدمة المحقق ١/١١، ١٢.

والتنسيق بينها وعرضها، كما كان يخضع النصوص للمقارنة والتحليل والنقد لإظهار الحقيقة[١].

وقد استفاد البحث من كتاب اتعاظ الحنفا عند الحديث عن الانقسام الذي حدث في المذهب الإسماعيلي إثر وفاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي عام ٤٨٧هـ بين نزارية ومستعلية، والنزاع الذي حصل بين الأخوين نزار وأحمد المستعلي حول الخلافة، ودور الوزير الأفضل أمير الجيوش في ذلك، وكيف ساند أحمد المستعلي وأخذ له البيعة من الأمراء وكبار رجال الدولة وتثبيته في كرسي الخلافة، والنهاية التي سار إليها نزار ومن سانده. كما وأمدنا الكتاب بمعلومات عن زيارة الحسن بن الصباح زعيم الباطنية إلى مصر ومقابلته للخليفة المستنصر واستئذانه في إقامة الدعوة له ببلاد خراسان وغيرها من بلاد المشرق، ومعرفته أن الإمام بعده هو ابنه الأكبر نزار حين سأله من إمامي بعدك قال ابني نزار[٢].

وأفاد الكتاب البحث أيضاً في معرفة جهود الوزير الأفضل في جهاده ضد الصليبيين والحملات العسكرية المتوالية التي كان يرسلها إلى الشام لمحاربة الصليبيين، وبين جهود الملك نور الدين محمود لإعادة مصر إلى المذهب السني والمحافظة عليها من وقوعها في أيدي الصليبيين وجهود أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي في ذلك، والمراسلات التي تمت بين الوزير الفاطمي شاور والصليبيين للاستعانة بهم على شيركوه وصلاح الدين وطردهم من مصر، إلى أن انتهى الأمر بقتل شاور وتولى شيركوه الوزارة في مصر ثم صلاح الدين الذي أسقط الدولة الفاطمية وأنهى وجودها في مصر[٣].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، مقدمة المحقق ٢٩/١.

(٢) انظر ما يلي: ص٤٥، ٤٦، ٤٧، ١٣٤.

(٣) انظر مايلي: ص ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣.

ويعتبر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة من المصادر الهامة لموضوع البحث، وأبوشامة هو عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن محمد المقدسي الشافعي توفي سنة ٦٦٥هـ وكان أبوشامة من كبار الفقهاء والمحدثين، راسخ العلم في القراءة والنحو واللغة والخط، بالإضافة إلى التاريخ، كما كان واسع الإطلاع وعلى صداقة كبيرة بالعلماء المعاصرين له[١].

وتأتي أهمية كتاب الروضتين لأبي شامة إلى أنه أرخ فيه لبطلين من أبطال الحروب الصليبية، وهما: نور الدين، وصلاح الدين، وسار أبو شامة في كتابة هذا الكتاب على طريقة السنين، كما وأن بعض المصادر التي اعتمد عليها أبوشامة في كتابة هذا الكتاب ضائعة ومفقودة وهذا ما أعطى كتابه قيمة هامة، وبالإضافة إلى ذلك استند أبوشامة في كتابة تاريخه هذا على الوثائق الرسمية، والمستندات الموثوق بها، فكان لديه ما يزيد على ٢٠٦ وثيقة، وثق بها أحداث تاريخه وهذا ما أعطى كتابه قيمة أخرى[٢].

ويعتبر كتاب الروضتين سجلاً حافلاً للدولة النورية ومصدراً هاماً للدولة الأيوبية، ولقد أمد البحث بمعلومات قيمة عند دراسة دور نور الدين محمود في ضم مصر إلى الجبهة الإسلامية وحملاته المتكررة عليها، كما بين جهود نور الدين محمود في جهاده ضد الصليبيين وما بذله من جهد في توحيد القوى الإسلامية لمواجهة الصليبيين، كما وأمدنا بقائمة من أسماء القادة والخلفاء وبعض الشخصيات التي اغتالتها يد الباطنية[٣].

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٨/١٦٥، ١٦٧، شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ٢/٢٦٦، أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص٢٧٥، ٢٧٦.

(٢) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ٢/٢٦٧.

(٣) انظر مايلي: ص١٥٦-١٦٦، ٥٥، ٧٤، ١٣٠، ٢٠٧، ٢١٢، ٢١٤.

ومن المصادر الأصيلة الأخرى التي أفادت البحث كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لمؤلفه جمال الدين أبوعبدالله بن محمد بن سالم بن نصر اللّه بن واصل الحموي الشافعي سنة ٦٩٧هـ.

ولد ابن واصل في حماه سنة ٦٠٤هـ وبها تعلم وتأدب، فدرس الفقه على مذهب الشافعي ودرس الأصول، والحديث، وعلم الكلام، والنحو والعروض، والقوافي، والأدب، والتاريخ، والفلسفة، والمنطق والهندسة والهيئة، والطب، وقيل أنه كان يشتغل في ثلاثين علماً[١].

وتأتي أهمية كتاب ابن واصل إلى أنه أرخ للدولة الأيوبية كلها من نشأتها حتى سقوطها سواء في مصر أو الشام، كما وأن ابن واصل عمل في سلك حكومة السلطان المملوكي الظاهر ركن الدين بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ)، الذي أرسله في سفارة إلى منفرد بن فردريك الثاني ملك صقلية وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وعند عودته عين قاضي قضاة حماة ومدرساً بها[٢] كل ذلك أتاح لابن واصل معاينة كثير من الأحداث والتفصيل في بعضها مما أغفله المؤرخون بحكم اتصاله الوثيق برجال الحكم في عصره وتقلبه في الوظائف الحكومية الكبرى.

وأفاد كتاب مفرج الكروب البحث في التعرف على مراحل الصراع الذي كان بين نور الدين محمود والصليبيين على مصر، وتطلع كل منهما للاستيلاء عليها، وأبرز لنا دور القائد أسد الدين شيركوه في الاستيلاء على مصر وتصميمه على ذلك، واستمد البحث من هذا الكتاب معلومات طيبة من المراسلات التي كانت

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ٥/٤٣٨، أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ٢٨٠، محمد كرد علي: خطط الشام ٤/٣٨، محمد جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس في مصر ص ١٥٦.

(٢) أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ٢٨٠، ٢٨١.

بين الصليبيين والوزير شاور والحروب التي خاضوها ضد شيركوه للتخلص منه ومن جيشه، وأشار أيضاً إلى استنجاد الخليفة العاضد بنور الدين محمود للتخلص من خطر شاور والصليبيين[1].

أما كتاب التاريخ الصالحي لابن واصل فهو في التاريخ العام وألفه ابن واصل للملك الصالح أيوب، والكتاب لا يزال مخطوطاً إلى الآن، ولقد استفاد البحث من هذا الكتاب في التعرف على بعض أسماء القادة المسلمين الذين اغتالتهم الباطنية، وعن كيفية استيلائهم على قلعة الروذبارد وغيرها.

ومن المصادر المهمة لموضوع البحث كتاب فضائح الباطنية للإمام أبوحامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ، والغزالي أصله من طوس وقدم إلى نيسابور حيث تتلمذ على يدي إمام الحرمين أبي المعالي الجويني فتخرج من عنده في مدة قصيرة، وصار من الأعيان المشار إليهم في ذلك الوقت ولقي الإمام الغزالي الوزير السلجوقي نظام الملك فأكرمه وعظمه وبالغ في الإقبال عليه، وفوض الوزير إليه التدريس في مدرسته النظامية ببغداد وأخذ يلقي دروسه بها، وقصد الغزالي إلى مكة المكرمة للحج ثم الشام ومكث في دمشق مدة يلقي الدروس في جامعها، ثم قصد بيت المقدس ثم مصر وأقام بالإسكندرية فترة من الزمن، وبرع الغزالي في تصنيف الكتب في عدة فنون فكتب في الفقه وأصول الفقه وفي المنطق والفلسفة، ورد على الفلاسفة في عدة رسائل، وكتب في التصوف والزهد، وفي علوم شتى إلى أن لزم بيته في وطنه طوس وواظب على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس إلى أن انتقل إلى ربه[2].

---

(١) انظر مايلي:ص١٥٨، ١٦٠، ١٦١، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/٢١٦،٢١٧،٢١٨، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٤/٨٨،٨٩.

والغزالي من العلماء الذين نافحوا عن مذهب أهل السنة أمام الخطر الباطني، فكان رحمه الله على وعي تام بخطرهم على الإسلام، ولهذا كان هجومه عليهم عنيفاً مخلصاً متحمساً، فألف كتابه فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية، وهدف الغزالي من وراء تأليف هذا الكتاب إلى هدفين: إظهار فضائح الباطنية وهو أمر يتعلق بالعقيدة، وبيان فضائل المستظهرية، أي خلافة المستظهر بـ لله العباسي وهو أمر يتعلق بالسياسة ومن هنا جاءت تسمية الكتاب بـ ((المستظهري)) في ((فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية)). وفند الغزالي في الكتاب أعمال الباطنية ومعتقداتهم في الإلهيات والنبوات والإمامة والقيامة والتكاليف الشرعية وفي التأويل الباطني، وانتهى بإقامة البراهين الشرعية على أن الإمام القائم بالحق والواجب على الخلق طاعته في عصرنا هذا (عصر الغزالي) هو الإمام المستظهر بالله[1].

ولقد أفاد كتاب فضائح الباطنية البحث في معرفة أساليب الباطنية في الدعوة لمذهبهم وما هي الحيل التي يستخدمونها للتدرج مع المدعو لإدخاله في مذهبهم، وكيف يخدعونه في ذلك، وبين لنا بطلان مذهب هؤلاء القوم وخطرهم الكبير على أفراد المجتمع الإسلامي، وأنه لا بد على كل فرد معرفة حيل هؤلاء القوم حتى ينجو من خطرهم[2].

ومن كتب التراجم التي استفاد منها البحث، كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لمؤلفه أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان البرمكي الشافعي المتوفى سنة ٦٨١هـ، وولد ابن خلكان في مدينة اربل من أعمال الموصل عام ٦٠٨هـ، ونشأ بها حيث تفقه على والده فيها، ثم انتقل بعد موت أبيه إلى الموصل وأخذ يتنقل في

---

(١) الغزالي: فضائح الباطنية، مقدمة المحقق، ص ح، ي، شاكر مصطفى التاريخ العربي والمؤرخون ١/٣٤٢،٣٤٣.

(٢) انظر مايلي: ص ٤٣،٤٤،٤٥،٤٦،٤٧،٤٨،٤٩.

البلاد حتى صار فقيهاً أديباً مؤرخاً وإخبارياً عارفاً بأيام الناس، قدم القاهرة فعين بها نائباً لقاضي القضاة يوسف بن حسن السنجاري، وفي عهد السلطان المملوكي بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ) عينه قاضي قضاة الشام ثم عزل ثم عين مرة أخرى قاضياً للشام[١].

ويعتبر كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان من الكتب الجليلة، وتأتي قيمة هذا الكتاب لموضوع البحث في أنه احتوى على معلومات قيمة في التاريخ وتراجم الشخصيات، فهو من أهم المصادر في التراجم ولا سيما أن كثيراً من الكتب التي ألفت قبله واعتمد عليها ابن خلكان في تأليف هذا الكتاب فقط، ويتميز كتاب وفيات الأعيان بأنه مرتب في ضبط الأعلام وأسماء البقاع والبلدان وتحقيق الحوادث وترتيب التراجم حسب حروف المعجم فهو يسهل على الباحث عملية البحث عما يريد، واجتهد ابن خلكان في تحري الحقائق بعين نافذة في لغة سليمة بسيطة، وعني كذلك أشد العناية بتحقيق سنة وفاة كل مترجم، ومن أجل ذلك سمي كتاب وفيات الأعيان[٢].

ولقد أفاد البحث من كتاب وفيات الأعيان فأمده بمعلومات قيمة عند الحديث عن خلفاء الدولة الفاطمية أئمة المستعلية، فبين لنا حال كل خليفة منهم وما الدور الذي قام به تجاه المذهب واتجاه سياسة الدولة[٣] وأمد كتاب وفيات الأعيان البحث بمعلومات هامة عن مراحل الصراع بين قوات شيركوه قائد نور الدين من جهة

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٣٣/٨، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٥٥٥/١، ابن شاكر: فوات الوفيات ١١٠/١، أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ٢٠٨.

محمد جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس في مصر ص ١٥٦، عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية ص ٧٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٧٩/١ وما بعدها، ١١٠/٣، ٢٣٦، ٢٣٧، ٤٩٢، ٤٩٣، ١١٠/٥.

والوزير الفاطمي شاور والصليبيين من جهة أخرى للاستيلاء على مصر[١]، وكذلك أفاد في معرفة المراسلات التي كانت بين مقدم الإسماعيلية سنان في الشام وبين السلطان صلاح الدين وما كان بينهما من عداء وتوعد كل منهما للآخر[٢].

ومن الموسوعات الهامة التي أمدت البحث بمعلومات قيمة موسوعة القلقشندي «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، والقلقشندي هو أبوالعباس أحمد ابن علي بن أحمد، توفي سنة ٨٢١هـ، وولد القلقشندي في بلدة قلقشندة من أعمال القليوبية بمصر سنة ٧٥٦هـ، وطلب العلوم الشرعية كعادة العلماء في عصره، فبرع في الفقه واللغة العربية وآدابها، وأجيز من قبل عدة شيوخ كبار في عصره[٣].

وتعتبر موسوعة القلقشندي المسماة «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» من أهم الموسوعات لأنها تحتوي على مختلف أنواع المعرفة، وحفظ لنا القلقشندي في موسوعته الكثير من الوثائق الرسمية والمراسلات السياسية والتقاليد والمناشير والتواقيع وأشبع كتابه بالمكاتبات الديوانية التي يمكن الاستفادة منها في الأبحاث التاريخية على طوال التاريخ الإسلامي، وذلك بحكم اشتغاله في ديوان الإنشاء وتوليه رئاسته مرتين في عهد السلطان المملوكي برقوق (٧٩٢-٨٠١هـ)[٤].

ويمتاز القلقشندي في كتابه هذا بأنه لم يورد فيه إلا الوثائق والرسائل التي يعتقد بصحتها، والتي نقلها من المكاتبات الرسمية التي كانت تقع تحت يده، بحكم وظيفته

---

(١) انظر نفس المصدر السابق ١٣٩/٧ وما بعدها.

(٢) انظر نفس المصدر السابق ١٨٦/٥، ١٨٧.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٧/٢، القلقشندي: صبح الأعشى، مقدمة الناشر ٢٠/١، ٢١، أحمد عزت عبدالكريم: أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ص ١٤.

(٤) أحمد عزت عبدالكريم: أبوالعباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ص ١٥، ١٢١، محمد عبدالله عنان: مؤرخو مصر الإسلامية ص ٧٨.

كاتباً للإنشاء، فلقد كانت تلك الوثائق والمراسلات متيسرة له الاطلاع عليها، فنقل منها ما استوثق من صحته فترك لنا معلومات قيمة وهامة في موسوعته صبح الأعشى لعصور سبقته ولعصره الذي يعيش فيه[1].

وعند دراسة مناطق نفوذ الحركة النزارية في بلاد الشام أمدنا كتاب صبح الأعشى بمعلومات قيمة عن أسماء قلاع الباطنية هناك وعرف بها وبأماكنها[2]، كما وأفاد في التعرف على بعض تعاليم وأفكار الحركة النزارية وكذلك المستعلية، وعرف أيضاً ببعض أقوال النصيرية[3].

أما من حيث المراجع الحديثة، فإني قد رجعت إلى عدد لا بأس به ولا أرى من الفائدة ذكرها هنا، بل تكفي الإشارة إليها في الفهرس العام في نهاية البحث.

ومما ينبغي الإشارة إليه في هذا المقام، أنني اكتفيت بذكر اسم المؤلف والكتاب فقط في هوامش الرسالة، ولم أتعرض إلى المعلومات الأخرى نظراً لذكرها في فهرس المصادر في النهاية وذلك تحاشياً للإطالة ولكون الرجوع للفهرس بعد معرفة اسم المؤلف أيسر من البحث عنه في صفحات الرسالة، لأن المعلومات في هذه الحالة لا تذكر إلا مرة واحدة وفي أول ذكر له.

---

(١) انظر نفس المرجع السابق ص١٦، ٢٦، ٢٧.

(٢) انظر مايلي: ص٧٩، ١١٢، ١١٨، ١١٩، ١٢٠.

(٣) انظر مايلي: ص٦٣-٦٤، ٨٤، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠.

الفصل الأول

الحركات الباطنية عند قدوم الغزو الصليبي

المبحث الأول: الحركات المتواجدة على الساحة وخصائصها: النزارية (الحشاشون) - المستعلية (الفاطميون) النصيرية - الدروز.

المبحث الثاني: مناطق نفوذ هذه الحركات.

المبحث الثالث: علاقة هذه الحركات بالمسلمين من أهل السنة.

المبحث الرابع: العلاقات بين النزارية والمستعلية.

المبحث الأول

الحركات المتواجدة على الساحة وخصائصها

أولاً: النزارية (الحشاشون)

النزارية هي إحدى الحركات الباطنية التي ظهرت في أواخر القرن الخامس الهجري وهي تنسب إلى نزار بن المستنصر بالله أبوتميم معد الخليفة الفاطمي، حيث شرع المستنصر قبيل وفاته سنة ٤٨٧هـ في أخذ البيعة لابنه الأكبر نزار حسبما تقتضيه التعاليم الإسماعيلية، غير أن الوزير الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي تقاعس عن ذلك ودافع المستنصر من يوم إلى يوم حتى مات المستنصر[١].

وكان الحسن بن الصباح رئيس هذه الطائفة الإسماعيلية قد قصد مصر في زي تاجر واجتمع بالمستنصر، وخاطبه في إقامة الدعوة له ببلاد العجم وقال: من إمامي بعدك؟ فقال: ابني نزار[٢]. ولكن الوزير الأفضل سارع بعد وفاة المستنصر إلى عزل نزار وخلعه وبايع بالإمامة لابن أخته أبي القاسم أحمد أخو نزار الأصغر ولقبه بالمستعلي بالله[٣]، أما سبب عزل الأفضل لنزار فهو أن نزاراً خرج ذات يوم في حياة أبيه المستنصر فإذا الأفضل قد دخل دهليز القصر من باب الذهب راكباً فصاح به نزار: انزل يا أرمني يا نجس.. فحقدها عليه الأفضل وصار كل منهما يكره الآخر[٤]. فاجتمع الأفضل بعد موت المستنصر بالأمراء والخواص وخوفهم

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤٢/٥، المقريزي: اتعاظ الحنفا ١١/٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٣٧/١٠.

(٣) نفس المرجع السابق ٢٣٧/١٠، المقريزي: اتعاظ الحنفا ١٢/٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٢٣٧/١٠، ٢٣٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤٢/٥، المقريزي: اتعاظ الحنفا ١٢/٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤٠٧/١.

من نزار وأشار عليهم بولاية أخيه الصغير أبي القاسم أحمد فرضوا بذلك وبايعوه ولقب بالمستعلي[١].

أما نزار فإنه لم يرض بهذا الوضع وخرج من وقته هو وأخوه عبدالله وتوجهوا إلى الإسكندرية خفية وكان الوالي بها ناصر الدولة أفتكين التركي[٢] أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي والد الأفضل فبايعه أفتكين هو وأهل الإسكندرية ولقب «بالمصطفى لدين الله»[٣].

علم الأفضل بذلك فغضب غضباً شديداً وعزم على محاربة نزار والتخلص منه فخرج في أواخر المحرم من عام ٤٨٨هـ بعساكره من القاهرة متجهاً إلى الإسكندرية لمحاربة نزار وأفتكين وهناك التقى الفريقان بظاهر الإسكندرية ودارت بينهما عدة وقائع انكسر فيها الأفضل فرجع هو ومن معه إلى القاهرة منهزماً، فخرج نزار ونهب أكثر بلاد الوجه البحري[٤].

أخذ الأفضل يعد العدة لملاقاة نزار مرة أخرى واستطاع هذه المرة استمالة أكابر من انتمى إلى نزار من العرب ووعدهم بالأموال والإقطاعات إن هم تخلوا عنه. وسار إلى الإسكندرية بعساكره ودارت بينهم معركة بظاهر الإسكندرية انهزم فيها نزار ومن معه فلجأ إلى داخل الإسكندرية فحاصرهم الأفضل حصاراً شديداً ومنع عنهم الميرة[٥].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤٢/٥، ابن الأثير: الكامل ٢٣٨/١٠.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠، ٢١١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤٣/٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٢٣٨/١٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤٣/٥.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١٤/٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤٤/٥.

(٥) نفس المصادر السابقة.

عندما اشتد الحصار على من بالإسكندرية ضعفت قوى نزار وأفتكين ومن معهما من العساكر فخافا وطلبا الأمان من الأفضل فأمنهما ودخل الأفضل الإسكندرية منتصراً وما لبث أن قبض على نزار وأفتكين وأرسلهما إلى مصر، وتسلم المستعلي نزاراً فبنى عليه حائطين وجعله بينهما إلى أن مات[1]، وأما أفتكين فقد قتله بعد ذلك[2].

وهكذا نرى أن الدعوة الإسماعيلية قد انقسمت بعد، وفاة المستنصر بالله الخليفة الفاطمي إلى فرقتين متناحرتين بينهما خصومات شديدة فرقة أيدت إمامة المستعلي فسموا بالمستعلية والتي سنتحدث عنها فيما بعد وفرقة أيدت إمامة نزار واعتبرته هو الإمام الشرعي وسموا بالنزارية والتي نحن بصدد دراستها.

ويعتبر الحسن بن الصباح هو المؤسس لهذه الفرقة لأنه علم من المستنصر أثناء وجوده في مصر أن الإمام بعده ابنه الأكبر نزار ولما علم بما أحدثه الوزير الأفضل من تحويل الإمامة من نزار إلى أخيه الأصغر المستعلي غضب لذلك وانتصر الحسن بن الصباح لنزار وأصبح يدعو له ولأبنائه من بعده، وكان اعتناق الحسن بن الصباح للعقيدة النزارية مؤذناً بتطور جديد في تاريخ هذه الدعوة[3].

---

(١) تدعي المصادر النزارية بأن نزاراً لم يمت حقيقة، وإنما استتر وسيعود إلى الظهور باعتباره المهدي المنتظر. وهذا دجل ليس له أي سند تاريخي فكل المؤرخين والمصادر التاريخية يجمعون على أن نزار مات حقيقة وبالتحديد بين حائطين بناهما عليه أخيه أحمد المستعلى. أنظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/٤٥٠، الذهبي: العبر في خبر من غبر ٢/٣٧١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٢٣٨، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/١٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٤٥.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٤/٢٧٠.

استطاع الحسن بن الصباح أن يستغل الدعوة النزارية خير استغلال فأصاب نجاحاً بعيد المدى وتمكن من تأسيس دولة إسماعيلية فريدة من نوعها، مكونة من عدة قلاع وحصون متفرقة عرفت في التاريخ بأسماء متعددة مثل: الدولة الإسماعيلية الشرقية، والدولة الإسماعيلية النزارية والباطنية، والسبعية والتعليمية، والحشاشون، والملاحدة والسفاكون وأقام داخل هذه القلاع والحصون مجتمعات إسماعيلية بحتة يحيطها السر والكتمان[1].

واستطاع ابن الصباح بحيلة جريئة أن يستولي على الحصن الجبلي المنيع ألموت[2] (ومعناه عش العقاب) وذلك في عام ٤٨٣هـ[3]. حيث أرسل دعاته إلى أهل القلاع والحصون التي في جنوب بحر قزوين فتمكن هؤلاء الدعاة من إدخال عدد كبير من سكان هذه القلاع والحصون في الدعوة الإسماعيلية ولا سيما طبقة الجند. ولما أفلح دعاته في تحويل جنود قلعة ألموت إلى المذهب الإسماعيلي أوعز إلى دعاته أن يوجهوا دعوةً لزيارتهم، فوجهت إليه الدعوة بين مظاهر الفرح وذهب ابن الصباح إلى

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٥/٣١. الشهرستاني: الملل والنحل ص ٢٠٠، القلقشندي: صبح الأعشى ١/١٢٠، أحمد جلي: دراسة عن الفرق ص٢٣٣.

(٢) قلعة حصينة من ناحية روزبار بين قزوين وبحر الخزر على قلة جبل وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا النشاب يبلغها، وهي كرسي ملك الإسماعيلية، قيل إن بعض ملوك الديلم أرسل عقابا للصيد فتبعه حتى وصل موضع هذه القلعة فوجده موضعاً حصيناً فأمر ببناء قلعة عليه وسماها اله أموت أي تعليم العقاب بلسان الديلم. ومنهم من قال اسم القلعة بتاريخها لأنها بنيت في سنة ست وأربعين وأربعمائة وهي: م و ت. انظر: القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٣٠١، ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٦.

(٣) أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/٢٠٠، الشهر ستاني: الملل والنحل ص ٢٠٣، ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري، مخطوط، ورقة ٤٤٣أ، ابن واصل: التاريخ الصالحي، مخطوط، ورقة ١٧٠أ، كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٥٦.

القلعة متنكراً فأظهر الزهد ولبس المسح وانتحل اسما غير اسمه، ولم يعرفه أحد من أتباعه في القلعة سوى الدعاة فقط، أما غير الدعاة فكان يتظاهر أمامهم بأنه نائب عن ابن الصباح جاء ليتفقد أحوالهم قبل أن يزورهم ابن الصباح.

قضى ابن الصباح عدة أيام في تنكره هذا وهو يدرس القلعة دراسة دقيقة ويتبين معالمها ويفحص حصونها وأحوال الناس بها، فلما عرف كل ما كان يريده أظهر شخصيته، وطلب من حاكم القلعة أن يسلمها له نظير مبلغ معين من المال يتسلمه من حاكم مدينة الدامغان[1]، وكان حاكم الدامغان ممن دخل المذهب الإسماعيلي سراً، وكان يأتمر بأوامر الداعي ابن الصباح سراً بالرغم من أنه كان من عمال السلاجقة السنيين، فلم يستطع حاكم قلعة ألموت المقاومة عندما علم أن الجنود الذين كان يعتمد عليهم أصبحوا طوع إرادة ابن الصباح، لذلك سلم القلعة له ودعا فيها ابن الصباح باسم المستنصر بالله إمام الإسماعيلية في مصر[2].

منذ ذلك الحين أصبحت قلعة آلموت هي مركز الدولة التي كان ابن الصباح يطمح إلى تأسيسها ومقره الرئيسي الدائم الذي انطلق منه لتوسيع رقعة دولته الجديدة، ولقد ساعده الحظ في ذلك إذ مات ملكشاه السلطان السلجوقي عام ٤٨٥هـ عدو الإسماعيلية اللدود ومزقت أملاك السلجوقيين من بعده، فضعفوا وهان أمرهم في الوقت الذي اشتدت فيه شوكة الإسماعيلية[3] واستطاع ابن الصباح أن يضم عدة حصون وقلاع إلى دولته الجديدة، فأصبحت تخضع له مئات من الحصون

---

(١) الدامغان: بلد كبير بين الري ونيسابور، وهو قصبة قومس.

انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/٤٣٣، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٣٦٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٧، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ٧٠، مصطفى غالب: الثائر الحميري الحسن بن الصباح ص ٥٢.

(٣) الذهبي: العبر ٢/٣٦٩.

والقلاع القوية في أقاليم رودبارد[١] وقوهستان[٢] والطالقان[٣] وغيرها[٤]، ومن هذه الحصون والقلاع وجه ابن الصباح دعاة النزارية نحو بلاد الشام لنشر الدعوة النزارية ومحاربة أهل السنة والسلاجقة والمستعلية والانتقام منهم جميعاً[٥].

بعد أن استتب الأمر للحسن بن الصباح في قلعة آلموت باشر العمل في وضع حجر الأساس للدولة الكبيرة التي كان يطمح في تأسيسها فبدأ في تنظيم جماعته تنظيماً محكماً قائماً على السرية التامة والطاعة العمياء بحيث يضمن لها البقاء ويدفع عنها خطر الأعداء فقسم جماعته إلى مراتب ودرجات وأهم هذه المراتب هي:

المرتبة الأولى: مرتبة شيخ الجبل:

وعدد أفرادها سبعة، منهم نائب الإمام ورئيس الدعوة الجديدة. فكان الحسن ابن الصباح يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة، ولا سيما بعد أن احتل قلعة الموت في

---

(١) روبارد: ناحية من طسوح أصبهان تشتمل على قرى كثيرة.
أنظر ياقوت الحموي: المشترك وضعا والمفترق صقعاً ص ٢١٣.

(٢) قوهستان: تعريب كوهستان، بمعنى موضع الجبال. وأكثر بلاد العجم لا يخلو عن موضع يقال له قوهستان، وأما المشهور بهذا الاسم فأحد أطرافها متصل بنواحي هراة ثم يمتد في الجبال طولا حتى يتصل بقرب نهاوند وهمذان هذه الجبال كلها تسمى بهذا الاسم وهي جميعها في أيدي الملاحدة من بني الحسن بن الصباح.
ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/٤١٦.

(٣) الطالقان: بلدتان احداهما بخرسان بين مرو الروذ وبلخ، بينهما وبين مرو الروذ ثلاث مراحل، قال الاصطخري: أكبر مدينة بطخارستان طالقان، والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر وبها عدة قرى يقع عليها هذا الاسم.
ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/٦،٧.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ١/١٢٠، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ٧١، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٦٧.

(٥) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٦٧.

عام ٤٨٣هـ. كما اتخذ لقب مولانا وسيدنا وشيخ الجبل وكان وحده هو الذي يعين الدعاة ويعزلهم، فأطلق عليه بعض الناس لقب داعي الدعاة، وكان سلطانه لا يحد: يصدر أوامره من ألموت فيطيعها النزارية في كل مكان. وقد جعل وظيفة رئيس الدعوة مقصورة على المتفانين في الإخلاص للمذهب الإسماعيلي، ولم يجعل لمبدأ الوراثة أي اعتبار. كما تظاهر أمام جماعته بالتقشف والورع والمحافظة على الشريعة حتى أنه قتل أحد أبنائه لاتهامه بشرب الخمر.

المرتبة الثانية: مرتبة كبار الدعاة:

ولا يتجاوز عدد أفرادها ثلاثة ممن يثق الحسن الصباح بهم ثقة تامة لأنه قسم العالم أقساماً ثلاثة: جعل على رأس كل قطر أو «بحر» واحداً من هؤلاء الدعاة الثلاثة، وهم أشبه بنظام أئمة المذاهب. على أنه لم يترك لهم شيئاً من الحرية، بل ظل الرأس المدبر والعقل المفكر. ومن أشهر هؤلاء الدعاة الكبار كيابزرك أميد، والحسين القيني، وأبوطاهر.

المرتبة الثالثة: مرتبة الدعاة:

وهم أكثر عدداً من أفراد المرتبة الثانية ويتلقون أوامرهم من رؤساء الدعوة في آلموت أو من كبار الدعاة في الأقاليم الثلاثة، وكانوا يتلقون العلم في مدارس القاهرة أول الأمر، ثم ينتقلون إلى ألموت ليتعلموا أسرار الدعوة. وقد اشترط الحسن الصباح في الداعي أن يكون بارعاً في التشكيك، ماهراً في التلبيس ليخدعوا العامة ويدخلوهم في عقيدتهم، وقد كون هؤلاء الدرجات العليا، وكانوا على علم بعقائد وأغراض وسياسة هذا النظام.

المرتبة الرابعة: مرتبة الرفاق:

وكانوا على شيء من الإلمام بأسرار هذا النظام، يتولون تثقيف الدعاة وإعدادهم لمهمتهم، ويتفانون في المحافظة على المذهب، متسلحين بأسلحة العلم من فقه ومنطق وفلسفة.

المرتبة الخامسة: الفداوية أو الفدائيون:

وهؤلاء كانوا يستخدمون في قتل الأعداء غدراً، ويضحون بأنفسهم فداء لرئيسهم، ولا يشترط في الفداوي أن يتعمق في دراسة أسرار المذهب، إنما يشترط فيه التفاني في طاعة الرئيس والتضحية إلى أبعد الحدود.

فأصبحوا آلات انتقام فتاكة، وخلفوا عصراً مليئاً بالخوف والفزع. وكانوا يتصفون بالشجاعة النادرة وحب المخاطرة والعزيمة التي لا تقهر، والصبر الذي لا ينفد ويظل الواحد منهم يترقب الفرصة شهوراً بل سنين للفتك بعدوه، ويشترط في الفداوي أيضاً أن يكونوا من الشبان الأقوياء الذين يجيدون عدة لغات. وكانوا يتلقون الأوامر والمهمات السرية الخطيرة من مركز الإمام أو مقر نائبه في قطره مباشرة. وكانوا على ثلاث درجات:

أولاً: الرفاق أو المقدمون:

وهم قادة الجيش والفداوية، الذين يشرفون على تدريبهم ويسهرون على تنفيذ المهمات العسكرية وغير العسكرية.

ثانياً مرتبة الفدائيين:

وهم الذين ينتقون بدقة من العناصر المخلصة المعروفة بالتضحية والإقدام والشجاعة النادرة، والجرأة الخارقة، فيكلفون بالتضحيات الجسدية وبتنفيذ أوامر الإمام أو نائبه.

ثالثا: المستجيبون:

وهم الذين يدخلون مدارس الفدائية من سن مبكرة ويتلقون التدريب والتعليم على أيدي كبار المتقدمين، ويسهر على تدريبهم وتعليمهم الإمام نفسه أو نائبه «الشيخ».

المرتبة السادسة: اللاصقون:

وهم ينتسبون إلى الدعوة، ولكنهم ليسوا من الدعاة ولا من الفداوية إنما يأخذون العهد على الناس دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة ويأخذون العهد على المستجيبين دون أن يتعمقوا في فهم أصول المذهب.

المرتبة السابعة: المستجيبون:

وهم عامة الناس أو المؤمنون المبتدئون، لا يعرفون الكثير عن المذهب الإسماعيلي. إنما عملهم الرئيسي زعزعة عقائد الناس، وبث الذعر في نفوسهم[1].

من هذا التنظيم يتبين لنا أن الفداوية هم أهم مراتب هذا التنظيم حيث كان

---

(١) مصطفى غالب: سنان راشد الدين: «شيخ الجبل الثالث» ص ٧١، ٧٢، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١/٥٦٢، ٥٦٣، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٤/٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣.

يعول عليهم تنفيذ سياسة التنظيم العسكرية والتصدي لكل عدو يريد أن ينال من الدولة النزارية، لذلك اهتم الحسن بن الصباح بالفداوية اهتماماً خاصاً واختار عناصرها من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين، يختارهم من بين سكان الجبال المجاورة ممن يبدون ميلاً إلى المرانة والدربة العسكرية وتتجلى فيهم صفة الشجاعة والإقدام، وكذلك من أبناء الدعاة والمستجيبين المعروفين بغيرتهم للإسماعيلية واستعدادهم للتضحية في سبيل مذهبهم، وأخذ في تدريب هؤلاء الشبان على الطاعة العمياء، والإيمان بكل ما يقوله لهم ثم بث فيهم حب التضحية في سبيل العقيدة والإمام، وأخذ يدربهم على استعمال الأسلحة المعروفة في تلك الأيام ولا سيما الخناجر، كذلك كان يعلمهم كيف يخفون أمر أنفسهم وأمر من معهم، بحيث لا يبوح أحد بسره أو سر الجماعة التي ينتمي إليها فإذا قبض عليه أحد الأعداء فلا يبوح بكلمة واحدة، بل يجب عليه أن يقتل نفسه قبل أن يضطر إلى أن يتفوه بكلمة واحدة[1].

إلى جانب ذلك كان هؤلاء الفدائيون ملمين أحياناً ببعض اللغات الأجنبية حتى اللغات الأوروبية فهؤلاء هم الذين ندبوا لاغتيال المركيز كونراد دي مونتفرات Conrad of Montferrat كانوا يتحدثون باللغة الفرنسية بدرجة كافية، وكانوا يحملون جوازات مرور باعتبارهم رهباناً مسيحيين خلال أشهر يقضونها في معسكر الصليبيين منتهزين الفرصة لتحقيق أغراضهم[2]. وكانوا يلبسون نفس اللباس الذي كان يلبسه الحرس الخاص للقادة حتى يوهموا الجند بأنهم من الحرس

(١) ماركو بولو: رحلة ماركو بولو ص ٦٤، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ٧٣، ٧٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٢/٧٩.

الخاص ويغتالوا القائد الذي يريدون كما فعلوا في محاولتهم لاغتيال القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي حين دخلوا عليه في خيمته وهم يلبسون نفس لباس الحرس الخاص بصلاح الدين فلم ينتبه لهم أحد وشرعوا في تنفيذ مهمتهم لكن الله سلم بفضل الحيطة التي كان عليها صلاح الدين إذ كان يلبس الدروع فلم تؤثر خناجرهم فيه[1]. فكان هؤلاء الفدائيون يقتلون الأمير المسلم في يوم الجمعة وفي المسجد فقتلوا الأمير مودود في المسجد بعد انتهائه من صلاة الجمعة بدمشق[2]. ويقتلون الأمير المسيحي أو الدوق في يوم الأحد وفي أقدس الأماكن لديه وهي الكنيسة على مشهد من جماعة المصلين. فكان هؤلاء الفدائيون يعتقدون أن الموت في سبيل تحقيق أغراض الشيخ «الحسن بن الصباح» على هذه الصورة المروعة أشرف ميتة، وفيها توكيد لضمان السعادة، حتى أن أمهات الفدائيين كن يبكين إذا عاد إليهن أبناؤهن أحياء يرزقون[3].

ولقد بلغت جرأة هؤلاء الفدائيين ذروتها حيث كان الواحد منهم يقتل نفسه طعناً بالخناجر أو يلقي بنفسه من على سور القلعة الشاهق ليسقط متحطماً في الوادي إذا طلب منه إمامه وشيخه ذلك. فيروى أن السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ) بعث إلى الحسن بن الصباح يدعوه إلى الطاعة ويتهدده ويتوعده فقال لرسول السلطان السلجوقي في الجواب ما تراه ثم قال لجماعة وقوف بين يديه أريد أن أنفذكم إلى مولاكم في حاجة فمن ينهض لها فاشرأب كل منهم لذلك،

(١) ابن الأثير: الكامل ١١/٤٣٠، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٩٣.

(٢) أبوشامة: الروضتين في أخبار الدولتين ١/٢٧، الذهبي: دول الإسلام ٢/٣٥.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٤/٢٧٥، ٢٧٦.

فظن رسول السلطان أنها رسالة يحملها لهم، فأومأ إلى شاب منهم فقال له اقتل نفسك فجذب سكيناً وضرب بها «عنقه» فخر ميتاً، وقال لآخر ارم بنفسك من القلعة فألقى نفسه فتقطع في الوادي ثم التفت إلى الرسول وقال: قل له عندي من هؤلاء عشرون ألفاً هذا حد طاعتهم لي[1].

واستخدم الحسن بن الصباح كل ما لديه من مكر وحيلة ووسائل خداع حتى يبقى هؤلاء الفداوية طوع إرادته، فيروى الرحالة البندقي ماركوبولو أن شيخ الجبل «الحسن بن الصباح» أنشأ في واد محصور بين جبلين شامخين بستاناً فاخراً، جمع فيه أشهى الثمرات وأعطر النباتات وشيد فيه قصوراً متنوعة الأحجام والأشكال، زينت بزخارف من ذهب، وملئت حجراتها بالصور الزاهية وبالأثاث المكسو بأفخم الدمقس[2] والاستبرق واستخدمت أنابيب صغيرة صممت في هذه المباني وبواسطتها كانت أنهار من خمر ولبن وعسل وماء فرات تشاهد وهي تفيض في كل اتجاه. وكانت تسكن هذه القصور حوريات وشيقات جميلات دربن حتى أتقنَّ جميع فنون الغناء واللعب على جميع أنواع الآلات الموسيقية والرقص، كما أتقن بوجه خاص الغزل والإغراء والدلال. وكن يشاهدن دوماً وقد ارتدين أثمن الثياب وهن يتلاعبن ويسلين أنفسهن في الحديقة وماحوت من جواسق وسرادقات. وجرت عادة شيخ الجبل «الحسن بن الصباح» بالتحدث إلى الفداوية يومياً في موضوع الجنة التي بشر بها النبي ﷺ وعن قدرته هو على الإنعام بالدخول إليها للمقربين وبعد حديث طويل يتم من خلاله التشويق إلى الجنة ونعيمها يأمر الحسن بن الصباح بإعطاء

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط، ١٣/ورقة ١٣٤أ، ابن واصل: التاريخ الصالحي، مخطوط، ورقة ١٧٠ب، ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص ١٢٨، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٥٩.

(٢) الدمقس: هو الديباج أو الحرير الأبيض أو القز. الفيروز ابادي: القاموس المحيط ٢/٢١٧.

الأفيون (الحشيس) لعشرة أو اثني عشر من هؤلاء الشبان «الفداوية» فإذا صرعهم النوم فأصبحوا نصف موتى أمر بحملهم إلى الأجنحة العديدة للقصور المتناثرة في البستان، فإذا استيقظوا من حالة التخدير، صعقت حواسهم بما يرونه من أشياء ووجد كل واحد منهم نفسه محوطاً بجواري فاتنات يغنين له ويلعبن بالآلات ويستهوين لبه وحواسه بأفتن أنواع المداعبة والعناق، ويقدمن إليه أشهى اللحوم وأفخر الخمور، ولا يزلن به حتى يسكر، حتى يعتقد تماماً أنه في الفردوس، فإذا انقضت بهم على تلك الحال أربعة أيام أو خمسة دفعوا بهم ثانية إلى حالة من النعاس وحُملوا إلى خارج البستان، وعندما يدخلون إلى حضرة «شيخ الجبل» يسألهم أين كانوا: فيجيبون: «في الفردوس بفضل عطف سموكم». عندئذ يقول الرئيس مخاطباً لهم: «لقد وعدنا رسول الله ﷺ وكان وعده حقاً، بأن الجنة يرثها عباد الله الصالحون الذين يدافعون عن مولاهم، وإذا أطهرتم إخلاصاً في طاعة أوامري فإن ذلك المصير السعيد ينتظركم». حتى إذا سرت فيهم الحماسة بأقوال من هذا النوع، كان كل فرد فيهم يعد نفسه سعيداً حين يتلقي أوامر سيده ويبدي توقه إلى لقاء الموت في خدمته.

وكانت نتيجة هذا النظام، أنه متى جرؤ أي أمير مجاور أو بعيد على إثارة استياء هذا الرئيس، كان جزاؤه الموت على يد هؤلاء السفاكين المدربين. ولم يكن أحد منهم يحس أدنى رهبة عند مخاطرته بفقد حياته التي لم يكن لها عندهم وزن كبير، ما تمكنوا من تنفيذ إرادة مولاهم وبناء على هذا أصبح موضع طغيانه الرهبة والفزع في جميع الأقطار المجاورة[1].

(١) ماركوبولو: رحلة ماركوبولو لـ «الينابيع» ص ٦٤،٦٥.

أما بالنسبة لأسلوب الدعوة الذي اتبعه الدعاة للدعوة النزارية فقد استخدموا عدة وسائل وتسلحوا بأسلحة مختلفة كي ينشروا أفكارهم ويدخلوا الناس في الدعوة النزارية ويصف أبوحامد الغزالي وسائلهم التي كانوا يستخدمونها بأنها حيل يحتالون بها على الناس فقال: أما درجات حيلهم فقد نظموها على تسع درجات مرتبة، ولكل مرتبة اسم. أولها النزرق والتفرس، ثم التأنيس، ثم التشكيك، ثم التعليق، ثم الربط، ثم التدليس، ثم التلبيس، ثم الخلع، ثم السلخ[1].

أولاً: الزرق والتفرس:

ينبغي أن يكون الداعي فطناً ذكياً صحيح الحدس صادق الفراسة متفطناً للبواطن بالنظر إلى الشمائل والظواهر، قادراً على إدراك مكنونات النفس البشرية يستطيع أن يتبين قوة إرادة الفرد ومبلغ سهولة انقياده، فيميز بين من يجوز أن يطمع في استدراجه ويوثق بلين عريكته لقبول ما يلقى إليه على خلاف معتقده. فرب رجل جمود على ما سمعه لا يمكن أن ينتزعه منه ما يستفيد منه، فلا يضيعن الداعي كلامه مع مثل هذا وليقطع طمعه منه، وليلتمس من فيه انفعال وتأثر بما يلقى إليه من الكلام. كذلك على الداعي ألا يدعو الناس كلهم إلى طريق واحد، بل يبحث أولاً عن معتقد كل إنسان وما يميل إليه طبعه ومذهبه، فإن كان يميل إلى الزهد والتقشف والتقوى دعاه إلى الطاعة والانقياد وزجره عن اتباع الغي والشهوات. وإن كان طبعه مائلاً إلى المجون والخلاعة، رسخ الداعي في نفسه أن العبادة بله.وأن الورع حماقة، وإنما الفطنة في اتباع الشهوة ونيل اللذة وقضاء الوطر

(١) أبوحامد الغزالي: فضائح الباطنية ص ٢١، البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٩٨.

من هذه الدنيا الفانية. وهكذا يتدرج الداعي ويسير مع كل واحد في الطريق الذي يناسبه.

ثانياً: حيلة التأنيس:

وهو من الأنس بمعنى بعث الأمن والطمأنينة في نفوس المدعوين والمستجيبين فرسموا للدعاة أن يجعلوا مبيتهم كل ليلة عند واحد من المستجيبين، ويجتهدون في استصحاب من له صوت طيب في قراءة القرآن ليسمعهم شيئاً منه، ثم يتحدث الداعي بشيء من الكلام الرقيق والمواعظ المؤثرة في القلوب ثم يردف ذلك بالطعن في السلاطين وعلماء الزمان ويعد بأن الفرج سيأتي ببركة أهل بيت رسول الله ﷺ، وأثناء الحديث يبكي أحياناً ويتنفس الصعداء، وإذا ذكر آية أو خبراً ذكر أن لله سراً في كلماته لا يطلع عليه إلا من اجتباه الله وشمله بلطفه، وإذا استطاع الداعي أن يتهجد بالليل مصلياً وباكياً عند غيبة صاحب البيت بحيث يطلع عليه، فإذا أحس بأنه اطلع عليه عاد إلى منامه واضطجع كالذي يقصد إخفاء عبادته. كل ذلك ليستحكم الأنس به ويميل القلب إلى الإصغاء إلى كلامه.

ثالثاً: حيلة التشكيك:

ومعناها أن يقوم الداعي بزعزعة وتغيير عقيدة المستجيبين وتعتبر هذه الخطوة من أخطر الخطوات فيبدأ بالسؤال عن الحكمة من الشرائع، وما معنى المتشابه من الآيات وما معنى «آلر» و«كهيعص» و«حم عسق» إلى غير ذلك من أوائل السور وهل تعيين هذه الحروف بعينها لأسرار هي مودعة فيها لم تصادف في غيرها، أم لا؟. ويشكك في الأحكام: ما بال الحائض تقضي الصوم دون الصلاة؟ ولماذا يجب الاغتسال من المني الطاهر ولا يجب من البول النجس؟ ويشككه في أخبار القرآن

فيقول: ما بال أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة؟ وما معنى قوله: «عليها تسعة عشر» هل انتهت القافية فلم يكمل العشرين، إنه ليخيل إلى أن وراء هذا التقييد سراً لا يطلع عليه إلا الأنبياء والأئمة الراسخون في العلم؟ وأن هذا السر فيه فائدة والعجب من غفلة الخلق لا يشمرون عن ساعد الجد لمعرفة هذه الفائدة، ولا يزال يشككه حتى ينطبع في نفسه أن تحت هذه الأشياء أسراراً سُدّت عنه وعن أصحابه ويصبح في شوق لمعرفة هذه الأسرار وحقيقة هذه الأشياء.

رابعاً: حيلة التعليق:

وهي ترك المستجيب بعد تشكيكه في عقيدته معلقاً متشوقاً إلى معرفة المذهب الإسماعيلي، فيهوّل الأمر عليه ويعظمه في نفسه ويقول له: لا تعجل فإن الدين أجل من أن يُعبث به أو أن يوضع في غير موضعه، ويُكشَف لغير أهله ثم يقول له: لا تعجل، إن ساعدتك السعادة وحالفك الحظ، ستعرف السر، أما سمعت قول صاحب الشرع: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[1].

وهكذا يبقى يشوقه حتى يصبح متعطشاً لمعرفة ذلك السر، فإذا وصل إلى هذه الدرجة قال له: إن هذه الأسرار مكتومة لا تودع إلا في سر مُحصّن فحصن حرزك وأحكم مداخله حتى أودعه فيه. فيقول المستجيب: وما الطريق إلى ذلك؟ فيقول: أن آخذ عهد الله وميثاقه على كتمان هذا السر ومراعاته عن التضييع فإنه الدر الثمين والعِلق النفيس. وما أودع الله هذه الأسرار أنبياءه إلا بعد أخذه عهدهم وميثاقهم،

---

(١) رواه البزار في كتاب الإيمان باب التيسير، الهيثمي: كشف الأستار عن زوائد البزار ١/٥٧.

وتلا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[2]. وأما النبي ﷺ فلم يفشه إلا بعد أخذ العهد على الخلفاء وأخذ البيعة على الأنصار تحت الشجرة، فإن كنت راغباً فاحلف لي على كتمانه، ولك الخيرة بعد ذلك: فإن وفقت لدرك حقيقته سعدت سعادة عظيمة، وإن اشمأزت نفسك فلا حرج عليك، كل ميسر لما خلق له، ونحن نقدر كأنك لم تسمع ولم تحلف، فإن أبى الحلف تركه، وإن استجاب أخذ منه الأيمان والعهود والمواثيق.

خامساً: حيلة الربط:

وهي أن يربط لسان المستجيب بأيمان مغلظة، وعهود مؤكدة لا يقدر على المخالفة لها بأي حال. وهذه نسخة العهد: يقول الداعي للمستجيب: «جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله عليه السلام وما أخذ الله على النبيين من عهد وميثاق، إنك تُسِرُّ ما سمعته مني وتسمعه وعلمته وتعلمه من أمري وأمر المقيم بهذه البلدة لصاحب الحق الإمام المهدي، وأمور إخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته، وأمور المطيعين له على هذا الدين، ومخالصة المهدي ومخالصة شيعته من الذكور والإناث والصغار والكبار، ولا تظهر من ذلك قليلاً ولا كثيراً تدل به عليه، إلا ما أطلقت لك أن تتكلم به، أو أطلق لك صاحب الأمر المقيم في هذا البلد أو في

(١) سورة الأحزاب: آية ٧.

(٢) سورة النحل: آية ٩١.

غيره، فتعمل حينئذ بمقدار ما نرسمه لك ولا تتعداه. جعلت على نفسك الوفاء بما ذكرته لك وألزمته نفسك في حال الرغبة والرهبة، والغضب والرضا، وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه أن تتبعني وجميع من أسميه لك وأبينه عندك مما تمنع منه نفسك وأن تنصح لنا وللإمام ولي الله نصحاً ظاهراً وباطناً، وألا تخون الله ولا وليه ولا أحداً من إخوانه وأوليائه ومن يكون منه ومنا بسبب: من أهل ومال ونعمة، وأنه لا رأي ولا عهد تتناول على هذا العهد بما يبطله. فإن فعلت شيئاً من ذلك وأنت تعلم أنك قد خالفته، فأنت بريء من الله وَرُسُله الأولين والآخرين، ومن ملائكته المقربين، ومن جميع ما أنزل من كتبه على أنبيائه السابقين، وأنت خارج من كل دين، وخارج من حزب الله وحزب أوليائه، وداخل في حزب الشيطان، وحزب أوليائه، وخذلك الله خذلاناً بيناً يعجل لك بذلك النقمة والعقوبة إن خالفت شيئاً مما حلفتك عليه. بتأويل أو بغير تأويل فإن خالفت شيئاً من ذلك فلله (عليك أن تحج إلى بيته ثلاثين حجة نذراً واجباً، ماشياً حافياً، وإن خالفت ذلك) فكل ما تملكه في الوقت الذي تحلف فيه صدقة على الفقراء والمساكين الذين لا رحم بينك وبينهم وكل مملوك يكون لك في ملكك يوم تخالف فيه فهم أحرار، وكل امرأة تكون لك أو تتزوجها في قابل (أي في المستقبل) فهي طالق ثلاثاً بتة إن خالفت شيئاً من ذلك، وإن نويت أو أضمرت في يميني هذه خلاف ما قصدت فهذه اليمين من أولها إلى آخرها لازمة لك. والله الشاهد على صدق نيتك وعقد ضميرك. وكفى بالله شهيداً بيني وبينك قل نعم – فيقول ((نعم)).

سادساً: حيلة التدليس:

وهو أنه بعد اليمين وتأكيد العهد لايسمح ببث الأسرار للمستجيب دفعة واحدة، ولكن يتدرج شيئاً فشيئاً فيذكر له بداية أصول وقواعد المذهب ويقول: عين الجهل تحكيم الناس عقولهم الناقصة وآرائهم المتناقضة وإعراضهم عن الاتباع

والتلقي من أصفياء الله وأئمته وأوتاد أرضه، والذين هم خلفاء رسوله من بعده، فمنهم الذين أودعهم الله سره المكنون ودينه المخزون، وكشف لهم بواطن هذه الظواهر وأسرار هذه الأمثلة، وإن الرشد والنجاة من الضلال بالرجوع إلى القرآن وأهل البيت ولذلك قال عليه السلام: (ألم أترك فيكم القرآن وعترتي؟) أي أعقابه فهم الذين يطّلعون على معاني القرآن ثم يقول له: «إني مفشٍ إليك سراً وعليك حفظه». فإذا قال: نعم، قال: «إن فلاناً وفلاناً يعتقدون هذا المذهب، ولكنهم يسرونه»، ويذكر له من الأفاضل من يعتقد المستجيب فيهم هذا الذكاء والفطنة، وليكونوا بعيدين عن بلده، حتى لا تتيسر له المراجعة بعد هذه المقدمات يصبح المستجيب في شوق ولهف إلى معرفة كنه هذا المذهب فيتدرج الداعي بعد ذلك في تفصيل المذهب للمستجيب.

سابعاً: حيلة التلبيس:

وهي تعريف المستجيب على مقدمات مقبولة الظاهر مشهورة عند الناس حتى تترسخ في نفسه، ثم بعد ذلك يستدرجه باستخلاص نتائج باطلة من هذه المقدمات.

ثامناً وتاسعاً: حيلة الخلع والسلخ:

وهما متفقتان، ويقصد بهما إقصاء المستجيب عن مذهب أهل السنة نهائياً فالخلع يختص بالعمل فإذا وصلوا بالمستجيب إلى ترك حدود الشرع وتكاليفه يقولون وصلت إلى درجة الخلع. أما السلخ فيختص بالاعتقاد الذي هو خلع الدين.

فإذا انتزعوا ذلك من قلبه دعوا ذلك سلخاً وسميت هذه الرتبة: البلاغ الأكبر[1].

هذه هي درجات حيلهم في الدعوة لمذهبهم. أسلوب قائم على الخداع والحيلة لإيقاع السذج من الناس في شراكهم وحبائلهم، لذلك كان من الضروري الاطلاع على هذه الحيل، ففي الاطلاع عليها فوائد جمة لجماهير الأمة كما يقول الغزالي[2].

أما فيما يتعلق بالجانب العقدي في الدعوة النزارية الإسماعيلية فهم يقولون: إن الأمر صار إلى نزار بعد أبيه المستنصر، وإن من جحد إمامته فقد أخطأ، ويرون أن الطعن على الحسن بن الصباح فيما نقله عن المستنصر في قوله: الإمامة بعدي في ولدي نزار، من أعظم الآثام[3].

بعد وفاة المستنصر وانتقال الإمامة إلى ابنه الأصغر أحمد المستعلي ثار الحسن ابن الصباح واعتبر ذلك اغتصاباً للحق الشرعي لنزار في الإمامة، فتركزت جهود الحسن بن الصباح في نشر الدعوة لنزار، وكان يقول هو ومن جاء بعده من حكام آلموت: أنهم دعاة الأئمة من نسل نزار. وقد كان أولئك المزعومون في ستر تام ولم يعرف عنهم أي شيء. فاتبع نظرية الإمام المستور[4] وجعل من نفسه نائباً للإمام

---

(١) أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية ص ٢١-٣٢، المقريزي: خطط المقريزي ٢/٩٧-١٠٧، البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٩٨-٣١٢.

(٢) أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية ص ٢١.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ١٣/٢٤٤.

(٤) ذكرت بعض المراجع مثل كتاب أحمد جلي وغيره أن الحسن بن الصباح ابتدع نظرية جديدة هي نظرية الإمام المستور وهذا غير صحيح، فنظرية الإمام المستور قامت عليها أغلب الدعوات الشيعية فمثلاً المهدي الفاطمي أرسل دعاته إلى المغرب وبقي هو مستوراً ولم يظهر إلا بعد أن استقام الأمر له بأفريقية وقامت الدولة الفاطمية. فإذا الحسن بن الصباح لم يبتدع نظرية الإمام المستور بل اتبعها.

المستور من ولد نزار، واستغل مبدأ التعليم من الإمام المعصوم، فادعى أنه لا يمكن لأي إنسان أن يعرف شيئاً عن طريق غير طريق الإمام أو نائبه، وما دام هو نائباً فقد أصبح مصدر العرفان[١].

كما لجأ ابن الصباح إلى التأويل، فأول القرآن للنزارية تأويلاً يتفق ونزعاته السياسية، فاعتقد الدعاة أنه أحق بتعيينهم، وقدسه المستجيبون[٢].

ظل الحسن بن الصباح قائماً على أمور الدعوة النزارية يرعاها ويمدها بتوجيهاته وتعليماته، فلما أحس بقرب الأجل استدعى إليه في آلموت اثنين من أشد الناس إخلاصاً له ولدعوته وهما «كيابزرك أميد» و«أبوعلي» داعي الدعاة، فجعل الأول مسئولاً عن النواحي الدنيوية وقائداً للفدائيين وجعل الثاني مسئولاً على أمور الدعوة الروحية[٣].

بعد وفاة الحسن بن الصباح في ٦ ربيع الثاني سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م، تولى رئاسة الإسماعيلية النزارية في آلموت وسائر القلاع كيابزرك أميد، وقد تميز عهده بالحروب مع السلاجقة مما أدى إلى تدهور قوة الإسماعيلية في كثير من القلاع وانحسار دولة آلموت فثار أهل آمد[٤] على من عندهم من الإسماعيلية فقتلوا منهم

---

(١) برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ٧٧، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٢٧١/٤، أحمد جلي: دراسة عن الفرق ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٢٧١/٤.

(٣) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ٧٩، محمد السعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران ص ١٠٤، ١٠٥.

(٤) آمد: مدينة قديمة حصينة مبنية بالحجارة السود وهي أعظم مدن ديار بكر من بلاد الجزيرة، ونهر دجلة محيط بها من جميع جوانبها إلا من جهة واحدة على شكل هلال. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥٦/١، القزويني: آثار البلاد ص ٤٩١.

نحو سبعمائة رجل، فضعف أمرهم بعد هذه الواقعة[1].

استمر كيابزرك أميد في الحكم إلى أن مات في سنة ٥٣٢هـ وتولى رئاسة الإسماعيلية بعده أبناؤه وأحفاده ففي سنة ٥٥٧هـ تولى زعامة الدولة النزارية الحسن الثاني وهو حفيد كيابزرك أميد وكان الحسن هذا ذا عقلية فلسفية قوية، درس مؤلفات كبار المفكرين الإسماعيليين والفلاسفة وخصوصاً كتب ابن سينا، وكتب التصوف، وأراد الحسن الثاني العودة بالإسماعيلية في آلموت إلى عهد الحسن بن الصباح بما كانت عليه من حيوية فبدأ في الدعوة إلى تأويل روحي للإسماعيلية مختلف عما ألفته الإسماعيلية في عهد أبيه وجده، وكان الحسن الثاني فصيحاً وعالماً فاستطاع التأثير في اتباع الإسماعيلية في آلموت وقلاع الجبل، وأصبحت له عندهم مكانة كبيرة. ويبدو أن بعض هؤلاء قد أخذوا يمجدونه إلى درجة أن زعموا أنه هو الإمام المنتظر[2].

بعد عامين ونصف من حكمه بدأ الحسن الثاني في نشر إصلاحاته ففي ١٧ رمضان سنة ٥٥٩هـ دعا كل الأهالي في مملكته للإجتماع في رحبات الصلاة عند سفح قلعة آلموت فطلع عليهم وادعى أنه جاءه شخص سراً من عند الإمام المستور يحمل رسالة جاء فيها: «أن الحسن بن كيابزرك هو خليفتنا وداعينا وحجتنا، فعلى جميع من هم على عقيدتنا أن يطيعوه في الأمور الأخروية والدنيوية وأن يأتمروا بأوامره، ويعتبروا كلماته من وحي الله وأن لا يخالفوا له أمراً، بل يتقيدوا بها

(١) ابن الأثير: الكامل ٦٢٥/١٠، الذهبي: دول الإسلام ٤٤/٢.

(٢) عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٣٤٣/٢.

ويعملوا بها كما لو كانت من لدنا»[1].

وبعد أن قرئ هذا السجل على الناس خطبهم الحسن الثاني وأمرهم بطرح جميع التكاليف الدينية والامتناع عن إقامة الفرائض الإسلامية لأن النبي ﷺ قال: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[2] فالإمام هو المسئول الأول عن أتباعه، وهو الذي يتحمل بدلهم الحساب يوم القيامة، إن أطاعوه طاعة تامة واعتقدوا إمامته على هذا النحو. وبذلك دخلت الدعوة الإسماعيلية في دور جديد هو دور القيامة أي عدم القيام بالفرائض الدينية من صلاة وصوم وحج. وعدم التقيد بما كان عند الإسماعيلية في دور الظهور الأول «أي في العصر الفاطمي» من الاعتقاد بالظاهر والباطن والقيام بالشعائر الدينية الظاهرة فوجدت هذه الآراء الجديدة آذاناً صاغية من أتباع الإسماعيلية في آلموت. ثم مالبث الحسن الثاني في سنة ٥٥٩هـ أن قام بخطوة جديدة فأعلن أنه هو الإمام من نسل نزار بن المستنصر الفاطمي، وأصبح اسمه لا يذكر إلا مقروناً بقولهم: «على ذكره السلام» وبذلك أصبح حكام آلموت من الحسن الثاني ومن جاء بعده من سلسلة النسب الفاطمي، فازداد الناس حوله التفافا وفرحاً بظهوره بعد الستر، وطاعة له لأنه المسئول عنهم أمام الله وقالوا: إن طاعة الإمام الآن أوجب من أي وقت مضى. وهكذا أتى الحسن الثاني بثلاث تجديدات، ما لبث أتباع النزارية في كل مكان أن قبلوها على درجات متفاوتة:

---

(١) عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٣٤٤/٢، ٣٤٥، محمد كامل حسن: طائفة الإسماعيلية ص ٨١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب الجمعة، البخاري: صحيح البخاري ١٦٠/١، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل، مسلم: صحيح مسلم ٢١٣/١٢.

أولا: أعلن نفسه خليفة لله في أرضه، ولم يعد مجرد داع كما كان أسلافه في آلموت.

ثانياً: نسخ حكم الشريعة.

ثالثاً: أعلن قيامة الموتى، ونهاية الدنيا، وأن الذين استجابوا لدعوته قد بعثوا الآن للحياة الباقية، وأن من لم يستجيبوا له قضى عليهم بالفناء[1].

استمر أتباع الإسماعيلية في آلموت وقلاع الجبل سائرين على هذه التعاليم يمجدونها إلى أن برزت حركة مضادة لحركة القيامة التي أعلنها الحسن الثاني والتي بدأت بتولي الحسن الثالث حفيد الحسن الثاني لزعامة الإسماعيلية في آلموت سنة ٦٠٧هـ إذ أمر بإعادة القيام بالفرائض الدينية كما كانت قبل ظهور جده، وأمر ببناء المساجد وإقامة الآذان للصلاة وقرب إليه الفقهاء والقراء. ووردت رسل الباطنية إلى بغداد من آلموت وبقية بلادهم أخبروا أنهم أسلموا وأظهروا شعائر الإسلام وبعثوا ذهباً مضروباً باسم «الخليفة العباسي» الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢)[2]. وأرسل الحسن الثالث إلى السلطان السلجوقي وغيره من الملوك والأمراء المسلمين يؤكد لهم صدق عودته إلى التعاليم الإسلامية والقيام بشعائر الدين وفرائضه، ففرح المسلمون بذلك، وأخذ كل ملك يخلع على الحسن الثالث الألقاب الإسلامية ومن هذه الألقاب «المسلم الجديد». وذهب الحسن الثالث إلى أبعد من هذا إذ انتهز فرصة زيارة بعض وفود المسلمين له فأحرق أمامهم كتب الحسن بن الصباح وكتب الإسماعيلية السرية، وطعن في الحسن بن الصباح وكل من

(١) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ٨١-٨٢، عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٢/٣٤٥.

(٢) ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري، مخطوط، ورقة ٥٣٢أ، ابن الأثير: الكامل ١٢/٢٩٨.

تولى أمر الإسماعيلية بعده ورماهم جميعاً بالكفر والإلحاد، ثم بعث أمه وزوجه لأداء فريضة الحج، وأمر ببناء التكايا على طول الطريق إلى مكة المكرمة ثم شرع في عقد معاهدات الصلح والتحالف مع أعدائه من الملوك والأمراء.

استمر الحسن الثالث على هذه التعاليم طوال فترة حكمه وكذلك ابنه محمد الثالث الذي جاء إلى الحكم بعده في سنة ٦١٨هـ سار على نفس النهج مؤكداً على تعاليم أبيه ولكن على ما يبدو أن الإسماعيلية في آلموت من أتباع الحسن الثاني لم يكونوا راضين عن هذه التعاليم الجديدة مما أثار غضبهم الشديد فعقدوا العزم على التخلص من محمد الثالث بن الحسن الثالث فارسلوا إليه أحد الفدائيين فطعنه بخنجر فقتله وذلك في عام ٦٥٣هـ. وبمقتل محمد الثالث رجعت الإسماعيلية إلى آراء الحسن الثاني فعادت إلى ما كانت عليه من ضلال وانحراف عن الدين واغتيال وإرهاب واستمرت على هذا النهج إلى أن اجتاحت جموع الجيش المغولي القلاع والحصون التي في طريقها، وكانت قلاع الإسماعيلية من بينها فدمرت ونهبت وكتبت نهايتها على يد هولاكو قائد الجيش المغولي في عام ٦٥٤هـ وقتل ركن الدين خورشاه آخر الإسماعيلية النزارية في آلموت[1]. وبذلك انتهت الدولة الإسماعيلية النزارية في بلاد فارس والتي دامت إحدى وسبعين ومائة عاماً. كان بدؤها عام ثلاث وثمانين وأربعمائة (٤٨٣هـ) وانتهاؤها عام أربع وخمسين وستمائة (٦٥٤هـ)، وكان عدد أئمة هذه الدولة ثمانية تولوا الحكم على التوالي بالترتيب وهم:

---

(١) الذهبي: دول الإسلام ١٥٨/٢، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ٨٥،٨٦، كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٥٦.

١- الحسن بن الصباح الحميري (٤٨٣-٥١٨هـ)

٢- كيابزرك أميد (٥١٨-٥٣٢هـ)

٣- محمد بن كيابزرك أميد (٥٣٢-٥٥٧هـ)

٤- الحسن الثاني ابن محمد (٥٥٧-٥٦١هـ)

٥- محمد الثاني ابن الحسن الثاني (٥٦١-٦٠٧هـ)

٦- الحسن الثالث ابن محمد الثاني (٦٠٧-٦١٨هـ)

٧- محمد الثالث ابن الحسن الثالث (٦١٨-٦٥٣هـ)

٨- ركن الدين خورشاه (٦٥٣-٦٥٤هـ)

أما عن الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام فإن أول ظهورهم كان عام ٤٩٩هـ حيث تملكوا حصن أفامية[١] فقطعوا الطريق وأخافوا السبل وانضم إليهم كل مفسد[٢]. كان أول من أظهر هذا المذهب الخبيث بالشام هو الحكيم المنجم وأبوطاهر الصائغ أيام الملك رضوان فمال خلق كثير بسرمين[٣] والجزر[٤] وجبل[٥]

(١) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢٢٧/١.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ١٣/ ورقة ١٤٢أ، الذهبي: دول الإسلام ٢٨/٢.

(٣) سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب أهلها من الإسماعيلية. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢١٥/٣.

(٤) الجزر: موضع بالبادية وهي كورة من كور حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان ١٣٣/٢.

(٥) جبل السماق: جبل عظيم من أعمال حلب الغربية مشتمل على مدن عظيمة وقرى وقلاع كلها مساكن للإسماعيلية الملاحدة. البغدادي: مراصد الاطلاع ٣١١/١.

السماق[1]. واستطاع الحكيم المنجم بشيء من المكر والدهاء أن يستميل الملك رضوان أمير حلب إلى الإسماعيلية الباطنية فأخذ الملك رضوان يستعين بهم لقلة دينه، فكثروا في حلب وأظهروا مذهبهم وأصبح لهم دار دعوة بها[2].

أخذ الملك رضوان يستغل شجاعة الإسماعيلية وجرأتهم في التخلص من أعدائه وتحقيق أطماعه الشخصية فأوعز إليهم باغتيال زوج أمه جناح الدولة حسين صاحب حمص بعد أن أشاع الباطنية وشاية مفادها أن جناح الدولة حسين عازم على أخذ حلب من رضوان، فأرسل إليه الحكيم المنجم ثلاثة نفر من الفدائية فوثبوا عليه في المسجد الجامع بحمص فقتلوه هو وجماعة من أصحابه بعد انتهائهم من صلاة الجمعة، وقتل الحكيم المنجم بعد الحادثة بأربعة عشر يوماً[3].

تولى أمر الدعوة الباطنية بحلب بعد مقتل الحكيم المنجم رفيقه أبوطاهر الصائغ العجمي، فاستمر على سياسة سلفه في نشر الأضاليل وبث الرعب وسفك الدماء فاستطاع في سنة ٤٩٩هـ وبمساعدة أحد دعاتهم أبوالفتح السرميني وبعض من أهل سرمين من أن يقتل خلف بن ملاعب صاحب حصن أفامية وأن يستولي على الحصن ويقيم فيه[4]. لكن بلغ الملك رضوان في سنة ٥٠١هـ أنه لعن في مجلس السلطان بركيارق السلجوقي بسبب مشايعته للباطنية، واستعانته بهم وحفظه لجانبهم، فأمر

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٦٨/٥، ١٦٩.

(٢) أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٢٢٧/٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٠٥/٥، ابن الأثير: الكامل ٤٩٩/١٠، ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب ص ١٤٠، ١٤١.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٦٨/٥، ١٦٩، ابن العديم: بغية الطلب ص ١٢١، ١٢٢، ١٢٣.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٢، ابن العديم: بغية الطلب ص ١٢٩، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣٦/٣.

أبا الغنائم ابن أخي أبي الفتح السرميني الباطني بالخروج من حلب هو ومن معه من أصحابه، فخرج القوم من حلب فتخطفوا وقتل منهم أفراد[1]. ومع ذلك بقي الملك رضوان يستخدم الباطنية في أغراضه الخاصة ويستعين بهم في أموره، إلى أن بلغه أنهم يريدون اغتياله، وأخذ قلعة حلب منه فأدرك خطرهم وبدأ في اضطهادهم ولكنه توفي سنة ٥٠٧هـ فملك حلب بعده ابنه ألب أرسلان، فأرسل إليه السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه كتاباً قال فيه: «كان والدك يخالفني في الباطنية، وأنت ولدي، فأحب أن تقتلهم». فشرع ابن بديع رئيس الشرطة في حلب في الحديث مع الملك ألب أرسلان في شأن الباطنية وخوفه منهم، وحثه على قتلهم والإيقاع بهم. فأمره ألب أرسلان بذلك فقبض على مقدمهم أبي طاهر الصائغ، وعلى كل من دخل في مذهبهم وكان عددهم زهاء مائتي نفس، فقتل في الحال أبوطاهر الصائغ، وإسماعيل الداعي، وأخو الحكيم المنجم والأعيان منهم، وحبس الباقون واستصفيت أموالهم، وشفع في بعضهم، فمنهم من أطلق، ومنهم من رمي من أعلى القلعة، وهرب منهم جماعة قاصدين الفرنج، وتفرقوا في البلاد[2].

استمرت محنة الباطنية وبقوا متخفين لا يقدر أحد منهم أن يظهر نفسه، إلى أن وفد إلى الشام داعي الباطنية بهرام، فعظم أمره وهو على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزي واللباس فكان يطوف البلاد ولا أحد يعرف شخصه، فأخذ يدعو أوباش الناس، فتبعه الجهال منهم وسفهاء العوام، فكثر جمعه وأقام بحلب مدة

(١) ابن العديم: بغية الطلب ص ١٤٤.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٢/ ورقة ٦٣ب، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٢، ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٩٩.

عند إيليغازي صاحبها، وأراد إيليغازي أن يتقي شره وشر أصحابه فأشار إيلغازي (على ظهير الدين) طغتكين أتابك[1] دمشق بأن يجعله عنده لهذا السبب، فقبل رأيه فذهب بهرام إلى دمشق ودعا إلى مذهبه بها، وأظهر شخصيته وأعانه أبوطاهر بن سعيد المزدقاني وزير طغتكين، فعظم شره واستفحل أمره وصار أتباعه أضعاف ما كانوا، حتى كاد أن يملك البلد غير أن بهرام رأى من أهل دمشق فظاظة وغلظة عليه فخاف عاديتهم فطلب من طغتكين حصناً يأوي إليه هو ومن اتبعه، فأشار الوزير المزدقاني بتسليم قلعة بانياس[2] إليه، فسلمت إليه فسار إليها وتجمع حوله أصحابه من كل ناحية، فعظم حينئذ خطبه وجلت المحنة بظهوره، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين ولا سيما أهل السنة[3].

بدأ بهرام وجماعته من الباطنية ينشرون الرعب والفزع في وسط المجتمع الإسلامي، وبدأوا في استخدام أسلوبهم المعهود في الغدر والاغتيال وتصفية قادة الجهاد من المسلمين الذين أخذوا على عاتقهم توحيد الجبهة الإسلامية والوقوف في وجه الصليبيين لطردهم من بلاد المسلمين، فوجهوا خناجرهم الغادرة إلى قسيم الدولة آقسنقر البرسقي صاحب الموصل بدلاً من توجيهها إلى الصليبيين أعداء المسلمين، فقتلوه يوم الجمعة بالمسجد الجامع وهو يصلي الجمعة مع العامة فخسر

---

(١) أتابك: معناها أمير أب أي أبو الأمراء أي أكبر الأمراء المقدمين وليس للأتابك وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي، وغايته رفعة المحل وعلو المقام. انظر القلقشندي: صبح الأعشى ١٨/٤.

(٢) بانياس: بلدة قرب دمشق، تحت الجبل الذي في غربي دمشق، يرى عليه الثلج، وفيها الليمون والأترج. انظر البغدادي: مراصد الاطلاع ١٥٨/١.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٢،٣٤٣، ابن الأثير: الكامل ٦٣٢/١٠،٦٣٣، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/٣.

العالم الإسلامي بمقتله واحداً من قادة الجهاد ضد الصليبيين والإسماعيلية[1].

لم يكتف بهرام داعي الباطنية بذلك بل حدثته نفسه بقتل برق بن جندل أحد مقدمي وادي التيم لغير سبب حمله عليه، بل اغتراراً بعاقبة الظالمين في سفك الدماء المحرمة، وإفاضة النفوس المحظورة فخدعه إلى أن حصل في يده فاعتقله وقتله صبراً[2]. ثارت الحمية في نفس الضحاك بن جندل أخو برق بن جند وجماعته وأسرته، فعزموا على الأخذ بثأره فتجمعوا وتعاهدوا وتحالفوا على المصابرة على لقاء أعدائهم، فخرج إليهم الضحاك في ألف رجل وكبس عسكر بهرام فوضع فيهم السيف، وقتل منهم عدداً كبيراً، وقتل بهرام وقطع رأسه ويده ومضى بهما إلى مصر بشارة بهلاكه، أما الذين سلموا من القتل فانهزموا وعادوا إلى بانياس على أقبح صورة[3].

تولى أمر الباطنية في الشام بعد مقتل بهرام، صاحبه إسماعيل العجمي، وكان بهرام قد استخلفه في بانياس فقام مقامه وجمع فلول الباطنية ورتب أمرهم وبث دعاته في البلاد، وساعده في ذلك الوزير أبوعلي المزدقاني إذ أقام بدمشق مكان بهرام رجلاً باطنياً اسمه أبوالوفاء فقوي أمر هذا الباطني وعلا شأنه وكثر أتباعه حتى أصبح حكمه في دمشق أكثر من حكم تاج الملوك[4] صاحبها[5].

---

(١) الذهبي: العبر ٤١٣/٢، ابن الأثير: الكامل ٦٣٣/١٠، ٦٣٤، أبوشامة: الروضتين في أخبار الدولتين ٣٠/١، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٦١/٤.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٢، ابن الأثير: الكامل ٦٥٦/١٠.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٢، ٣٥٣، ابن الأثير: الكامل ٦٥٦/١٠، ابن أبي الدم: التاريخ المظفري ورقة ٤٥٢ب، النويري: نهاية الأرب ٧٩/٢٧.

(٤) هو تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق، تولى الأمر في دمشق بعد وفاة أبيه سنة ٥٢٢هـ.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٦٥٦/١٠، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/٣، القلقشندي: صبح الأعشى ١٢١/١، ١٢٢، النويري: نهاية الأرب ٨٠/٢٧.

لم يكتف الوزير المزدقاني بمشايعته للباطنية ومساعدته لهم بل ذهب إلى أبعد من هذا إذ استحل الخيانة العظمى بمراسلته للفرنج على أن يسلم إليهم مدينة دمشق، ويسلموا إليه مدينة صور، فاتفقوا على هذا واستقر الأمر بينهم على أن يأتي الفرنج إلى دمشق يوم الجمعة لأخذها. ورتب المذدقاني الأمر كذلك مع الباطنية في دمشق بقيادة أبي الوفاء على أن يحتاطوا في ذلك اليوم وأن يقفوا على أبواب جامع دمشق، ولا يمكنوا أحداً من الخروج من الجامع حتى يجيء الفرنج ويملكوا المدينة، علم تاج الملوك بوري صاحب دمشق بهذه المؤامرة فعزم على التخلص من الباطنية وشرهم، فاستدعى إليه الوزير المزدقاني، فحضر وخلا معه فقتله تاج الملوك، وعلق رأسه على باب القلعة، ونادى في البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف نفر[1].

أما إسماعيل الداعي زعيم الباطنية المقيم بانياس، فإنه لما سمع هو ومن معه ما حدث للباطنية في دمشق خافوا على أنفسهم، فراسل إسماعيل الفرنج وبذل لهم تسليم بانياس على أن ينتقل إلى بلادهم ليأمن على نفسه هو وجماعته فأجابوه إلى ذلك فسلم قلعة بانياس إليهم وانتقل هو وأصحابه إلى بلادهم في غاية من الذلة والهوان، وكفى الله المؤمنين قتالهم وخلص الشام من شرهم وهلك إسماعيل زعيمهم في العام التالي سنة ٥٢٤هـ[2].

علم باطنية آلموت بما حدث لأقرانهم في الشام، فأسفوا عليهم وحزنوا حزناً

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٥٦،٦٥٧، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/٢،٣، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٠٠، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/٦٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٥٧، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٥،٣٥٦، ابن أبي الدم: التاريخ المظفري ورقة ٤٥٢ب، النويري: نهاية الأرب ٢٧/٨٠.

شديداً، وعزموا على الانتقام لهم فندبوا اثنين من الخرسانية الفداوية لقتل تاج الملوك فحضرا إلى دمشق وتدرجا بالحيلة والمكر إلى أن صارا من المرتبين لحفظ تاج الملوك ولما تمكنا منه وثبا عليه في يوم الخميس الخامس من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٢٥هـ فضربه أحدهما بالسيف طالباً لرأسه، فجرحه في رقبته ولم يتمكن من قتله وضربه الآخر بسكين فلم يتمكن من قتله، فرمى تاج الملوك بنفسه في الحال عن فرسه سليماً وتكاثر الرجال عليهما، وقطعوهما بالسيوف وعولجت جراح تاج الملوك فعوفي وسلمه الله من غدر هؤلاء الملاعين[١].

في هذا الوقت ظهرت شخصية بارزة لها أهميتها بين إسماعيلية الشام هي شخصية سنان راشد الدين، واسمه أبوالحسن بن سليمان بن محمد راشد الدين، أصله من قرية عقر السدن من قرى الشرطة بين واسط والبصرة، أهلها كلهم إسحاقية[٢] نصيرية (من غلاة الشيعة) أهل ضلالة ومنها كان الضال المضل سنان داعية الإسماعيلية ودجالهم ومضلهم الذي فعل الأفاعيل التي لم يقدر عليها أحد قبله ولا بعده وكان يعرف السيما[٣] (أي الحيل والشعوذات).

لم يكن سنان ولا أسرته على مذهب هؤلاء وعقيدتهم بل كانوا على مذهب الشيعة الاثني عشرية ولما شب سنان تحول إلى مذهب الإسماعيلية على يد داعي

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٦٥،٣٦٦، ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٧٠، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/٥، النويري: نهاية الأرب ٢٧/٨١.

(٢) الإسحاقية نسبة إلى أبي يعقوب إسحق النخعي وهو من أصحاب الحسن العسكري كان يقول بالإباحة وإسقاط التكاليف، ويثبت لعلي «رضي الله عنه» شركة مع رسول الله ﷺ وآله في النبوة على وجه غير هذا الظاهر الذي يعرفه الناس. انظر ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة ٨/١٢٢.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/١٣٧.

دعاة العراق الذي لمس فيه النجابة والذكاء فحبب إليه الرحيل إلى آلموت ليتلقي هناك علوم الدعوة الإسماعيلية، فذهب إلى آلموت وهناك توطدت صلة سنان بولي العهد في آلموت الحسن الثاني بن محمد، فلما تولى الحسن الثاني الإمامة أمر سنان بالرحيل إلى الشام ليشرف بنفسه على شئون الطائفة، وليبث الآراء الجديدة التي نادى بها الحسن[1].

وفد سنان إلى الشام سنة ٥٥٨هـ في زي الفقراء الصوفية حتى لا يعرفه أحد، فوصل إلى الرقة[2] ثم إلى حلب حيث قصر اتصاله على الأوساط الإسماعيلية هناك ثم انتقل إلى مصياف[3] ثم إلى الكهف وبقي بها سبع سنوات، وظل سنان خلال هذه المدة متخفياً ولم يعلن أنه مبعوث من قبل آلموت لرئاسة الدعوة في الشام إلا قبيل وفاة أبي محمد المينقي رئيس الدعوة الإسماعيلية في الشام[4].

توفي أبومحمد المينقي رئيس الإسماعيلية في سنة ٥٦٥هـ وتولى إمامة الإسماعيلية في الشام بعده سنان راشد الدين وتعتبر شخصية سنان شخصية مميزة في تاريخ الدعوة الإسماعيلية الباطنية في الشام إذ نادى بأفكار ومعتقدات جديدة، فأدخل في المذهب الإسماعيلي في الشام مبدأ تناسخ الأرواح، الذي يؤمن به سنان وهذا لم تقل به الإسماعيلية من قبل لا في مصر ولا في آلموت، ويبدو أن سناناً تأثر بمعتقدات البيئة

---

(١) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ٩٩، ١٠٠.

(٢) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة ايام وهي من بلاد الجزيرة. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/٥٩.

(٣) مصياف: حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس وهي في معجم البلدان بلفظ مصياب. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/١٤٤.

(٤) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ١٠٠، عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٢/٣٧٠، ٣٧١.

التي كان يعيش فيها وهو صغير والتي كان أهلها من النصيرية الذين يقولون بتناسخ الأرواح فرسخت هذه المعتقدات في مخيلته ونادى بها عند توليه إمامة الباطنية في الشام. إلى جانب هذا إدعى سنان راشد الدين معرفته بالغيب ومقدرته على التنبؤ والرؤية، من ذلك ما رواه أبوفراس في مناقب المولى سنان أن صبياً حمل حجراً ثقيلاً ولما دفع الحجر عن الأرض عض على شفته فقطعها من ثقل الحجر فلم يدر أحد بحاله ولكن المولى راشد الدين أمر العمال في ذلك اليوم بأن يرتفعوا عن عملهم قبل الظهر فاستغربوا ذلك فقال لهم أن صبياً منكم قد عض على شفته فقطعها لثقل الحجر التي حملها وهو في حاجة إلى من يعتني به وإلا مات[1].

لم يكتف سنان بهذا بل ذهب إلى أبعد من ذلك فلقد ذكرنا أن سناناً كان على معرفة بعلم السيما (أي الحيل والشعوذات) كما قال ياقوت الحموي ويبدو أن هذه الحيل والشعوذات التي كان يفعلها سنان أفلحت في التلبيس على العامة، فاعتقد البعض أنه نبي وصاحب معجزات، واعتقد البعض الآخر أنه إله تجسد بينهم فاستغل سنان هذه السذاجة، وراح يؤكد في النفوس على هذه المعاني فادعى الألوهية من دون الله، ولقد كتب الرحالة ابن جبير الذي زار منطقة الشام بما فيها مناطق الإسماعيلية الباطنية في سنة ٥٨٠هـ وهو يصف جبل لبنان ما يلي:

«وهو سامي الارتفاع، ممتد الطول متصل من البحر إلى البحر وفي صفحته حصون للملاحدة الإسماعيلية، فرقة مرقت من الإسلام وادعت الألوهية في أحد الأنام، قيض لهم شيطان من الإنس يعرف بسنان خدعهم بأباطيل وخيالات موه

(١) مصطفى غالب: سنان راشد الدين ص ١٩٨، ١٩٩، عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٢/٣٧٥، ٣٧٦، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ١٠٤، ١٠٥.

عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها، فاتخذوه إلهاً يعبدونه ويبذلون الأنفس دونه، وحصلوا في طاعته وامتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردى، ويستعجل في مرضاته الردى»[1].

انتقل سنان من الكهف إلى قلعة مصياف حيث اتخذوها مركوناً لقيادته ومنها وجه اهتمامه لإعداد جيل جديد من المحاربين المدربين على الأعمال الفدائية والأمور العسكرية، ورمم القلاع وأمر ببناء قلعة المرقب[2] واستولى على قلعة العليقة[3] بحيلة بارعة، في هذا الوقت كان نور الدين محمود منهمكاً في توحيد الجبهة الإسلامية وفي أوج انتصاراته على الصليبيين، فلما رأى أن الإسماعيلية يملكون قلاعاً داخل دولته ويتوسعون في مناطقهم، شعر بأنهم خطر عليه وخنجر في ظهره، فأخذ يرسل إليهم الحملات العسكرية لتحجيم خطرهم وإخضاعهم لكن كل هذه الحملات باءت بالفشل، فعزم نور الدين على السير بنفسه على رأس جيش لمحاربة سنان وجماعته، لكن المنية عاجلته في سنة ٥٦٩هـ، فحالت بينه وبين ذلك وتولى زعامة الدولة النورية بعده ابنه الصالح إسماعيل وعمره إحدى عشرة سنة[4].

وانتقل الملك الصالح من دمشق إلى حلب، واستبد سعد الدين كمشتكين في

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٢٩، الحميري: الروض المعطار ص ٥٠٨، عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٣٧٧/٢.

(٢) المرقب: بلدة وقلعة حصينة تشرف على سواحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس. البغدادي: مراصد الاطلاع ١٢٥٩/٣.

(٣) العليقة: قلعة على جبل مرتفع عال يرى على بعد وهي على نحو ساعة من المينقة.
انظر القلقشندي: صبح الأعشى ١٤٧/٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٤٠٥/١١، عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٣٧٨/٢، ٣٧٩، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ١٠٠، ١٠١.

تدبير دولة الملك الصالح، فخافه شمس الدين ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، فكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه عليهم، فسار صلاح الدين في مستهل ربيع الأول سنة ٥٧٠هـ إلى دمشق فملكها[١]، ثم ملك حمص وحماه في نفس السنة[٢]، ثم سار إلى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح إسماعيل، فأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالاً عظيمة ليقتلوا صلاح الدين، فأرسل سنان جماعة من الفداوية، فوثبوا على صلاح الدين فجرحوه جراحات مثخنة ثم قتلوا دونه[٣].

لم يكتف سنان بهذه المحاولة لاغتيال القائد صلاح الدين، بل ذهب يكيد ويدبر المؤامرات ضد هذا البطل، فدبر محاولة ثانية لاغتياله وذلك في ذي القعدة من سنة ٥٧١هـ عندما كان محاصراً لقلعة أعزاز[٤]، إذ وثب عليه باطني فضربه بسكين في رأسه فجرحه، فأمسك صلاح الدين يد الباطني بيده، إلا أن الباطني بقي يضرب بالسكين لكن ضربه كان ضعيفاً لا يؤثر فأمسك صلاح الدين السكين بكفه فجرحه الباطني، ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني، وجاء باطني آخر فقتل، وجاء ثالث فقتل[٥].

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط ٣/ورقة ١٣٠ب، ابن أبي الدم: التاريخ المظفري، ورقة ٥٤أ.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط ٣/ورقة ١٢٩ب، ابن أبي الدم: التاريخ المظفري، ورقة ٥٤أ.

(٣) المصادر السابقة نفس الأجزاء والصفحة، ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ١٩٨ب، ابن الأثير: الكامل ١١/٤١٥، ٤١٩، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/٥٦، ٥٧، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٥/٣٠٠.

(٤) أعزاز: قلعة من أعمال حلب من العواصم لها رستاق وسوق. وهي أيضاً اسم لموضع باليمن. انظر ياقوت الحموي: المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ص ٣٠٧.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٣/ورقة ١٣٦أ، ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ١٩٩أ، ابن الأثير: الكامل ١١/٤٣٠، ابوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/٥٨، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٩٣، الذهبي دول الإسلام ٢/٨٥.

وبعد هذه المؤامرات عزم صلاح الدين على تطهير الشام من الإسماعيلية الباطنية والقضاء عليهم، فقصد بلدهم في المحرم من سنة ٥٧٢هـ فنهبه وخربه وأحرقه ثم حاصر قلعة مصياف[١] ونصب عليها المجانيق، وضيق على من بها فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي صاحب حماه وهو خال صلاح الدين يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم ويقول له:

((إن لم تفعل قتلناك))، فحضر شهاب الدين عند صلاح الدين، وشفع فيهم وسأله الصفح عنهم، فأجابه إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم[٢].

يبدو أن الإسماعيلية من ذلك التاريخ دخلوا في طاعة صلاح الدين وأصبح يستخدمهم في اغتيال ملوك وأمراء الصليبيين. ففي سنة ٥٨٨هـ أوعز صلاح الدين إلى مقدم الإسماعيلية بالشام وهو سنان بقتل المركيس الفرنجي صاحب صور، فأرسل رجلين من الباطنية في زي الرهبان إلى صور ومكثا هناك ستة أشهر يظهران العبادة حتى أنس بهما المركيس ووثق بهما، فلما تمكنا منه وثب عليه الباطنيان فجرحاه جراحاً بليغة، وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفي فيها، فحمل المركيس إلى هذه الكنيسة لمعالجة جراحه فوثب عليه ذلك الباطني فقتله وقتل الباطنيان بعده[٣].

ولما وقع صلاح الدين الهدنة مع ملك انجلترا ريتشرد قلب الأسد في ٢٢ شعبان

---

(١) في ابن خلدون قلعة باميان، ولكن ما أجمعت عليه المصادر هو لفظ مصياف والبعض يقول مصياب وكلاهما صحيح.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٣/ورقة، ١٣٥ب، ابن أبي الدم: التاريخ المظفري ورقة ٥٤٧أ، ابن الأثير: الكامل ٤٣٦/١١، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٥٩/٣، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٣٤٠/٥، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٦٢/١، ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ١٩٩أ.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٧٨/١٢، ٧٩، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٣٨١/٥، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٨٢/٣.

من سنة ٥٨٨هـ واقتسموا فيما بينهم بلاد الشام، اشترط السلطان صلاح الدين دخول بلاد الإسماعيلية في عقد هدنته[١].

توفي سنان راشد الدين مقدم الإسماعيلية في الشام في سنة ٥٨٨هـ بعد أن قضى ثلاثين عاماً في خدمة المذهب الإسماعيلي في الشام[٢]، ودفن في قلعة الكهف، وفي عهده كانت إسماعيلية الشام قوية الشوكة، وخلفه في رئاسة الطائفة جماعة من الدعاة. وعندما اجتاحت جموع الجيش المغولي بلاد فارس ودمرت ما في وجهها من القلاع بما فيها قلاع الإسماعيلية الباطنية واستولت على قلعة آلموت في سنة ٦٥٤هـ شعر الداعي أبوالفتوح محمد زعيم الباطنية في الشام بالخطر المغولي الزاحف من الشرق فأخذ يعد العدة للدفاع عن قلعة مصياف مقر قيادة الباطنية في الشام، فأمر أن يبنى سوراً يحيط بها لحمايتها وذلك في سنة ٦٥٧هـ ولكن هذا السور لم يصمد أمام الزحف المغولي فتساقطت قلاع الإسماعيلية بما فيها مصياف وبذلك تفرق شمل الإسماعيلية في الشام وتبعثرت قواهم[٣].

تصدت جيوش مصر بقيادة سيف الدين قطز والظاهر بيبرس للزحف المغولي واستطاعت أن تنزل بالمغول هزيمة ساحقة في موقعة عين جالوت في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ[٤]. فانتهز الداعي أبوالمعالي زعيم الباطنية في هذا الوقت هذه الفرصة وجمع رجاله واسترد بهم قلاع الإسماعيلية التي أخذها المغول، وبذلك قوي

---

(١) ابوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/٨٣.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٣/ورقة ١٩٧ب، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/٨٥، ابن العماد: شذرات الذهب ٤/٢٩٤.

(٣) مصطفى غالب: سنان راشد الدين ص ١٤٨.

(٤) الذهبي: دول الإسلام ٢/١٦٣، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٢٢٠، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/٢٠٥، ابن العماد: شذرات الذهب ٥/٢٩١.

الإسماعيلية بعض الشيء، لكنهم لم يستطيعوا أن يقفوا أمام جيوش الظاهر بيبرس الذي هاجمهم سنة ٦٦٤هـ وكانوا برئاسة الداعي نجم الدين واضطروا إلى أن يطلبوا من بيبرس الصلح والدخول في طاعته، فرضي بيبرس بشرط أن يدفعوا له الجزية، فقبلوا بدفع الجزية وأصبح له الحق في أن يولي عليهم من يشاء من الدعاة ويعزل من يشاء[١].

ويبدو أن الإسماعيلية منذ ذلك التاريخ انضووا تحت لواء دولة المماليك وأصبح للسلطان المملوكي الكلمة عليهم، فأخذ يستخدمهم في بعض الاغتيالات التي دبرها لأعدائه، ويذكر الرحالة ابن بطوطة الذي زار منطقة الشام بما فيها مناطق الإسماعيلية في سنة ٧٢٧هـ أن الإسماعيلية كانوا طوع إرادة الملك الناصر يوجههم إلى ما يريد فقال:

((ومررت بحصن القدموس، ثم بحصن المينقة، ثم بحصن العليقة واسمه على لفظ واحدة العليق، ثم بحصن مصياف، ثم بحصن الكهف وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الإسماعيلية، ويقال لهم الفداوية، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم، وهم سهام الملك ناصر، بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه))[٢].

وبهذا تكون الإسماعيلية الباطنية في الشام قد انتهت سياسياً وعسكرياً، وبقيت تعيش كفرقة دينية شأنها شأن الفرق الدينية الأخرى.

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ٥/٣٢٥، اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٢/٤٣١،٤٣٢، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ١٠٧.

(٢) رحلة ابن بطوطة ١/٦١.

ثانياً: المستعلية

هم الذين أيدوا إمامة المستعلي بالله أحمد بن الخليفة المستنصر بالله بعد موت أبيه المستنصر عام ٤٨٧هـ، وهؤلاء هم إسماعيلية مصر واليمن وبعض بلاد الشام. والمستعلية ينكرون إمامة نزار بن المستنصر، ويقولون أنه نازع الحق أهله، من حيث أن الحق في الإمامة والخلافة كان لإمامهم المستعلي بالله فادعاه لنفسه. ويقولون أن شيعته على الباطل. ويرون من الضلال اتباع الحسن بن الصباح داعية نزار والناقل عن المستنصر النص على إمامته[١].

ونلقي الآن نظرة على تاريخ الأئمة المستعلية ودولتهم في مصر بشيء من الاختصار:

تولى المستعلي الإمامة وهو صغير السن، فترك شئون الحكم وسياسة الدولة إلى خاله الأفضل، وعكف على اللهو والمجون. وفي أيامه اختلت دولتهم، وضعف أمرهم، وانقطعت من أكثر مدن الشام دعوتهم، واستولى عليها الأتراك والفرنج[٢].

وفي عهد المستعلي بدأت الحروب الصليبية فاستولى الصليبيون على كثير من بلاد المسلمين، فأخذوا أنطاكية في عام ٤٩١هـ، ثم استولوا على بيت المقدس في عام ٤٩٢هـ، وأخذوا يستولون على المدن والقرى الواحدة بعد الأخرى والمستعلي ووزيره الأفضل لم يحركا ساكناً، فيعجب ابن تغري بردي من هذا الموقف المريب فيقول: «ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٢٤٣/١٣.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩٦/١٥، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٧٩/١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤٥/٥.

عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال»[١].

هذا الموقف السلبي شجع الصليبيين على الاستيلاء على مزيد من المدن والأراضي، فاستولوا على الساحل الشامي بأجمعه، فملكوا حيفا عام ٤٩٣هـ ثم قيسارية[٢] في عام ٤٩٤هـ[٣].

وفي دولة المستعلي كثرت الباطنية الملاحدة، فنشروا الرعب وقطعوا السبل، وفتكوا بعدد كثير من الكبار والعلماء وعم الرفض والتشيع حتى أن المستعلي رغم تقاعسه عن الجهاد وتهاونه في أخذ البلاد كان متغاليا في الرفض والتشيع[٤].

توفي المستعلي في السابع عشر من شهر صفر عام ٤٩٥هـ وتولى بعده ابنه الآمر بأحكام الله أبوعلي منصور[٥].

تولى الآمر بأحكام الله الخلافة وهو صغير السن في السنة الخامسة من عمره، وقام بتدبير دولته الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، ولما كبر الآمر قتل الأفضل ابن أمير الجيوش وأقام في الوزارة مكانه المأمون أباعبدالله البطائحي، فأساء السيرة وظلم فقبض عليه الآمر وقتله، وقتل معه خمسة من إخوته وذلك في عام ٥٢٢هـ[٦].

كان الآمر جيد العقل والمعرفة، وكان حسن الحظ لكنه خبيث المعتقد رافضياً

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٤٧.

(٢) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/٤٢١.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٥٢، ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٢٥، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/١٧٩.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٥٣، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/١٩٧.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/١٩٧، ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٢٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/١٨٠.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/١٩٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/٢٩٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٧٠.

كآبائه، جباراً فاسقاً متجاهراً بالمنكرات واللهو، واشتغل بسماع الزمور وشرب الخمور حتى أصبح الناس في عهده مثل الغنم بلا راع فاضطربت أحوال مصر[١].

وفي عهد الآمر أخذ الصليبيون مدينة عكا في سنة ٤٩٧هـ، وأخذوا طرابلس الشام بالسيف فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال واستصفيت أموال أهلها وجاء الأسطول المصري بالنجدة، ولكن بعد فوات الأوان فوصل بعد سقوطها، ثم ملكوا عرقه[٢] وبانياس وذلك في عام ٥٠٢هـ ثم تسلموا تبنين[٣] وجبيل[٤] بالأمان في عام ٥١١هـ, وتسلموا صور في عام ٥١٨هـ، وأخذوا بيروت بالسيف في عام ٥٠٣هـ، ثم أخذوا صيدا في عام ٥٠٤هـ[٥].

بقي الآمر في الحكم تسعاً وعشرين سنة وتسعة أشهر، إلى أن قتل في سنة ٥٢٤هـ إذ وثب عليه جماعة من الباطنية بالروضة وقد كان راكباً من القاهرة إلى مصر، وعبر الجسر الذي بين مصر والروضة، فلما عبره وثب عليه تسعة من الباطنية ((وقيل عشرة من أصحاب الحسن بن الصباح)) فضربوه بالسكاكين إلى أن مات[٦].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٢٢١/١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤٩٦/٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩٩/١٥.

(٢) عرقه: بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ، وهي من أعمال دمشق. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ١٠٩/٤.

(٣) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ١٤/٢.

(٤) جبيل: بلد مشهور في شرقي بيروت على ثمانية فراسخ منها. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ١٠٩/٢.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٧٠/٥، ابن الأثير: الكامل ٤٧٥/١٠، ٤٧٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٠٠/٥.

(٦) ابن دقماق: الجوهر الثمين ص ٢١٢، ابن الأثير: الكامل ٦٦٤/١٠، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٩١/٤.

كان مقتل الآمر بداية تطور جديد في تاريخ الدعوة الإسماعيلية الباطنية، ذلك أن الآمر لم يخلف ولداً يتولى الأمر بعده، وترك امرأة حاملاً، فاضطرب أهل مصر وقالوا: هذا البيت لا يموت إمام منهم حتى يخلف ولداً ذكراً وينص عليه بالإمامة، وكان الآمر قد نص على الحمل قبل موته، ولهذا السبب بويع ابن عمه الحافظ عبدالمجيد بولاية العهد ولم يبايع بالإمامة مستقلاً انتظاراً لمعرفة ما يكون من الحمل. فوضعت المرأة بنتاً فعندئذ دعا عبدالمجيد لنفسه بالإمامة الكاملة، ولقب نفسه الحافظ لدين الله وبويع على ذلك[1].

ولي الوزارة للحافظ أبوعلي أحمد بن الأفضل ولقب أمير الجيوش، ولم يكن للحافظ معه شيء سوى الاسم فقام بشئون الحكم أحسن قيام، وأحسن إلى الناس وعاملهم بالخير وأعاد لهم أموالهم المصادرة، وأظهر مذهب الإمامية وتمسك بالأئمة الاثني عشر، وأعرض عن الحافظ وآل بيته واستمر على هذه الحال إلى أن دبّر الحافظ عملية قتله، فخرج الوزير أبوعلي إلى الميدان يلعب بالكرة مع أصحابه، فكمن له جماعة منهم مملوك فرنجي كان للحافظ، فخرجوا عليه، فحمل الفرنجي عليه فطعنه فقتله[2].

لما قتل الوزير أبو علي، عظم أمر الحافظ فنعت نفسه بألقاب لم يسبقه إليها أحد، وخطب له بها على المنابر فكان الخطيب يقول: «أصلح من شيدت به الدين بعد دثوره، وأعززت به الإسلام بأن جعلته سبباً لظهوره مولانا وسيدنا إمام العصر والزمان، أبا الميمون عبدالمجيد الحافظ لدين الله ﷺ وعلى آبائه الطاهرين، حجج

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٢٣٦،٢٣٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٢٣٧، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/٢٠٠،٢٠١.

(٢) ابن الأثير: الكامل: ١٠/٦٧٢،٦٧٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٢٣٥،٢٣٦.

ا لله على العالمين)). وبعد مقتل الوزير أبوعلي على وزر للحافظ مجموعة من الوزراء لكنهم أساءوا السيرة، ولم يحسنوا التدبير فقتلهم الحافظ وتولى الأمر بعد ذلك هو بنفسه إلى أن مات[1].

توفي الحافظ في ليلة الأحد لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ، وكانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر، وعمره نحو سبع وسبعين سنة، وولي الأمر بعده بمصر ابنه الظافر بأمر الله[2].

تولى الظافر بأمر الله الخلافة في مصر وعمره يناهز سبع عشرة سنة، وكان أصغر أولاد أبيه سناً، فكان كثير اللهو واللعب والتفرد بالجواري واستماع الأغاني. وانقطعت دعوته ودعوة أبيه من سائر بلاد الشام والمغرب والحرمين ولم يبق لهم إلا إقليم مصر[3].

وزر للظافر عدد من الوزراء أولهم ابن مصال ثم ابن السلار ثم عباس، وكان لعباس هذا ولد جميل اسمه نصر، فمال إليه الظافر وأحبه حتى اشتغل عن كل أحد بابن عباس، فصار الناس يتهمونه به. فقال عباس لابنه نصر: إنك أتلفت عرضك بصحبة الظافر وتحدث الناس في أمركما فاقتله حتى تسلم من هذه التهمة. فدعا نصر الظافر إلى داره ليلاً فجاء إلى الدار فقتله نصر ودفنه في بئر عند الدار. فلما طلع الصباح خرج الوزير عباس إلى دار الخلافة ودخل القصر فقال لبعض الخدام: ((أين أمير المؤمنين؟)) فقالوا: ((ابنك نصر يعرف أين هو)). ثم أن الوزير عباس دخل

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٢٣٨،٢٣٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١١/١٤١،١٤٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/٢٠٢، ابن دقماق: الجوهر الثمين ص ٢١٤.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/٢٠٢،٢٠٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/٢٣٧.

دار الخليفة، وأخرج الأمير عيسى بن الظافر وأحضر القضاة وأرباب الدولة وقال لهم: «إن أمير المؤمنين الظافر نزل البارحة في مركب، فانقلبت به وغرق، فولوا ولده عيسى عوضه». فأحضروا له خلعة الخلافة وولوه[1].

ولما تم لعباس ما أراده من قتل الخليفة وتولية ولده الخلافة، كثرت الأقاويل حتى عرف الناس الحقيقة والخبر الصحيح فأخذوا في إعمال الحيلة في قتل عباس وابنه نصر، فكاتبوا الصالح بن رزيك الأرمني وكان والياً على الصعيد وسألوه الانتصار لهم ولمولاهم، فأجابهم الصالح إلى ذلك وزحف على القاهرة بقواته حتى أصبح على مشارفها، فاستقبله جميع من بها من الأمراء والأجناد، أما الوزير عباس فخرج في ساعته من القاهرة، هو وابنه نصر وبعض أنصاره ومعه شيء من ماله باتجاه بلاد الشام. فكاتبت أخت الظافر الفرنج الذين بعسقلان واشترطت لهم مالاً جزيلاً إذا استطاعوا القبض على عباس، وابنه، فخرج الفرنج على عباس فصادفوه ودارت بينهم معركة بسيطة قتل فيها عباس فأخذ ماله وأسر ابنه وهرب باقي أصحابه إلى الشام. وأرسلت الفرنج نصر بن عباس إلى مصر في قفص حديد، فلما وصل تسلم رسول الفرنج المال. أما نصر فخلعت أخت الظافر يده وضرب ضرباً مهلكاً، وقرض جسمه بالمقاريض، ثم صلب على باب زويلة حياً حتى مات، ثم أنزل وأحرقت عظامه[2].

كان مقتل الظافر في المحرم من سنة ٥٤٩هـ، وله اثنان وعشرون سنة كانت خلافته اربع سنين وسبعة أيام وتولى الخلافة بعده ولده الفائز عيسى[3].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٢٢٨/١، ابن العماد: شذرات الذهب ١٥٢/٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٩٦/٥.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤٩٢/٣، ٤٩٣، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠٦/١٥، ٢٠٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣١٠/٥، ابن العماد: شذرات الذهب ١٥٣/٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٩٧/٥.

بويع الفائز عيسى بالخلافة صبيحة وفاة والده، وله من العمر خمس سنوات وتكفل به الصالح طلائع بن رزيك الذي تولى الوزارة له، فساس الأمور ودبر شئون الدولة وظل الفائز في الخلافة لمدة ست سنين توفي بعدها، وذلك في عام ٥٥٥هـ[١].

تولى الخلافة بعد الفائز ابن عمه العاضد لدين الله أبو محمد عبدالله وعمره أحدى عشرة سنة وولى الوزارة له وتدبير شئون دولته الملك الصالح طلائع بن رزيك، وتزوج العاضد ابنة طلائع بن رزيك، وكان العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة، رضوان الله عليهم وإذا رأى سنياً استحل دمه[٢].

استمر طلائع بن رزيك في وزارة العاضد، لكنه أساء السيرة في الرعية وقتل أمراء الدولة، فضجر منه العاضد فعزم على التخلص منه فقتله في عام ٥٥٦هـ وولى الوزراة بعده ابنه رزيك بن طلائع[٣]. بعد أن تولى رزيك الوزارة أشار عليه أتباعه بعزل شاور عن ولاية الصعيد وحسنوا له ذلك، فبعث إليه كتاب العزل، فجمع شاور ما عنده من رجال وسار بهم إلى القاهرة لمحاربة رزيك، فهرب رزيك لما سمع بذلك فقبض عليه شاور وقتله في سنة ٥٥٨هـ، وصار شاور وزيراً بعده وتلقب بأمير الجيوش.

استقر شاور في الوزارة بضعة أشهر فبرز له منازع اسمه ضرغام جمع ضرغام جموعاً كثيرة ونازع شاور في الوزراة حتى ظهر أمره، فانهزم شاور من أمامه وهرب

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين ص ٢١٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠٧/١٥ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣١٧/٥، ابن الماد: شذرات الذهب ١٧٥/٤.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١١٠/٣، ابن دقماق: الجوهر الثمين ص٢١٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٢٧٤/١١.

إلى الشام، واستولى ضرغام على البلاد وأصبح وزيراً[1].

لجأ شاور في الشام إلى الملك العادل نور الدين محمود، واستجار به فبعث معه نور الدين جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه إلى مصر، فنزل على القاهرة وخرج ضرغام لمحاربتهم لكنه قتل فأعيد شاور إلى الوزارة ثاني مرة ذلك في عام ٥٥٩هـ[2].

بعد أن تولى شاور الوزارة أخذ في ظلم الرعية، ومعاملة الخليفة العاضد معاملة سيئة، واستدعى الفرنج أكثر من مرة لأخذ مصر، فمل العاضد منه وأرسل إلى أسد الدين يطلب منه قتل شاور، فأعمل أسد الدين هو وصلاح الدن الحيلة على شاور حتى قتلوه، وأرسل رأسه إلى العاضد فولى العاضد الوزارة إلى أسد الدين شيركوه وخلع عليه[3].

لم يمكث أسد الدين في الوزارة طويلاًحتى وافته المنية بعد شهرين من توليه، وكان قد أوصى إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بالوزارة فتولى الوزارة بعده ولقب بالملك الناصر وذلك في عام ٥٦٤هـ.

وعلى يدي الملك الناصر صلاح الدين قوضت دولة الإسماعيلية المستعلية في مصر، ووضع حداً لوجودهم السياسي فيها وذلك في عام ٥٦٧هـ وأعاد الخطبة في مصر للخليفة العباسي المستضيء (٥٦٦-٥٧٥هـ) وبذلك انقرض هذا الفرع من الإسماعيلية وهم المستعلية، ولم يعد لهم وجود بعد ذلك. وعدد الأئمة المستعلية الذين حكموا مصر هم ستة مرتبين حسب الترتيب الآتي:

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١١/٢٩٠،٢٩١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١١/٢٩٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١١/٣٤٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٣٥٢.

١- المستعلي بالله أحمد أبوالقاسم (٤٨٧-٤٩٥هـ)

٢- الآمر بأحكام الله المنصور أبوعلي (٤٩٥-٥٢٤هـ)

٣- الحافظ لدين الله عبدالمجيد أبوالميمون (٥٢٤-٥٤٤هـ)

٤- الظافر بأمرالله إسماعيل أبوالمنصور (٥٤٤-٥٤٩هـ)

٥- الفائز عيسى أبوالقاسم (٥٤٩-٥٥٥هـ)

٦- العاضد لدين الله عبدالله أبومحمد (٥٥٥-٥٦٧هـ)

أما بالنسبة للإسماعيلية المستعلية باليمن فكان لها شأن آخر ورأي في الإمامة مغاير لرأي المستعلية في مصر. بدأ أمر المستعلية في اليمن في عهد الدولة الصليحية فلقد استطاع علي بن محمد الصليحي أن يقوم بثورة في عام ٤٣٩هـ في رأس مسار[١] في جبال حراز[٢] أخضع من خلالها قلاع وحصون اليمن لسلطانه[٣]. وفي عام ٤٥٣هـ كتب علي بن محمد إلى المستنصر العبيدي صاحب مصر يستأذنه في إظهار الدعوة له في اليمن فأذن له بذلك وخطب الصليحي في اليمن باسم الإمام

---

(١) مسار: حصن عال في حراز باليمن عظيم الشأن فيه قرى ومزار وموضعه فوق مدينة مناخة.. وهو في ياقوت بلفظ مشار وهو خطأ، وقال الشاعر علي بن محمد الصليحي ((الجوبي)) فيه:

كأنا وأيام الحصيب وسردد
ولم نتقدم في سهام ويأزل
دار ادم عفرن الأجل المظفرا
وبيش ولم نفتح مساراً ومسورا

انظر تعليق المحقق في هامش (٤) ص ١٠٨ من كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني، اليماني: كشف أسرار الباطنية ص ٤٢.

(٢) حراز: مخلاف باليمن قرب زبيد. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/٢٣٤.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ١/٢٤٧ عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ١٠١.

الإسماعيلي المستنصر واستمر علي بن محمد في فتوحاته حتى دخل مكة المكرمة وضم إليه إقليم الحجاز بكامله، واستعد للمسير إلى العراق وانتزاعه من أيدي العباسيين ولم تمض سنة ٤٥٥هـ إلا وقد استولى علي بن محمد الصليحي على اليمن ووعره، وبره وبحره[١].

لم يلبث أن قتل علي بن محمد الصليحي في عام ٤٥٩هـ وهو في طريقه إلى مكة المكرمة للحج لمدينة المهجم[٢]. وتولى الأمر بعده ابنه المكرم أحمد بن علي فقام بالأمر بعد والده أتم قيام، واستطاع أن يقضي على مناوئي الدولة الصليحية وتوفي المكرم أحمد بن علي في عام ٤٨٤هـ في ذي جبلة[٣]، وجعل وصيته إلى الأمير الكبير الداعي سبأ بن أحمد بن المظفر بن علي الصليحي، وقد قام بعدة حملات عسكرية على بني نجاح بزبيد[٤]، منها معركة الكضائم سنة ٤٩٢هـ والتي قتل فيها القاضي عمران بن المفضل، وتوفي سبأ بن أحمد في سنة ٤٩٢هـ في حصنه أشيح[٥] ودفن به[٦].

---

(١) يحيى بن الحسن: غاية الأماني ١/٢٥٣، ٢٥٤، عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ١١٨، ١١٩، عبدالواسع اليماني: تاريخ اليمن ص ١٧٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٥٥، عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ١٢٦، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٩٦.
والمهجم: بلد وولاية من أعمال زبيد باليمن بينها وبين زبيد ثلاثة أيام. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/٢٢٩.

(٣) ذي جبلة: مدينة باليمن تحت جبل صبر وتمسى ذات النهرين. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/١٠٦.

(٤) بني نجاح: نسبة إلى زعيم حبشي اسمه نجاح، وهم أصلاً من الحبشة وكان نجاح هذا يحكم الأقاليم الشمالية في اليمن، فقدم إلى زبيد بجموع عظيمة فاستولى عليها وهزم مناوئيه فيها وقتلهم وبدأ في تأسيس دولة هناك في عام ٤١٢هـ وهي الدولة التي حملت اسمه (بني نجاح) ولقب بالمؤيد ناصر الدين.
انظر المجلة التاريخية المصرية ص ١٠٩ مجلد ٨ لعام ١٩٥٩م.

(٥) أشيح: اسم حصن منيع عال جداً في جبال اليمن. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/٢٠٢.

(٦) يحيى بن الحسين: غاية الأماني ١/٢٥٨-٢٧٩، أحمد شرف الدين: اليمن عبر التاريخ ص ٢٠٥، ٢٠٦.

وتولت الحكم بعده السيدة الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية وحكمت ما يقارب نصف قرن ضربت أروع الأمثال في الحزم والثبات والحكمة والعدل، وفي عهد حكم السيدة الحرة توفي إمام الإسماعيلية المستعلية في مصر الآمر بأحكام الله ولم يكن له ولد، فتولى الإمامة بعده ابن عمه الحافظ لدين الله فرفض الصليحيون الاعتراف بالحافظ لأن الإمامة في العقيدة الإسماعيلية تنتقل من الآباء إلى الأبناء وهذا منافٍ للعقيدة الإسماعيلية، ومن ثم ليس للحافظ حق في الإمامة. وزعم الصليحيون أن إحدى زوجات الآمر كانت حاملاً، ووضعت طفلاً ذكراً اسمه الطيب بن الآمر، فالإمامة إذا لهذا الطفل الذي خاف عليه أحد الدعاة فأخفاه عن الحافظ وأرسله إلى الملكة الحرة أروى الصليحية باليمن وهذه الملكة أخفته وجعلت نفسها كفيلة عليه، ونائبة عنه في تولي شئون الدعوة الإسماعيلية واتخذت لنفسها لقباً (كفيلة الإمام المستور الطيب بن الآمر) ومن هذا التاريخ انفصلت الإسماعيلية المستعلية في اليمن عن إسماعيلية مصر، وأوجدوا لهم دعوة جديدة: هي الدعوة الطيبية نسبة إلى الطيب بن الآمر[1].

ويقول الدكتور كامل حسين: وفي اعتقادي أن قصة الطيب هذه أقرب إلى الأساطير الخيالية منها إلى الواقع التاريخي، فإن أحداً من المؤرخين لم يذكر وجود الطيب بن الآمر إلا ما نراه في كتب دعاته. أما ما يقال عن وجود سجل وجه إلى الملكة الحرة من الآمر قبل مقتله، فإنه سجل موضوع قصد به الباس القصة ثوب الحقيقة حتى يتسنى للصليحيين ومن تبعهم الاعتقاد بحقيقة إمامة الطيب، والصليحيون ودعاة الدعوة الطيبية هم وحدهم الذين تحدثوا عن الطيب، بينما

(١) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ٥٠.

سكت المؤرخون عنه فلم يذكروا حتى مجرد اسمه في كتبهم، بل أجمع المؤرخون على أن زوجة الآمر التي كانت حاملاً عند موته وضعت أنثى[1].

وفي الحقيقة أن قصة الطيب هذه قصة خيالية ليس لها أي سند تاريخي، وقصد الصليحيون من ورائها صبغ انفصالهم عن الإسماعيلية في مصر بصبغة شرعية. ومنذ ذلك الحين أصبح الصليحيون منفصلين عن مصر دينياً وسياسياً، وجمعت الملكة الحرة أروى في يدها السلطتين الدينية والسياسية بصفتها كافلة للإمام المستور الطيب بن الآمر. واستمرت الملكة الحرة في حكمها ملتزمة بتعاليم الإسماعيلية إلى أن توفيت في عام ٥٣٢هـ[2]. وبوفاة الملكة الحرة، انتهى حكم الصليحيين وانقرضت دولتهم.

نهجت الدولة الصليحية نهج الحركات الباطنية، فعملت على إرساء قواعد المذهب الباطني، فقد كشف أحد علماء السنة في اليمن العالم محمد بن مالك اليماني الذي كان معاصراً لازدهار دولة الصليحيين ما كشف عن انحرافهم وتعاليمهم الباطنية، فقد انخرط محمد بن مالك في سلك أتباع هذه الدولة وصور من الداخل حقيقة أمرهم. فقال عن الوالي الصليحي علي بن محمد الذي كان معاصراً له: «إن له نوابا يسميهم الدعاة المأذونين وآخرين يلقبون بالملكيين، تشبيهاً لهم بكلاب الصيد، لأنهم ينصبون للناس الحبائل ويخدعون من يقع في حبائلهم بروايات عن النبي ﷺ محرفة وأقوال مزخرفة، ويتلون عليه القرآن على غير وجهه، ويحرفون الكلم عن مواضعه، وينهجون النهج الباطني القائم على نظرية الظاهر والباطن. فالزكاة مفروضة في كل عام مرة، وكذلك الصلاة من صلاها مرة في السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار. ويبينون له كذلك أن لكل

(١) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ٥٠، ٥١.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأماني ١/٢٩٥.

شيء ظاهراً وباطناً وفقاً لقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾[1]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[2].

والظاهر ما تساوى به الناس وعرفه الخاص والعام، وأما الباطن فقصر علم الناس عن العلم به فلا يعرفه إلا القليل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[3]، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[4] فالأقل من الناس الذين لا عقول لهم[5] ويقول: الحذر الحذر أيها المسلمون من مقاربته ومخالطته والركون إلى قوله «أي علي بن محمد الصليحي» فإنه وأهل مذهبه يستدرجون العقول ويضلون من ركن إليهم، لقد سمعته مراراً وأسفاراً وهو يقول لأصحابه قد قرب كشف ما نحن نخفيه وزوال هذه الشريعة المحمدية[6].

ويستطرد محمد بن مالك في الحديث عن الصليحي وكشف مذهبه الباطني فيقول إن الصليحي ومن على مذهبه يدعون إلى ناموس خفي كل جهول غبي بعهود مؤكدة ومواثيق مغلظة مشددة على كتمان ما بويع عليه ودعى إليه وأنه لا يكشف لهم سراً ولا يظهر لهم أمراً. ثم يطلعه على علوم مموهة وروايات متشابهة. يدعو في بدء الأمر إلى الله ورسوله، كلمة حق يراد بها باطل، ثم يأخذه بعد ذلك

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٢٠

(٢) سورة الأعراف: آية ٣٣

(٣) سورة هود: آية ٤٠

(٤) سورة ص: آية ٢٤

(٥) محمد بن مالك اليماني: كشف أسرار الباطنية ص ١١، ١٢.

(٦) المرجع السابق ص ٤٣.

بالرفض والبغض لأصحاب رسول الله ﷺ. فإذا انقاد له وطاوعه أدخله في طريق المهالك تدريجياً ويأتيه بتأويل كتاب الله تحريفاً وتعويجاً وأقوال مزخرفة إلى أن يلبس عليه الدين ويخرجه منه كما يخرج الشعرة من العجين، وقصارى أمره إبطال الشرائع وتحليل جميع المحارم، فسارع اليه من لم يكن له بالشرع معرفة فحرم الحلال وأحل الحرام، وناقض بجهده الإسلام وأبطل الصلاة والصيام والزكاة والحج إلى بيت الله الحرام[1].

ثالثا: النصيرية

النصيرية هي إحدى الحركات الباطنية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري وهي تنسب إلى محمد بن نصير البصري النميري، وهو فارسي الأصل ويكنى بأبي شعيب. وكان محمد بن نصير من أصحاب الحسن العسكري الإمام الحادي عشر للشيعة الإمامية الاثني عشرية، وزعم ابن نصير أنه الباب إلى محمد ابن الإمام الحسن العسكري، أي وكيلاً وممثلاً له ومرجعاً للناس من بعده، ثم ادعى أنه رسول الله ونبي من قبل الله تعالى، وأنه أرسله علي بن محمد بن الرضا، وجحد إمامة الحسن العسكري وإمامة ابنه وادعى بعد ذلك الربوبية، وقال بإباحة المحارم وتحليل نكاح الرجال بعضهم بعضاً، ويزعم أن ذلك من التواضع والتذلل وأنه أحد الشهوات والطيبات[2].

أما بالنسبة لعقائد النصيرية فهي تتمثل في مباديء أهمها: أنهم يؤلهون علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ويقولون بأن علي حلت فيه الألوهية وذلك بقولهم أن الله

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤.

(٢) النوبختي: فرق الشيعة ص ١٠٣، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١٢٢/٨.

تعالى ظهر بصورة أشخاص، ولما لم يكن بعد رسول الله ﷺ شخص أفضل من علي رضي الله عنه وبعده أولاده المخصوصون هم خير البرية، فظهر الحق بصورتهم، ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم، فعن هذا أطلقنا اسم الألهية عليهم[1].

وللأئمة عند النصيرين ميزات خصوصية يمتازون بها عن بقية البشر ويقولون: بأن أفعالهم وأقوالهم منطبقة على الإرادة الإلهية انطباقاً تاماً.. وهم معصومون لأن الخطايا رجس.. وقد قال تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[2] فهم لذلك مصدر الإرادة الإلهية في أفعالهم وأقوالهم. والإمام عندهم أعلى منزلة من النبي، لأن الأنبياء يوحى إليهم بواسطة جبريل، والأئمة يكلمون الله تعالى بغير واسطة ويأتيهم الإلهام الرباني. والأئمة في اعتقاد النصيريين لا يولدون كغيرهم من بني البشر بل يولدون بكيفية خاصة لا يزاحمهم فيها غيرهم[3].

ومن عقيدتهم تعظيم الخمر ويرون أنها من النور باعتبار أن الخمر خلق من شجرة النور وهي العنب، فلذلك هم يعظمون شجرة العنب التي هي أصل الخمر حتى أنهم استعظموا قلعها[4].

أما عن موقف النصيرية من الصحابة فهو موقف العداء والحقد واعتبارهم أبالسة

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ص ١٩٥، ١٩٦، ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥/٥٠، القلقشندي: صبح الأعشى ١٣/٢٤٩.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٣٣

(٣) محمد الطويل: تاريخ العلويين ص ١٨٢-١٨٥، عبدالله الأمين: دراسات في الفرق ص ١٠٧، ١٠٨ سليمان الحلبي: طائفة النصيرية ص ٥٠، ٥١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ١٣/٢٥٠، عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٢/٤٤٢، محمد الخطيب: الحركات الباطنية ص ٣٦٩.

ظالمين لعلي، وخاصة أبوبكر وعمر وعثمان، فيصبون اللعنات والشتائم عليهم ويلعنون فاطمة بنت رسول الله ﷺ وولديها الحسن والحسين ويسبونهم بأقذع السباب، ويقذفونهم بكل بلية، ويقطعون بأنها وابنيها رضي الله عنهم شياطين تصوروا في صورة الإنسان[1]. ويعتبرون سب وشتم أبي بكر وعمر وعثمان من الفرائض الدينية والجهاد[2]. وهم يعظمون ويقدرون عبدالرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويعتبرونه أفضل الناس لأنه خلص اللاهوت من الناسوت بقتله، وبذلك تخلص اللاهوت من ظلمة الجسد وكدره، ويخطئون من يلعنه[3].

أما فيما يتعلق بالجانب العبادي فالنصيريون يصلون في خمسة أوقات. الا أنها تختلف في الأداء وفي عدد الركعات عن بقية المذاهب الإسلامية، فأول وقت للصلاة المفروضة هو الظهر وتتألف من ٨ ركعات، والثاني العصر ويتألف من ٤ ركعات، والثالث المغرب ويتألف من ٥ ركعات، والرابع العشاء ويتألف من ٤ ركعات، والخامس الفجر ويتألف من ركعتين. وصلاتهم ليس فيها سجود وإن كان فيها ركوع أحياناً. كما وأنهم لا يصلون الجمعة ولا يعترفون بها كفريضة. ولا يتمسكون بالطهارة قبل أداء صلواتهم من وضوء ورفع جنابة[4].

أما الزكاة عندهم فهم يفسرونها تفسيراً باطنياً يختلف عن معناها عند المسلمين، ويقومون بدفع ضريبة إلى مشايخهم ومقدارها خمس ما يملكه كل فرد من أفراد

---

(١) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥/٥٠.

(٢) الحسيني عبدالله: الجذور التاريخية للنصيرية العلوية ص ١٦٤ نقلاً عن الباكورة السليمانية لسليمان الأدنى، عبدالله الأمين: دراسات في الفرق ص ١١٣.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ١٣/٢٥٠، ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥/٥٠.

(٤) سليمان الحلبي: طائفة النصيرية ص ٥٧،٥٨، عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٢/٤٨٧.

الطائفة، من عروض التجارة والمواشي والمحاصيل الزراعية وحتى من مهور بناتهم. والصيام ليس امتناعاً عن الأكل والشراب، بل هو امتناع عن معاشرة النساء فقط طوال شهر رمضان. ولا يعترفون بفريضة الحج بل يعتبرون الحج إلى بيت الله الحرام كفراً وعبادة أصنام[1].

أما بالنسبة لأعيادهم فهي خليط من أعياد عدة لديانات مختلفة فهم يحتفلون بعيد الميلاد ويقدمون فيه النبيذ ويحتفلون برأس السنة وبعيد البربارة، والغطاس، والشعانين، والعنصرة، ومريم المجدلانية، ومن الأعياد الفارسية يحتفلون بالمهرجان والنيروز. ويحتفلون أيضاً بعيد الفطر وعيد الأضحى، ويحتفلون به في الثاني عشر من ذي الحجة، بينما سائر المسلمين يحتفلون به في العاشر من ذي الحجة. ومن أعيادهم عيد الغدير وعيد عاشوراء، وعيد الغدير الثاني «يوم المباهلة» وعيد الميلاد وعيد ليلة النصف من شعبان، وعيد الفراش أي ليلة مبيت علي في الفراش مكان النبي ﷺ ليلة الهجرة[2].

توالى على زعامة الطائفة النصيرية عدد من الزعماء، فبعد موت محمد بن نصير النميري عام ٢٧٠هـ تولى زعامة الطائفة عبدالله بن محمد الجنان الجنبلاني نسبة إلى بلدة جنبلا في العراق العجمي، وكان ذا علم وفلسفة وزهد وتصوف فأسس الطريقة الجنبلانية الصوفية، ومن هنا غلبت الصوفية على أفكار الطائفة النصيرية. ولكن لم يلبث أن توفي الجنبلاني في عام ٢٨٧هـ فتولى زعامة الطائفة من بعده

---

(١) سليمان الحلبي: طائفة النصيرية ص ٦٥،٦٦.

(٢) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٣٣٤، سليمان الحلبي: طائفة النصيرية ص ٧١-٧٤، عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٢/٤٥٨-٤٦٢ عبدالله الأمين: دراسات في الفرق ص ١٢٠،١٢١.

تلميذه حسين بن حمدان الخصيبي الذي كان يقول بالتناسخ والحلول[1]، وترك الخصيبي مدينة جنبلا وقصد العراق ثم حلب حيث استقر فيها على مقربة من سيف الدولة الحمداني الذي استمد منه القوم لنشر أفكاره مما ساعده على تثبيت الدعوة النصيرية، فكان الخصيبي ألمع رؤساء النصيرية وأكثرهم أثراً في مذهبهم، ساعده على ذلك ذكاؤه وطول عمره، حيث عاش ما يقرب من ٩٨ عاماً وقدرته على التأليف في المذهب وتطويره حتى كان يلقب بشيخ الدين[2].

بعد وفاة الخصيبي عام ٣٥٧هـ تولى بعده عدد من الرؤساء لم يبلغوا منزلته وشهرته مثل السيد محمد بن علي الجلي، وأبي سعيد الميمون الطبراني نسبة إلى مدينة طبرية بفلسطين وأبوحسن الطرسوسي الصغير وأبوحسن الطرسوسي الكبير[3].

ظل النصيريون على هذا الحال يتقلبون فترات تحت زعامات قوية وفترات تحت زعامات ضعيفة حتى نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الهجري حيث ازدادت هجمات الأكراد السنيين على المناطق النصيرية بسبب معتقداتهم الفاسدة وممالئتهم للأعداء فلم يجد النصيريون بداً من طلب العون والمدد من الأمير حسن بن يوسف المعروف بالمكزون السنجاري[4] فهب لنجدتهم سنة ٦١٧هـ في جيش قوامه ٢٥ ألف فارس ولكنه مني بالهزيمة أمام الأكراد، وما لبث أن عاد مرة أخرى لنجدة

---

(١) ابن حجر: لسان الميزان ٢/٢٧٩، ٢٨٠.

(٢) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٣٢١، ٣٢٢.

(٣) محمد الطويل: تاريخ العلويين ص ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٣٢٢، ٣٢٣.

(٤) نسبة إلى سنجار مدينة مشهورة بارض الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. انظر ياقوت الحموي: المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ص ٢٥٤.

النصيريين، وذلك في عام ٦٢٠هـ في جيش قوامه ٥٠ ألف مقاتل فاستطاع أن ينزل الهزيمة بالأكراد أعدائه وأعدائه طائفته، وأن يحقق عليهم النصر فقسم الأراضي على أبناء طائفته ونظم أمورهم، وأمن أحوالهم[١].

وقامت فيما بعد محاولات كثيرة من زعماء المسلمين لإصلاح هذه الطائفة وإرجاعها إلى طريق الإسلام الصحيح، وأول محاولة في ذلك قام بها صلاح الدين الأيوبي بعد دحره للصليبيين حيث حاول إصلاحهم ببناء المساجد وإقامة الصلاة والصيام وغيرها من الفروض الإسلامية، فأطاعوه ولكن بعد وفاته عادوا إلى ما كانوا عليه من معتقدات وخربوا المساجد وجعلوها زرائب للحيوانات[٢].

ويروي الرحالة ابن بطوطة الذي زار بلاد الشام في القرن الثامن الهجري بما فيها مناطق النصيرية فقال: «وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية، الذين يعتقدون أن علي بن أبي طالب إله. وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون، وكان الملك الظاهر (الظاهر بيبرس) ألزمهم ببناء المساجد بقراهم، فبنوا بكل قرية مسجداً بعيداً عن العمارة ولا يدخلونه، ولا يعمرونه، وربما أوت إليه مواشيهم ودوابهم، وربما وصل الغريب إليهم فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له: لا تنهق علفك يأتيك»[٣].

ظل النصيريون على هذا الحال من فساد في المعتقد، إلى مواقف معادية لأهل السنة مماثلة

---

(١) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٣٢٣، ٣٢٤، محمد الطويل: تاريخ العلويين ص ٣١٠.

(٢) محمد الخطيب: الحركات الباطنية ص ٣٣٢.

(٣) رحلة ابن بطوطة ١/٦٥.

لأعدائها، مما سبب الضعف داخل المجتمع المسلم، وعرقلة الجهاد ضد الصليبيين الغاصبين لأرض المسلمين، فهم دائماً كما قال عنهم الإمام ابن تيمية مع كل عدو للمسلمين[1].

رابعاً: الدروز.

الدروز فرقة إسماعيلية باطنية ادعت ألوهية الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، وهم يعتبرون أنفسهم ومنذ ألف سنة مضت في دور الستر وهم شديدو التكتم على عقائدهم ولا يعبرون عنها إلا بطريق الرمز والكتابة كأسرار الماسونية وطريقة الجمعيات السرية، حفظاً على كتم أسرارها من الافتضاح[2].

وهناك ثلاثة أشخاص تنسب إلى كل منهم بداية هذه الدعوة وهم: حمزة بن أحمد الزوزني ويعرف باللباد، وحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل الدرزي المعروف بنشتكين[3]. والمعلومات حول هؤلاء الأشخاص الثلاثة قليلة جداً ومضطربة، الأمر الذي أدى إلى غموض وخلاف حول مصدر الدعوة وأول من بدأ بها[4].

---

(١) ابن تيمية: الفتاوي ١٥٠/٣٥.

(٢) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٢٦١، حنا أبي راشد: جبل الدروز ص ٤١، محمد كامل حسين: طائفة الدروز ص ٣.

(٣) هناك خلاف بين المؤرخين على كلمة (درزي) وهل هي بضم الدال وسكون الراء أم بفتح الدال والراء كليهما. والسبب أن هناك خلاف حول الشخص الذي ينسب إليه الدروز هل هو محمد بن إسماعيل نشتكين الدرزي بفتح الدال المشددة والراء وهو الذي نشر الدعوة في وادي التيم أم هو ابومنصور أنوشتكين الدرزي، بضم الدال المشددة وسكون الراء وهو أحد قواد الحاكم بأمر الله. ويقال أن الطائفة تنسب إلى هذا الأخير دون الأول، وهم يلعنون نشتكين ويجلون أنوشتكين..

انظر: مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٢٥٨.

(٤) عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٥٩٣/٢.

وفد حمزة بن علي الزوزني إلى مصر عام ٤٠٥هـ، وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون إلى دار الحكمة التي أسسها الحاكم عام ٣٩٥هـ وأخذ ينشر في الخفاء الدعوة إلى تأليه الحاكم، وصنف كتاباً ذكر فيه أن روح الله تعالى حلت في آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز ثم إلى ابنه الحاكم، فالحاكم إذاً إلهاً عن طريق الحلول[١].

اتصل بحمزة بعض الدعاة الذين آمنوا بفكرته وعلى رأسهم حسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم، ومحمد بن إسماعيل الدرزي الذي كانت له ميول يهودية مجوسية. فكان أكثر الأنصار حماساً لفكرة تأليه الحاكم هو الحسن الأخرم، فقربه الحاكم إليه وخلع علي، فجهر الأخرم بدعوى ألوهية الحاكم وخرج في خمسين من أصحابه على دوابهم وقصدوا جامع عمرو بالقاهرة وسلموا إلى القاضي في الجامع فتوى صدرت «باسم الحاكم الرحمن الرحيم» فأثار الأخرم بذلك حنق السنيين فوثب عليه رجل من أهل السنة فقتله وقتل معه ثلاثة من أتباعه[٢].

أما محمد بن إسماعيل الدرزي فقد قدم إلى مصر عام ٤٠٨هـ فقربه الحاكم وفوض الأمور إليه، وبلغ أعلى المراتب، بحيث أن الوزراء والقواد والعلماء كانوا يقفون على بابه ولا ينقضي لهم شغل إلا على يده وكان قصد الحاكم أن تنقاد

---

(١) حنا أبي راشد: جبل الدروز ص ٣٤. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ٤/٢٥٩، ٢٦٠، مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٢٧٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/٢٨٣، محمد كامل حسين: طائفة الدروز ص ٧٥، مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٢٧٣.

الحاشية والوزراء إلى الدرزي فيطيعونه[١].

اتصل محمد بن إسماعيل الدرزي بحمزة بن علي وعمل معه على رسم خطط الدعوة، ولم يكتف الدرزي بهذا بل لقب نفسه بلقب سند الهادي أي سند حمزة، لأن الهادي هو حمزة[٢].

أخذ الدرزي يحسن للحاكم فكرة ادعاء الألوهية ويبدو أن الحاكم وافقه سراً وترك إعلان هذا الأمر، فما كان من الدرزي إلا أن أعلن الدعوة إلى تأليه الحاكم بالجامع الأزهر بالقاهرة. فثار عليه الناس وأرادوا الفتك به، فأعلن الحاكم البراءة منه ومن دعوته، ولكن في نفس الوقت وفر له الحماية وسهل له الفرار إلى وادي التيم في الشام فقام ببث الدعوة بين أهل تلك المنطقة فلقي منهم استجابة، ويقال أن الحاكم هو الذي نصح الدرزي بالرحيل إلى هذه المنطقة في الشام وأعانه بالمال[٣].

من هذا يتبين لنا أن الدروز ينتسبون تسمية إلى محمد بن إسماعيل الدرزي، بينما يعتبر حمزة بن علي الزوزني هو المؤسس الحقيقي وواضع متن قواعد عقيدة الدروز وقوامها التناسخ وحلول الأرواح، وقام حمزة بدوره في استغلال الدرزي والحسن الأخرم في الدعوة لأفكار العقيدة الدرزية[٤].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٨٤/٤.

(٢) محمد كامل حسين: طائفة الدروز ص ٧٣، محمد عبدالله عنان: الحاكم بأمر الله ص ٣٢٠، أحمد جلي: دراسة عن الفرق ص ٢٦٣.

(٣) ابن تيمية: الفتاوي ١٦١/٣٥، أحمد جلي: دراسة عن الفرق ص ٢٦٣، ٢٦٤ محمد كامل حسين: طائفة الدروز ص ٧٧.

(٤) محمد عبدالله عنان: الحاكم بأمر الله ص ٣٢١، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٥٦، حنا أبي راشد: جبل الدروز ص ٣٥.

أما أصل عقيدة الدروز فجذورها تتكون من مزيج من العقائد القديمة ومن الحكمة في اليونان وعبادات إيران والهند، وربما أيضاً في مصر القديمة التي شهدت أمثال أمحوتب الذي عاش حوالي سنة ٢٩٠٠ ق.م الذي بلغ من الحكمة ما جعله يرفع إلى مصاف الآلهة. وفي إحدى المخطوطات العربية المنسوبة لحمزة بن علي إمام الدروز، ورد ذكر هذا الحكيم المصري ممجداً معظماً مرات عديدة[١].

وعقائد الدروز تدور كلها حول تأليه الحاكم من ناحية وإبطال الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى، ويعتقد الدروز أن الحاكم هو الصورة الإنسانية للإله، ويعطونه من ثم كل صفات الله تعالى، وقد أثبت الدروز هذا التصور للحاكم والتوجه له بالعبادة والطاعة فيما يعرف عندهم «بميثاق ولي الزمان» الذي يؤخذ على كل من يدخل ديانتهم بأن يصرح ويقول: «توكلت على مولانا الحاكم الأحد الفرد الصمد، المنزه عن الأزواج والعدد، أقر فلان بن فلان إقراراً أوجبه على نفسي، وأشهد به على روحه في صحة عقله وبدنه وجواز أمره طائعاً غير مكره ولا مجبر، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان على اختلافاتها، أنه لايعرف شيئاً غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره، وأنه لا يشرك في عبادته أحداً مضى أو حضر أو ينتظر... وينتهي إلى أن من اعتقد أو أقر أنه ليس في السماء إله معبود ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين»[٢].

ومن عقائد الدروز التقمص أو التناسخ، فيعتقدون أن النفس لا تموت بل يموت

---

(١) سامي مكارم: أضواء على مسلك التوحيد ص ١٠٠.

(٢) محمد عنان: الحاكم بأمر الله ص ٤٠٣، مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٢٧٤، ٢٧٥، إحسان إلهي ظهير: الإسماعيلية ص ٧٣٠، ٧٣١.

قميصها، وهو الجسم البشري فتنتقل الروح منه إلى جسم بشري آخر يولد حديثاً فتحل فيه، وعقيدة التناسخ عند الدروز تعتمد على نظرية أن العالم لا يزيد ولا ينقص، فكلما مات إنسان ولد آخر لتحل فيه روح المتوفى قبله وهكذا[1].

أما عن عقيدتهم في اليوم الآخر «القيامة» والجنة والنار، فهم يرون أن اليوم الآخر هو يوم ظهور الحاكم بأمر الله وهو اليوم الذي يظهر فيه مذهب عقيدة التوحيد على كل المذاهب والأديان، ويضطر المخالفون لعقيدة التوحيد أن يتحولوا عن دينهم بحد السيف، وموعد هذا اليوم مجهول، كما تقول رسائل الدروز، أما علامة قرب هذا اليوم هو عندما يرى الملوك يملكون حسب مآربهم وأهوائهم الشخصية ولا يعدلون بين الرعية ويتسلط المسيحيون واليهود على البلاد، ويستسلم الناس إلى الآثام والفساد والآراء الفاسدة. من هذا يتضح أن الدروز يعتقدون أن يوم ظهور الحاكم بأمر الله بعد الغيبة واستلامه مقاليد السلطة هو يوم القيامة وأن العلامات التي جعلوها لهذا اليوم بعضها مقتبس من العقيدة الإسلامية ولكن مع تحريف شديد بما يتناسب مع أهوائهم[2].

والجنة عندهم هي الإيمان بالتوحيد، وثمارها المعرفة الحقيقية والنار هي رفض التوحيد أي الشرك والاتكال على العدم[3].

وللدروز رسائل يعارضون فيها بسخرية ما ورد من ذكرلأوصاف الجنة والنار، فالجنة عند الدروز روحانية خالصة تقوم السعادة فيها على التوحيد، وهي في نظرهم

---

(١) عبدالله الأمين: دراسات في الفرق ص ١٤٦، ١٤٧، سامي مكارم: أضواء على مسلك التوحيد ص ١٢١، ١٢٢، حنا أبي راشد: جبل الدروز ص ٤٤.

(٢) محمد كامل حسين: طائفة الدروز ص ١٢١، أحمد الفوزان: أضواء على العقيدة الدرزية ص ٥٦، ٥٧.

(٣) أنور ياسين: بين العقل والنبي ص ٣٤٥، ٣٤٦، الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٢٨٩.

الدعوة الهادية المهدية وأثمارها العلوية الإلهية الحقيقية التي بها يتخلص الموحدون من جهلهم من داء الشرك. أما النار عندهم فهي غلبة الشقوة وهوى النفس البهيمية الغالب عليها الجهل. وباختصار فالجنة عند الدروز هي الإيمان والتوحيد، والنار هي رفض التوحيد، أي الشرك والاتكال على العدم والشريعة[1].

أما بالنسبة لموقفهم من العبادات الإسلامية فهم يزعمون أن الشرائع كلها منسوخة. وبالتالي فإن تكاليفها قد سقطت عن الناس فلا صلاة ولا صيام ولا زكاة. بل إن الدروز قد أولوا هذه الشعائر تأويلاً يخدم مذهبهم الفاسد، فالصلاة لا تشير إلى الصلاة المعهودة في الشرع، بل تعني صلة قلوب الدروز بتوحيد الحاكم، وزعموا أن الحاكم إلههم لم يصل مدة طويلة وكان لا يصلي الجمعة ولا صلاة الجنازة ولا العيدين، واستدلوا بقوله عليه السلام: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» فذكروا أن أبا بكر وعمر هما الفحشاء والمنكر[2].

والزكاة تشير عند الدروز إلى توحيد الحاكم وتزكية القلب وتطهيره في الحالتين جميعاً «الظاهر والباطن» وترك ما كان الإنسان عليه قديماً وفسروا قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ بأن البر هو توحيد الحاكم ونفقة ما تحبون الظاهر والباطن، ومعنى نفقة الشيء: تركه لأن النفقة لا ترجع إلى صاحبها أبداً[3].

والصوم عندهم معناه الامتناع عن الرفث ومعنى ذلك أنه يجوز الأكل والشرب

---

(١) أنور ياسين: بين العقل والنبي ص ٣٤٣-٣٤٦، أحمد الفوزان: أضواء على العقيدة الدرزية ص ٥٨. محمد الخطيب: عقيدة الدروز ص ١٦٨، ١٦٩.

(٢) حمزة بن علي: رسائل الحكمة -رسالة رقم ٤١ ص ٣١٦، عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٢/٧١٦، ٧١٧.

(٣) عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٢/٧١٨، محمد الخطيب: عقيدة الدروز ص ٢٢٤.

مع الصوم، وهو عشرة أيام في ذي الحجة تنتهي بالعيد ويفسر الصوم عندهم أيضاً بالصمت وكتمان العقيدة عن غير أهلها[1].

أما الحج فالدروز لا يعتبرونه فرضاً، ولا يؤمنون بمناسك الحج ويسفهونها ويرون فيها ظاهرة وثنية، ويقولون بأن مولاهم الحاكم قطع الحج سنين عديدة وقطع عن الكعبة كسوتها. وقطع الكسوة عن الشيء يقصد منه كشفه وهتكه، فالمراد من قطع كسوة الكعبة بيان أن المراد في غيرها وأن ليس فيها منفعة[2].

لم يقف الدروز عند هذا الحد من تعطيل الشرع وتأويل العبادات تأويلاً يتفق وأهواءهم بل اتخذوا لهم فرائض، أطلقوا عليها اسم الفرائض التوحيدية، وهي معرفة الباري وتنزيهه عن جميع الصفات والأسماء ثم معرفة الإمام قائم الزمان وهو حمزة بن علي وتمييزه عن سائر الحدود ووجوب طاعته طاعة تامة، وقالوا إن المولى قد أسقط عن الموحدين سبع دعائم تكليفية ناموسية وفرض عليهم سبع خصال توحيدية هي:

أولا: صدق اللسان، ويشترطون الالتزام به في دائرة الدروز فقط، وهو عوض الصلاة.

ثانياً: حفظ الإخوان، ويقصد به حفظ الدرزي أخاه في المعتقد وهو عوض الزكاة.

---

(١) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٣٠٩، محمد الخطيب: عقيدة الدروز ص ٢٢٤.

(٢) عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٧٢٢/٢، الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٣٠٩، محمد الخطيب: عقيدة الدروز ص ٢٢٥.

ثالثا: ترك ما كان عليه الموحدون وما اعتقدوه من عبادة العدم والبهتان، وهو عوض عن الصوم.

رابعاً: البراءة من الأبالسة والطغيان، أي من الأنبياء السابقين ومن كل الأديان والشرائع، وهذا عوض الحج.

خامساً: التوحيد للمولى «أي للحاكم» في كل زمان ودهر وأوان، وهو عوض الشهادتين.

سادساً: الرضا بفعله «أي الحاكم» كيفما كان، وهو عوض الجهاد.

سابعاً: التسليم لأمره في السر والحدثان، وأنه يجب أن يعلم كل واحد أن المولى يراه حيث لا يرى[1].

هذا هو حال الدروز في معتقدهم، والحال يغني عن الجواب، وسنرى كيف كان موقف الدروز السلبي من الصليبيين أحياناً والمتعاون معهم أحياناً أخرى، مما سبب تصدعاً في الجبهة الإسلامية، وعرقلة للجهاد ضد الصليبيين.

(١) أنور ياسين: بين العقل والنبي ص ٣٥٥-٣٦٦، كامل حسين: طائفة الدروز ص ١١٨، ١١٩. عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٢/٧٢٩، أحمدجلي: دراسة عن الفرق ص ٢٧٩، حنا أبي راشد: جبل الدروز ص٤٢، ٤٣.

المبحث الثاني

مناطق نفوذ هذه الحركات

عملت الحركات الباطنية منذ نشوئها على اتخاذ مراكز حصينة لها تتحصن بها من أعدائها، وتنطلق منها لنشر أفكارها ومبادئها بين الناس، فركزت على القلاع والحصون لمناعتها وكثرة تحصيناتها وصعوبة مهاجمتها من قبل المناهضين لها، فحاولوا الاستيلاء على القلاع والحصون المهمة في بلاد فارس والشام فكانت أول قلعة ملكتها الباطنية النزارية في بلاد فارس قلعة يقال لها الروذبارد من نواحي الديلم، وكانت لأحد أصحاب السلطان ملكشاه، وكان نائبه بها يرى رأي الباطنية، فأعطاه الحسن بن الصباح زعيم الباطنية ألفاً ومائتي دينار فسلمها إليه[1].

واستطاع الباطنية النزارية فيما بعد أن يستولوا على عدة حصون وقلاع كانت كالخناجر في قلب الدولة الإسلامية، نال المسلمون منها الضرر العظيم، فقد استولوا على قلعة أصبهان، وهذه القلعة بناها السلطان ملكشاه، وكان سبب بنائها أنه كان قد جاء رجل من مقدمي الروم إلى السلطان فأسلم وسار معه يوماً إلى الصيد، فهرب منه كلب حسن الصيد وصعد الكلب إلى جبل عال، فتبعه السلطان والرومي معه، فوجد الكلب موضع القلعة، فقال له الرومي: لو أن عندنا مثل هذا الجبل لجعلنا عليه حصناً ننتفع به، فأمر ببناء القلعة ثم عين عليها دزدارا[2]، وحصل أن اتصل بالدزدار أحمد بن عطاش مقدم الباطنية، وكان الباطنية قد ألبسوه تاجاً

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي، مخطوط، ورقة ١٧٠أ.

(٢) دزدار: فارسية معناها حاكم حصن أو حارس قلعة. انظر عبدالنعيم حسنين: قاموس الفارسية ص ٢٤٧، وانظر أيضاً النويري: نهاية الأرب ٣٦٢/٢٦ حاشية رقم (١).

وقدموه عليهم مع جهله، ووثق الدزدار بابن عطاش وقلده بعض الأمور في القلعة، فلما توفي الدزدار استولى أحمد بن عطاش عليها، فذاق المسلمون منه الويلات الكثيرة، فكان الناس يقولون: إن قلعة يدل عليها كلب ويشير بها كافر، لا بد وأن يكون خاتمة أمرها شر[١].

ومن قلاع الباطنية المشهورة قلعة آلموت[٢] الحصينة عاصمة دولتهم النزارية في بلاد فارس والتي استطاع الحسن بن الصباح أن يستولي عليها بعد رجوعه من مصر عقب مقابلته للإمام الإسماعيلي المستنصر بالله فاستولى عليها بحيلة ماكرة[٣]، وذلك في عام ٤٨٣هـ[٤].

ظل الباطنية يتوسعون وينتشرون في كل مكان، حتى أصبحوا لا تكاد تخلو منهم قرية ولا مدينة فاستفحل أمرهم وعظم خطبهم، وكثروا بالعراق وأصبهان والجبل، وملكوا القلاع وقويت شوكتهم[٥]، وكثر الباطنية على وجه الخصوص في آمد حتى أن أهل آمد ضاقوا بهم ذرعاً فألبوا عليهم العسكر فسار إليهم عسكر آمد فقتلوا منهم سبعمائة[٦].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٥،٣١٦، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٦٧، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/٢١٤.

(٢) هي من نواحي قزوين قيل أن ملكاً من ملوك الديلم كان كثير التصيد فارسل يوماً عقاباً، وتبعه فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة، فوجده موضعاً حصيناً، فأمر ببناء قلعة عليه، فسماها آله موت، ومعناها بلسان الديلم: تعليم العقاب، ويقال لذلك الموضع وما جاوره ظالقان. انظر: ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٦، أبوالفدا: المختصر ٢/٢١٤.

(٣) انظر ما سبق ص ٤٨، ٤٩.

(٤) ابوالفدا: المختصر ٢/٢٠٠، القلقشندي: صبح الأعشى ١/١٢٠.

(٥) الذهبي: دول الإسلام ٢/٢٣، الذهبي: العبر في خبر من غبر ٢/٣٦٥-٣٦٩.

(٦) الذهبي: دول الإسلام ٢/٤٤، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٩٤.

ومن مناطق نفوذ النزارية طبس[١] وبعض قوهستان، وكان سبب ملكهم لهذا أن قوهستان كان فيها رجل اسمه المنور من بقايا بني سيمجور[٢] أمراء خراسان أيام السامانيين، وكان مطاعاً عند العامة والخاصة. وكان حاكم قوهستان السلجوقي قد سلك في الناس مسلك الطغاة، فظلم الناس وعسفهم وأراد أختاً للمنور بغير حل، فحمل ذلك المنور على الالتجاء إلى الباطنية النزارية وصار معهم فعظم حالهم في قوهستان واستولوا عليها وعلى ما حولها من مدن وقرى منها خور[٣] وخوسف وزوزن[٤] وقاين[٥] وتون[٦] وبعض الأطراف المجاورة لها[٧].

ومن قلاع الباطنية التي استولوا عليها بالقوة أو بالحيلة والغدر قلعة وسنمكوه وهي بقرب أبهر[٨] ملكوها سنة ٤٨٤هـ وتأذى بهم الناس ولا سيما أهل أبهر[٩]. ومنها قلعة خالنجان[١٠] وكانت لجاولي سقاووا، فجعل نائبه بها رجلاً تركياً فصادقه نجار باطني، وأهدى له هدية جميلة، ولازمه حتى وثق به وسلم إليه مفاتيح القلعة، فعمل الباطني دعوة للتركي وأصحابه، فسقاهم الخمر حتى أسكرهم ثم استدعى عبدالملك بن عطاش زعيم الباطنية فجاء في جماعة من أصحابه فسلم إليهم

---

(١) طبس: مدينة في برية بين نيسابور وأصبهان وكرمان. انظر: ياقوت: معجم البلدان ٤/٢٠، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٠٦.

(٢) سيمجور: نسبة إلى سيمجور وهو غلام للسامانيين وأولاده أمراء وفضلاء انظر السمعاني: الأنساب ٧/٢٢٧.

(٣) خور: الخور هو الخليج يند من البحر وهو من أرض فارس، انظر ياقوت المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ص١٦٢.

(٤) زوزن: كورة واسعة بين نيسابور وهراه ويحسبونها في أعمال نيسابور. ياقوت: معجم البلدان ٣/١٥٨.

(٥) قاين: بلد قريب من طبس بين نيسابور وأصبهان. ياقوت: معجم البلدان ٤/٣٠١.

(٦) تون: مدينة من ناحية قوهستان قرب قاين. ياقوت: معجم البلدان ٢/٦٢.

(٧) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٨، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/٢١٤، برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ٥٩-٦٠.

(٨) أبهر: بليدة من نواحي أصبهان. ياقوت: المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ص ١١.

(٩) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٨، أبوالفدا: المختصر ٢/٢١٤.

(١٠) خالنجان: مدينة بأصبهان، كان بها قلعة قديمة حصينة ملكها الباطنية وخربها السلطان محمد سنة ٥٧٠هـ. انظر ياقوت: معجم البلدان ٢/٣٤١.

القلعة فقتلوا من بها سوى التركي فإنه هرب، وقوي ابن عطاش بها، وصار له على أهل أصبهان القطائع الكثيرة[1]. ومن قلاعهم أستوناوند[2]، وهي بين الري وآمل[3]، نزل منها صاحبها فاغتالوه وأخذوها منه، ومنها قلعة أردهن[4] ملكها أبو الفتوح ابن أخت الحسن بن الصباح وكذلك قلعة كروكوه[5].

ومن قلاع الباطنية النزارية في بلاد فارس قلعة الناظر بخوزستان وقلعة الطنبور بينها وبين أرجان فرسخان، أخذها أبوحمزة الإسكاف وهو من أهل أرجان، ثم سافر إلى مصر وتلقى بها علوم المذهب الإسماعيلي الباطني وعاد إلى ارجان داعية لباطنية مصر ومذهبهم[6].

ومن قلاعهم قلعة خلادخان وهي بين فارس وخوزستان، أقطعها السلطان ملكشاه للأمير أونر. فجعل نائبه بها دزدارا، فأرسل إليه باطنية أرجان يطلبون منه بيعها فأبى، فقالوا له نحن نرسل إليك من يناظرك حتى يظهر لك الحق، فأجابهم إلى ذلك، فأرسلوا إليه رجلاً ديلمياً يناظره، وكان للدزدار مملوكاً قد رباه وسلم إليه مفاتيح القلعة، فاستماله الباطني واتفق معه على القبض على الدزدار وتسليم القلعة إليه فقبض المملوك على الدزدار وسلم مفاتيح القلعة إلى الباطنية[7].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٨، أبوالفدا: المختصر ٢/٢١٤، برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ٦٦.

(٢) استوناوند: اسم قلعة مشهورة بدنباوند من أعمال الري. ياقوت: معجم البلدان ١/١٧٦، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٩٣.

(٣) آمل: اسم لأكبر مدينة بطبرستان وهي مشهورة. ياقوت: معجم البلدان ١/٥٧، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٨٦.

(٤) أردهن: قلعة حصينة من أعمال الري بين دنباوند وطبرستان، بينهما وبين الري مسيرة ثلاثة أيام. ياقوت: معجم البلدان ١/١٤٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٨،٣١٩، ابوالفدا: المختصر ٢/٢١٤، برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ٦٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٩، أبوالفدا: المختصر ٢/٢١٤.

(٧) نفس المصادر السابقة.

واستغل أحمد بن عبدالملك بن عطاش زعيم الباطنية في أصفهان النزاع الذي وقع على عرش السلاجقة بين بركياروق بن السلطان ملكشاه وأخيه محمود فاستولى على القلعة المنيعة المشرفة على أصفهان والمعروفة بشاهدز[١] وذلك في سنة ٤٨٧هـ فأصبحت مركزاً دائماً له ولأتباعه[٢].

واستولى الباطنية على قلعة لمسر وهي تقع في منطقة الرودبارد وكان أهل هذه القلعة يرفضون دعوة الحسن بن الصباح الباطنية فأرسل أحد رفاقه المسمى كيابزرك أميد مع جماعة من الملاحدة فتسلق القلعة خفية في شهر ذي القعدة من عام ٤٩٥هـ فقتل ساكنيها، وأقام بزرك أميد عشرين عاماً في تلك القلعة ولم يكن ينزل منها إلا عندما يستدعيه إمامه الحسن بن الصباح، واستطاع من خلالها أن يثبت سلطة الإسماعيلية النزارية الباطنية في جميع منطقة الرودبارد[٣].

ومن قلاع الباطنية النزارية قلعة ميمون دز والتي كانت معقلاً لركن الدين خورشاه آخر حكام النزارية وحصناً له[٤].

ومن مناطق نفوذ النزارية قلعة طريثيث[٥] في قوهستان والتي فتحها السلطان

---

(١) شاهدز: قلعة حصينة على جبل أصبهان وكانت معقلاً لأحمد بن عطاش مقدم الباطنية، استحدثها السلطان ملكشاه، ومعنى شاهدز قلعة الملك.

انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/٣١٦.

(٢) عبدالنعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص ٩٦، مصطفى غالب: الثائر الحميري ص ١٢٩، برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ٦٥.

(٣) الجويني: تاريخ جهنكشاي ص ٢٠١، برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ٥٩.

(٤) الجويني: تاريخ جهنكشاي ص ٢٤٥.

(٥) طريثيث: ناحية ذات قرى كثيرة من أعمال نيسابور وطريثيث قصبتها.

ياقوت: معجم البلدان ٤/٣٣.

سنجر عام ٥٢٠هـ وكذلك قرية طرز قرب بيهق[١][٢].

من هذا يتبين لنا أن قلاع الباطنية في بلاد فارس كانت تمتد من بحر قزوين في الشمال إلى أصفهان وطبس في الجنوب، ومن جبال الطالقان في الشرق إلى حدود أذربيجان مع الري في الغرب.

(١) بيهق: أصلها بالفارسية بيهه: ناحية كبيرة، وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة، من نواحي نيسابور. انظر البغدادي: مراصد الاطلاع ١/٢٤٧.

(٢) برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ٨٠.



خريطة تبين مناطق نفوذ الحركة النزارية في بلاد فارس

أما مناطق نفوذ الحركة الباطنية النزارية في بلاد الشام فهي على غرار مناطق نفوذ إخوانهم في بلاد فارس، فلقد ركزوا جهودهم على القلاع والحصون ذات المواقع الاستراتيجية لما فيها من حماية لهم من أعدائهم المحيطين بهم من كل جانب، فضلاً عن تمكينهم من نشر دعوتهم بين عامة الناس القريبين منهم.

وقلاع وحصون الباطنية الرئيسية في بلاد الشام تكاد تكون محصورة ومعدودة لا تتجاوز الخمس عشرة قلعة، والمعلومات التاريخية التي تبين طرق حصولهم عليها قليلة، وقلاع الباطنية في الشام لا تسامي منعة ولا ترام حصانة[1].

ولكن هناك بعض الإشارات من المؤرخين عن كيفية الحصول والاستيلاء على بعض هذه القلاع والحصون، ففي عام ٤٩٩هـ استطاع الباطنية النزارية أن يستولوا على حصن أفامية بأمر من أبي طاهر الصائغ زعيم الباطنية في الشام وبمساعدة رجل من الباطنية في أفامية يعرف باسم أبي الفتح السرميني فاستولوا على القلعة وقتلوا صاحبها خلف بن ملاعب[2].

وفي ذي القعدة من عام ٥٢٠هـ استطاع بهرام زعيم الباطنية النزارية في الشام من أخذ قلعة بانياس، وبهرام هذا قصد دمشق أيام تاج الملوك بوري ودعا إلى مذهبه بها وعاضده على ذلك سعيد المزدقاني وزير بوري حتى علت كلمته في دمشق، عند ذلك طلب بهرام من بوري حصناً يأوي إليه هو ومن اتبعه، فأشار الوزير المزدقاني بتسليم قلعة بانياس إليه، وبعد أن تسلمها وانتقل إليها، واجتمع حوله أصحابه من كل ناحية، عظم أمر بهرام في قلعة بانياس وأخذ يتوسع فملك عدة حصون بالجبال عرفت باسم قلاع الدعوة[3].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/١٤٦.

(٢) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان مخطوط ١٣/ورقة ١٤٢أ.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: ١/١٢١، ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٣٢-٦٣٣، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٢-٣٤٣.

وفي عام ٥٢٧هـ اشترى الباطنية في الشام حصن القدموس[١] من صاحبه ابن عمرون وصعدوا إليه وسكنوه وقاموا بحرب من جاورهم من المسلمين حتى أنهم كرهوا مجاورتهم[٢].

وبعد بضعة سنين من ذلك تملك الباطنية قلعة الكهف[٣] حيث تناول ابن عمرون عنها لهم أثر الصراع الذي دار بينه وبين أبناء عمه من أجل الحكم[٤].

وفي عام ٥٣٥هـ ملك الباطنية النزارية حصن مصياف وكان والياً عليه مملوكاً لبني منقذ أصحاب شيزر[٥]، فاحتالوا عليه ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه وملكوا الحصن[٦]. ومصياف هي قاعدة قلاع الدعوة في الشام.

وفي عام ١١٣٦م (٥٣١هـ) استعادت الحشيشة النزارية السيطرة على حصن الخريبة[٧] حيث استطاعوا إجلاء الحامية الصليبية عنه والسيطرة عليه[٨].

ومن مناطق نفوذ الباطنية النزارية في الشام قرية الحجيرا[٩] والتي بقيت في

---

(١) القدموس: قلعة بالقرب من الخوابي. انظر القلقشندي: صبح الأعشى ١٤٧/٤.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط ٢٢٣/١٣أ، ابن الأثير: الكامل ٨/١١، ابن كثير: البداية والنهاية ٢٠٤/١٢.

(٣) الكهف: قلعة بالقرب من القدموس على نشز جبل مرتفع عال يرى على بعد. انظر القلقشندي: صبح الأعشى ١٤٧/٤.

(٤) برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ١٢٥.

(٥) شيزر: قلعة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم وهي تعد في كورة حمص. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣٨٣/٣.

(٦) ابن الأثير: الكامل ٧٩/١١، الذهبي: دول الإسلام ٥٤/٢، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٤٢٨.

(٧) الخريبة: حصن بساحل الشام. انظر ياقوت الحموي: المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ص ١٥٥.

(٨) برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ١٢٥.

(٩) الحجيرا: قرية من قرى غوطة دمشق. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢٢٦/٢.

أيديهم إلى أن استرجعها الملك الصالح سنة ١١٧٩م (٥٧٥هـ)[١].

ظل الباطنية النزارية في الشام يتوسعون ويستولون على المزيد من القلاع والحصون كلما لاحت فرصة لذلك، فاستطاعوا الاستيلاء على عدة حصون وقلاع أخرى منها قلعة المرقب، وقلعة الخوابي[٢]، وقلعة صهيون[٣] وقلعة المينقة[٤]، وحصن أبوقبيس[٥]، وقلعة الرصافة (الرصافي)[٦]، وقلعة المهالبة، وقلعة العليقة[٧]..

وكانت قلاع الباطنية النزارية في الشام تمتد من قلعة بانياس في الجنوب وحتى جبل السماق وأعزاز والباب في الشمال. ومن البحر الأبيض المتوسط في الغرب وحتى دمشق وحمص وحماة وأفامية في الشرق.

(١) برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ١٣٤.

(٢) الخوابي: قلعة في جهة الشمال من طرابلس. القلقشندي: صبح الأعشى ١٤٧/٤.

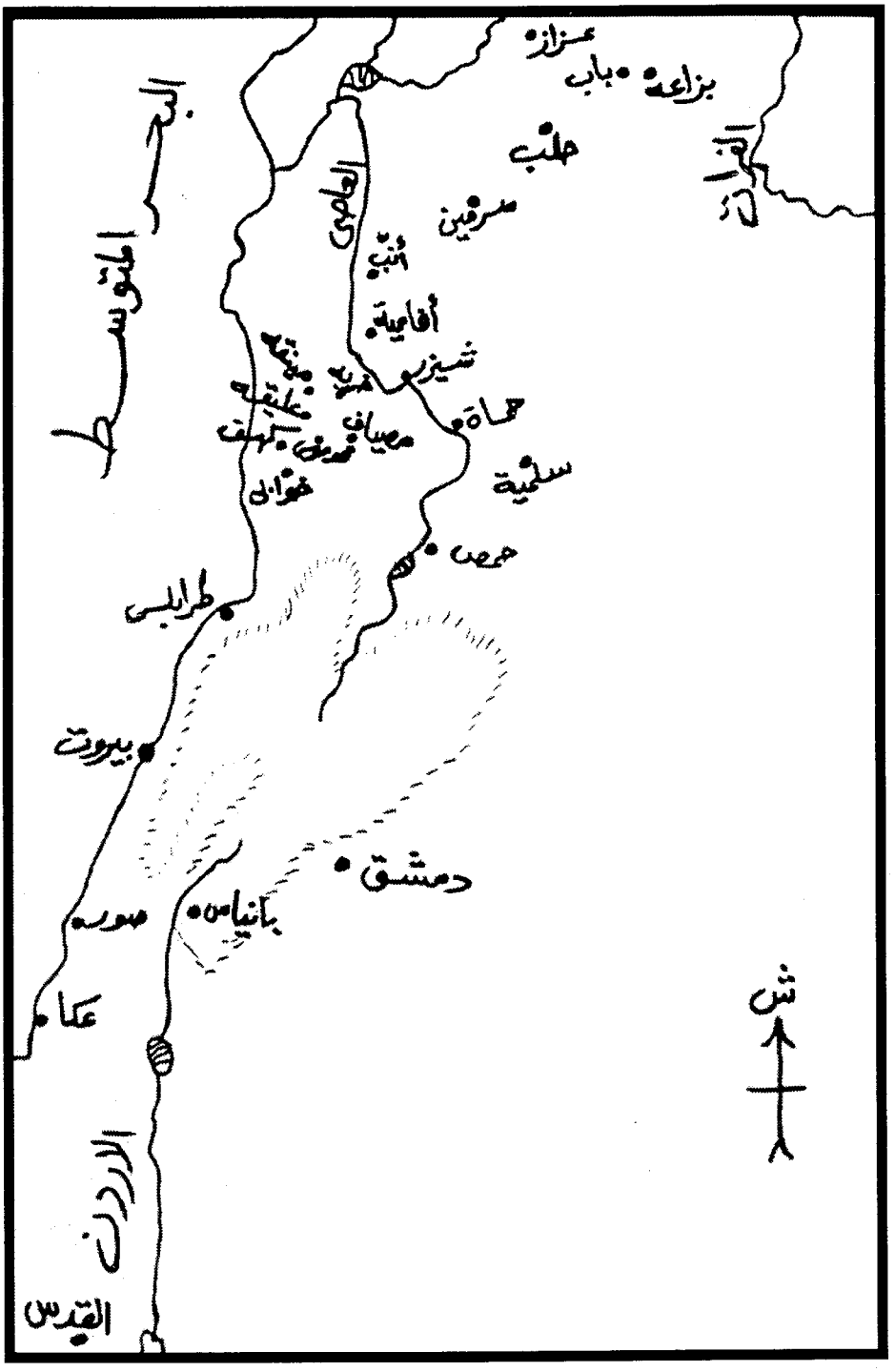
(٣) صهيون: قلعة حصينة في طرف جبل وهي من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤٣٦/٣.

(٤) المينقة: قلعة بالقرب من الكهف على نحو ساعة على جبل مرتفع. انظر القلقشندي: صبح الأعشى ١٤٧/٤.

(٥) أبوقبيس: قلعة حصينة غربي حلب مقابل شيزر. القلقشندي: صبح الأعشى ١٢٤/٤، ياقوت الحموي: المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ص ١١.

(٦) الرصافة: قلعة للإسماعيلية من ناحية الخوابي وهي بالقرب من مصياف. القلقشندي: صبح الأعشى ١٤٦/٤، ياقوت الحموي: المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ص ٢٠٦.

(٧) مصطفى غالب: سنان راشد الدين ص ١١٦، مصطفى غالب: الثائر الحميري ص ١٣٤، برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ١٢٥، فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢٤٥/٢.


البحر المتوسط
العاصي
حلب
بزاعة
باب
أفامية
شيزر
حماة
سلمية
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
بانياس
صور
عكا
الأردن
القدس
ش

أما عن مناطق نفوذ الباطنية المستعلية، فإنها كانت تتمركز بصفة مستمرة في مصر واليمن وأحياناً في جنوب بلاد الشام والحجاز.

أما مناطق نفوذ الباطنية النصيرية فكانت عند ابتداء الحروب الصليبية تتركز في الموصل وديار بكر[١] وحلب والعواصم[٢] أي طرسوس[٣]، وآدنه ومصيصة[٤]، وإياس، وهرونيه، وبياس[٥]، وجهات أنطاكية وجبلة[٦] مع اللاذقية وبانياس وطرطوس[٧]، وطرابلس، وجهات حماه وحمص وصور وساحل إقليم البلاد السورية حتى القدس[٨].

أما بالنسبة لمناطق نفوذ الدروز فأول موطن لهم كان في وادي التيم[٩] الذي

---

(١) دياربكر: ناحية ذات قرى ومدن كثيرة بين الشام والعراق، قصبتها الموصل وحران وبها دجلة والفرات. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٣٦٨، ياقوت: معجم البلدان ٢/٤٩٤.

(٢) العواصم: هي حصون موانع وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية وقصبتها أنطاكية. ياقوت: معجم البلدان ٤/١٦٥.

(٣) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. ياقوت: معجم البلدان ٤/٢٨، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢١٩.

(٤) مصيصة: مدينة على شاطيء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. ياقوت: معجم البلدان ٥/١٤٤-١٤٥.، القزويني: آثار البلاد ص ٥٦٤.

(٥) بياس: مدينة صغيرة شرقي أنطاكية وغربي المصيصة وهي بينهما قريبة من البحر. ياقوت: معجم البلدان ١/٥١٧.

(٦) جبلة : قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. ياقوت: المشترك وضعاً ص ٩٥.

(٧) طرطوس: بلد بالشام مشرفة على البحر قرب المرقب وعكا. ياقوت: معجم البلدان: ٤/٣٠.

(٨) محمد غالب الطويل: تاريخ العلويين ص ٢٨٨، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ٤/٢٦٥، فريد وجدي: دائرة المعارف ١٠/٢٤٩، عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٢/٤٩٧-٤٩٨.

(٩) وادي التيم: لم أعثر فيما توفر لدي من معاجم وكتب بلدان على تعريف لهذا المكان، ولكن هناك تعريف له في كتاب فيليب حتي، تاريخ سوريا يقول: الإسم مأخوذ من تيم الله (تيم اللات أصلاً) وهم اسم لقبيلة عربية كانت في منطقة الفرات حيث تنصرت ثم تحولت إلى جنوب لبنان. انظر فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢/٢١٧ حاشية (٤).

ترعرعت فيه الدعوة الدرزية بعد وصول محمد بن إسماعيل الدرزي الذي قام بنشر الدعوة بين أهالي سكان ذلك الوادي، فاستجابوا له وأصبحوا فيما بعد رعاة دعوة تأليه الحاكم بأمر الله الفاطمي.

ظل الدروز في موطنهم في وادي التيم إلى قبيل الحروب الصليبية حيث أخذوا في الانتشار من موطنهم في وادي التيم في جنوب لبنان إلى منطقة الشوف، وجبل السماق، وإلى الشرق من مدينة بيروت[1].

ومن مناطق نفوذ الدروز في بلاد الشام حرمون (جبل الشيخ) حيث كانوا متجمعين في المناطق الجبلية وعلى الأخص في منطقة حرمون[2].

(١) فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢١٩/٢، سامي مكارم: أضواء على مسلك التوحيد ص ١٤١، محمد كرد علي: خطط الشام ٣/٢.

(٢) سامي مكارم: أضواء ص ١٤٢.

المبحث الثالث

علاقة هذه الحركات بالمسلمين من أهل السنة

في وقت نشوء الحركة النزارية ومحاولتها تأسيس دولة لها، كان السلاجقة في أوج قوتهم وذروة توسعهم، وكانوا منافحين عن المذهب السني وأعادوا للخلافة العباسية هيبتها بعد أن كادت أن تتلاشى على أيدي البويهين الشيعة، فأصبح السلاجقة حماة الدولة العباسية، وحاملي لواء السنة في وجه الباطنية التي أخذت في الانتشار داخل المجتمع الإسلامي فاتسمت العلاقات بين النزارية الباطنية والسلاجقة في البداية بالعداء المطلق خاصة بعد نجاح النزارية في الاستيلاء على قلعة آلموت في عام ٤٨٣هـ بقيادة زعيمهم الحسن بن الصباح، وأصبحوا يشكلون مصدر خطر على أهل السنة المجاورين لهم، فعظم بلاؤهم وقطعوا الطريق وخربوا القرى[١].

وكان أول من تنبأ بخطر الباطنية الوزير نظام الملك بحكم زمالته للحسن بن الصباح في الدراسة، فقال ذات مرة بفراسته عمّا قريب يضل هذا الرجل[٢]. وبتنبؤ نظام الملك بخطر الباطنية وشرهم أخذ في الإكثار من تحذير السلطان السلجوقي ملكشاه منهم وتنبيهه إلى وجوب إعادة ديوان البريد الذي ألغاه السلطان ألب أرسلان حتى تبلغه أخبار الباطنية أولاً بأول[٣].

ونتيجة لذلك بذل الوزير نظام الملك غاية جهده في استئصال الفتنة الباطنية من

---

(١) الذهبي: دول الإسلام ٢/١٣٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٧، عمر أبوالنصر: قلعة آلموت ص ١٢٦.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٨.

جذورها، فسعى إلى تجهيز العساكر والجيوش لقمعهم وقسرهم وذلك لما كان يراه بنظره الثاقب من شمائل أحوالهم الفاسدة وخطرهم على المجتمع. ومنذ ذلك التاريخ أصبح نظام الملك العدو اللدود للحسن بن الصباح وشيعته النزارية الباطنية، فأخذ الحسن بن الصباح يعمل على التخلص من عدوه نظام الملك وحتى يذيع صيته باغتيال هذه الشخصية المرموقة، فامتدت يد الغدر والخيانة إلى حياة الوزير نظام الملك فأنفذ الحسن بن الصباح أحد فدائيته واسمه أبوطاهر الأراني على هيئة صوفي متظلم إلى نظام الملك، وبعد أن فرغ من إفطاره وخرج في محفته إلى خيمة حريمه تقدم إليه هذا الباطني في صورة مستغيث، ولما اقترب منه طعنه بخنجر فاستشهد الوزير نظام الملك متأثراً بجراحه[1].

بعد ذلك كانت العلاقات بين النزارية الباطنية وسلاطين السلاجقة تتسم بالمهادنة أحياناً وبالعداوة أحياناً أخرى، فنرى السلطان السلجوقي ملكشاه يرسل إلى الحسن بن الصباح وشيعته الإمام أبويوسف يعقوب بن سليمان الخازن وكان فقيهاً عارفاً بالأصول على مذهب أبي الحسن الأشعري لمناظرتهم فناظرهم وألف كتابه المسمى بالمستظهري وأجاب على مسائلهم[2].

ولكن على ما يبدو أن هذه المناظرة لم تحقق الهدف الذي تطلع إليه السلطان ملكشاه من محاولته إقناعهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وبازدياد ضرر النزارية الباطنية لجيرانهم من المسلمين وقطعهم للطريق، لجأ السلطان ملكشاه إلى العمل المسلح ضدهم، فأرسل أحد قواده واسمه أرسلان تاش في أوائل عام ٤٨٥هـ على

(١) الجويني: تاريخ جهنكشاي ص ١٩٧، ابن الأثير: الكامل ٢٠٤/١٠، ابن الجوزي: المنتظم ٦٦/٩، ٦٧، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٠، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣٩/١٢.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣٢٤/٢.

رأس جيش كبير لمحاربة الحسن بن الصباح وأتباعه، فحاصر قلعة آلموت معقلهم الرئيسي وضيق عليها الحصار حتى أن الذين بها كانوا يعيشون على ما يسد الرمق من قليل القوت، فطلب الحسن بن الصباح النجدة من أحد دعاته المسمى بدهدار أبوعلي المقيم في قزوين فقدم فأرسل ثلاثمائة رجل من أتباعه الباطنية لنجدة الحسن بن الصباح والذين معه، فألقوا أنفسهم داخل القلعة، وبمعاونة المقيمين فيها أغاروا ليلاً على جيش أرسلان تاش فانهزم هو وجيشه وذهبوا عن آلموت وعادوا أدراجهم إلى ملكشاه[1].

جزع السلطان ملكشاه من هذه النتيجة لكنه أصر وعقد العزم على استئصال الباطنية، لكن المنية عاجلته وحالت بينه وبين ذلك ففاضت روحه إلى بارئها ليلة الجمعة منتصف شوال عام ٤٨٥هـ[2].

بعد وفاة السلطان ملكشاه دب النزاع بين أفراد البيت السلجوقي، وتنافس أبناء ملكشاه وظهر في أفق النزاع أسماء بركياروق ومحمود ومحمد وسنجر أبناء السلطان ملكشاه، وكان الصراع في البداية بين بركياروق ومحمود ولكن صفا الجو لبركياروق بعد أن هزم أخوه ومناصروه في موقعة بالقرب من أصفهان[3]. وأصبح بركياروق هو سلطان السلاجقة فعين أخاه سنجر والياً على خراسان ومحمداً والياً على أذربيجان[4].

انتهز النزارية الباطنية فرصة الاضطرابات بين أفراد البيت السلجوقي فحاولوا

---

(١) الجويني: تاريخ جهنكشاي ص ١٩٤-١٩٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٢١٠، ابن الجوزي: المنتظم ٩/٧٤.

(٣) انظر ابن الأثير: الكامل ١٠/٢١٥.

(٤) انظر عبدالنعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص ٨٩، ٩٠.

تحسين علاقاتهم ببعض الأمراء فتمكنوا من استمالة تاج الدولة تتش أخو السلطان ملكشاه أمير دمشق والذي كان يطمع في زعامة البيت السلجوقي، ولما قتل استمالوا ابنه رضوان وحاولوا التدخل بين بركياروق وأخيه محمد عندما دب النزاع بينهم، فنصروا بركياروق على أخيه محمد ودخلوا في جيشه حتى أصبحوا يكونون ربعه[1].

لكن لم يلبث أن تنبه بركياروق إلى خطرهم واستفحال أمرهم خاصة بعد أن اتهم بركياروق بالميل إلى مذهبهم فأمر بقتلهم والفتك بهم فأخذوا من خيامهم وأخرجوا إلى ميدان عام فقتلوا فيه ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف[2]. وتواصل القتل والفتك بالباطنية حتى أن عدد القتلى منهم بلغ ثلاثمائة[3].

أما عن السلطان محمد فلقد كانت علاقته بالنزارية الباطنية العداء المطلق، ولما يئس النزارية من كسب محمد إلى صفهم استمالوا وزيره سعد الملك الآبي وطائفة من العاملين في بلاطه[4].

رغم ذلك لم يأل السلطان محمد جهداً في محاربة النزارية الباطنية واجتثاث خطرهم، فبدأ أولاً بالقبض على وزيره سعد الملك وأخذ ماله وصلبه على باب أصبهان حتى مات وصلب معه أربعة من أعيان أصحابه[5]، ثم حاصر قلعة أصبهان والتي كانت قاعدة سرير زعيم الباطنية عبدالملك بن عطاش فاستولى عليها عام

(١) أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ١٧٩، ١٨٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٢٣، النويري: نهاية الأرب ٢٦/٣٥٤-٣٥٥.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/١٢٠.
(٤) أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ١٨١.
(٥) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٣٧، النويري: نهاية الأرب ٢٦/٣٦٣.

٥٠٠هـ وقتل ابن عطاش وسلخه حياً[١]، ثم استولى على قلعة آلموت عام ٥٢٤هـ[٢].

أما السلطان سنجر فلقد اتسمت علاقته بالنزارية الباطنية بالعداء في بادئ الأمر ثم بالمهادنة، ففي عام ٥٢١هـ أوقع السلطان سنجر بالباطنية في آلموت فقتل منهم عدداً كبيراً قيل كانوا يزيدون على عشرة آلاف نفس[٣].

ولكن بسبب تهديدات النزارية الباطنية للسلطان سنجر ونجاح الحسن بن الصباح بحيلة ماكرة في استمالة أحد خدم السلطان استطاع بواسطته أن يغرس خنجراً مسموماً أمام سرير السلطان في الليل وهو نائم فلما استيقظ ورأى السكين ساوره القلق، فارسل الحسن بن الصباح على الفور رسولاً وحمله رسالة جاء فيها: «لو لم تكن إرادة الخير بالسلطان قائمة لكان أجدر بذلك الخنجر الذي غرس في الأرض الصلبة أن يغرس في صدر السلطان اللين»، فخاف السلطان ومال إلى مصالحتهم لهذا السبب[٤].

وقصارى القول أن العلاقات بين النزارية الباطنية ومن جاورهم من المسلمين كانت علاقة عداء وحقد استعمل الباطنية فيها كل أساليب الغدر والخيانة والدس بين السلاطين والسلب والنهب وقطع الطريق، ففي عام ٤٩٨هـ تجمع قفل الحجاج مما وراء النهر وخراسان والهند عند خوار الري[٥] فأتاهم الباطنية وقت السحر

---

(١) الذهبي: دول الإسلام ٢/٢٩، النويري: نهاية الأرب ٢٦/٣٦١-٣٦٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٦٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٤٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٩٨.

(٤) الجويني: تاريخ جهنكشاي ص ٢٠٥.

(٥) خوار: مدينة كبيرة من أعمال الري بينها وبين الري نحو عشرين فرسخاً. ياقوت: معجم البلدان ٢/٣٩٤.

فوضعوا السيف فيهم، وقتلوهم كيف شاءوا وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا لهم شيئاً[1].

أما عن العلاقات بين النزارية الباطنية الحشاشين في بلاد الشام ومن جاورهم من أهل السنة فكانت قائمة أيضاً على العداء وبث الرعب فقطعوا الطريق وأخافوا السبيل وانضم إليهم كل مفسد وحاربوا من جاورهم من المسلمين[2].

حاول النزارية الحشاشون في بلاد الشام استمالة بعض القادة والوزراء إلى صفهم والاستفادة من وضعهم السياسي في تدعيم مذهبهم ونشره بين الناس، ومن لم يستطيعوا استمالته حاربوه واغتالوه حتى يتخلصوا من ضرره عليهم، فمثلاً استطاعوا استمالة الأمير رضوان ملك حلب إليهم وبمساعدته تمكنوا من إظهار مذهبهم، وفي عهده أصبح لهم دار دعوة بحلب[3].

لكن الأمير رضوان تنبه إلى خطرهم وعزم على الفتك بهم، فعاجلته المنية ولم يتحقق له ذلك، لكن ابنه ألب أرسلان الذي تولى المملكة بعده وبمساعدة ابن بديع رئيس الشرطة في حلب فتك بهم وقتلهم وخلص حلب منهم[4].

ظل الباطنية على هذا المنوال يظهرون تارة ويختفون تارة أخرى ولكنهم اعتمدوا فيما بعد على طريقة أخرى لإيذاء من جاورهم من المسلمين بالحيلة والغدر، فاستولوا على حصن مصياف من صاحبه الذي كان والياً عليه من قبل بني منقذ أصحاب شيزر، فاحتالوا عليه ومكروا به حتى صعدوا إلى الحصن فقتلوه

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٩٢-٣٩٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٠٤، الذهبي: دول الإسلام ٢/٢٨.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب ص ١٤٠، ١٤١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٢٠٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٩٩، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/٢٢٧.

وأخذوا الحصن[1]. واستطاعوا أيضاً بحيلة جرئية أن يستولوا على حصن شيزر من أصحابه بني منقذ حيث استغلوا نزول بني منقذ من الحصن لمشاهدة عيد فصح النصارى، فوثبوا على الحصن في غفلة من أهله فملكوه وصعدوا إلى القلعة فملكوها هي وأبراجها، وأغلقوا باب الحصن، ثم استطاع بنو منقذ أن يستردوا الحصن منهم في نفس الليلة[2].

لم يكتف النزارية الحشاشون بعلاقة العداء لمن جاورهم من المسلمين بل امتدت أيديهم الغادرة إلى قادة الجهاد الإسلامي وإلى القادة الذين وقفوا في وجه توسعات الباطنية ومقاومة أفكارهم، فاغتالوا على سبيل المثال الأمير مودود صاحب الموصل الذي رفع راية الجهاد ضد الصليبيين وهزمهم في أكثر من موقعة، وأخذ على عاتقه توحيد الجبهة الإسلامية، فخاف الباطنية منه فامتدت أيديهم الغادرة إلى هذا القائد واغتالوه في صحن جامع دمشق بعد فراغه من أداء صلاة الجمعة، حيث وثب عليه باطني فضربه بسكين فجرحه أربع جراحات فمات وذلك في عام ٥٠٧هـ[3].

أما بالنسبة للعلاقات بين المستعلية وأهل السنة فهي تتمشى مع الخط العام للباطنية من نصب العداء والكيد لأهل السنة، واستغلال كل فرصة للانتقام منهم، فدأبت الدولة الفاطمية المستعلية على الإغارة باستمرار على بلاد الشام الخاضع لحكم السلاجقة السنيين ومحاولتهم المستميتة للسيطرة عليه، أو بث الخوف والرعب بين سكانه لدرجة أن السلطان السلجوقي ملكشاه شرع في تجهيز الجيوش

---

(١) برنارند لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ١٢٥.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٣-٣٠٤، أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار ص ١٥٩-١٦٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٩٦-٤٩٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٧٣، أبوشامة: الروضتين في أخبار الدولتين ١/٢٧.

عازماً على غزو مصر وأخذها من الرافضة[١].

ولما علم المستعليون عدم جدوى الغارات الحربية للسيطرة على بلاد الشام لجأوا إلى طريق آخر، ففي عام ٤٩٠هـ ورد على فخر الملوك رضوان ملك حلب كتاب المستعلي بالله صاحب مصر مع رسوله يلتمس من رضوان الدخول في طاعته وإقامة الخطبة والدعوة لدولته. ولحاجة في نفس رضوان[٢] أجاب إلى ما التمسه منه المستعلى، فأمر بأن يدعى للمستعلي على سائر منابر الشام التي في يده، فدعا الخطيب أبوتراب حيدرة بن أبي أسامة بحلب للمستعلي ثم لوزيره الأفضل ثم لرضوان وذلك في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان عام ٤٩٠هـ، فاستمرت الخطبة على هذا لمدة أربع جمع، وصادف أن حضر إلى حلب الأمير سكمان بن أرتق وياغي سيان صاحب أنطاكية فأنكرا ذلك على رضوان واستعظماه وأشارا عليه بإبطال ذلك فقبل بما أشير به عليه، وأعاد الخطبة للعباسيين وأرسل إلى بغداد يعتذر مما كان منه[٣].

بعد فشل المستعلية في بناء العلاقات الودية مع الملك رضوان، وظهرت عدم مقدرتهم على وضع قدم لهم بالشام، لجأوا إلى أسلوبهم المعهود فجهز الأفضل أمير الجيوش في مصر عام ٤٩١هـ جيشاً كبيراً ونزل به على بيت المقدس الذي كان

---

(١) الذهبي: دول الإسلام ١٣/٢.

(٢) كان هناك صراع عنيف بين الملك رضوان وأخيه دقاق ملك دمشق وكان كل منهما يطمع في السيطرة على أملاك الآخر فوجد رضوان الفرصة مناسبة للإستعانة بالفاطميين على أخيه دقاق وفي ذلك يقول ابن القلانسي: وكان الملك رضوان قد بنى الأمر في ذلك على الاجتماع مع العسكر المصري والنزول على دمشق لأخذها من أخيه دقاق. انظر ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٢٦٩/١٠-٢٧٠، ابن العديم: بغية الطلب ص ٣٤٤، ابن كثير: البداية والنهاية ١٥٤/١٢، الذهبي: العبر ٣٦٢/٢، النويري نهاية الأرب ٧٢/٢٧.

تحت حكم الأميرين سكمان وايل غازي ابنا ارتق السنيين وجماعة من أقاربهما، فحاصر الأفضل بيت المقدس ونصب عليه المجانيق فتهدم جزء من السور، واستطاع أن ينتزع بيت المقدس من يد الأراتقة السنيين في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون مدينة أنطاكية[١].

أما بالنسبة للعلاقات بين النصيرية والدروز بمن جاورهم من المسلمين فلا توجد هناك أي علاقات مباشرة بين الطرفين، على الرغم من الاختلاف العقائدي بينهما، ووجود التجمعات النصيرية والدرزية داخل المحيط الإسلامي السني، فقد كان النصيرية معتصمين بالجبال منعزلين عمن حولهم، ومنكمشين في قراهم الجبلية، أو متفرقين منطوين على أنفسهم في المدن أو السواحل[٢]. ونلاحظ أن النصيرية نزلوا إلى السواحل من جبالهم أثناء الحروب الصليبية وحروب التتار، وبعد اندحار هؤلاء نجدهم يرجعون إلى جبالهم[٣].

أما الدروز فكانوا يعيشون أيضاً في مجتمعات مغلقة وليس لهم أي اتصال بمن جاورهم، ويبدو أن هذه العزلة التي فرضها الدروز على أنفسهم نابعة من معتقداتهم وأسس مذهبهم، فهم لا يقبلون أحداً في دينهم ولا يسمحون لأحد بالخروج منه[٤]. ولا يجوز عندهم زواج الدرزية من غير الدرزي، ولا زواج الدرزي من غير الدرزية، فإذا حدث زواج من هذا القبيل فإنه يكون باطلاً. بالإضافة إلى ذلك فإن العقيدة الدرزية عقيدة باطنية، ولا يجوز لأي أحد الاطلاع

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢١.
(٢) مصطفى الشكعة : إسلام بلا مذاهب ص ٢٣٠.
(٣) محمد الخطيب: الحركات الباطنية ص ٣٣٠.
(٤) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص ٣٠٦.

على الكتب الدينية للدروز غير الدروز أنفسهم[1].

فتعليمات وقواعد العقيدة النصيرية والدرزية هي التي أثرت في سلوك هؤلاء القوم، وجعلتهم منطوين على أنفسهم ومنعزلين عمن جاورهم وليس لهم أي علاقات بأحد من جيرانهم فيما عدا العلاقات التي كانت بينهم وبين الصليبيين اثناء الحروب الصليبية لالتقاء الطرفين في عدائهم للمسلمين، وهذا ما سنراه في الفصل الرابع.

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٠٩-٣١٠.

المبحث الرابع

العلاقات بين النزارية والمستعلية

بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، أجلس الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي أمير الجيوش ابن الخليفة المستنصر الأصغر أحمد على سرير الخلافة، ولقبه المستعلي بالله، فلما علم داعي الإسماعيلية في بلاد فارس الحسن بن الصباح بذلك غضب غضباً شديداً خاصة أنه علم من المستنصر خلال زيارته لمصر حينما سأله من إمامي بعدك؟ فقال له المستنصر: ابني نزار، والمعروف أيضاً في العقائد الإسماعيلية أن الإمامة عندهم دائماً تكون في الأعقاب، أي تنتقل من الأب إلى الابن الأكبر مباشرة. لهذه الأسباب ثار الحسن بن الصباح وأعلن الدعوة النزارية ولأولاده من بعده في بلاد فارس، ومنذ ذلك التاريخ أصبح الخليفة الفاطمي الذي يحكم في القاهرة في نظر النزارية مغتصباً للحق الشرعي في الإمامة ومن الواجب المقدس عندهم أن يخلع وتقام إمامة نزار[1].

بعد القضاء على ثورة نزار في الإسكندرية ضد أخيه الأصغر لتوليه الخلافة من دونه، وصفاء الجو في مصر لصالح أمير الجيوش الأفضل والخليفة المستعلي، أخذ الأفضل في تتبع جميع من كان مع نزاراً أو مالأه أو أعانه، فقبض على كثير من وجوه البلد الذين أيدوا نزار وأودعهم السجون وعلى رأسهم قاضي ثغر الإسكندرية أبوعبدالله محمد بن عمار الذي اعتقله مدة ثم قتله[2].

---

(١) برنارند لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ١٢٤.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/١٥.

استحكم العداء بين النزارية والمستعلية خاصة أن النزارية بقيادة الحسن بن الصباح أخذوا في السعي لتأسيس دولة على غرار الدولة المستعلية في مصر، حتى تكون مأوى لأتباع النزارية ودعاتها على مختلف الأقطار والمناطق داعين إلى إمامة نزار والمذهب النزاري الجديد، فكانت مصر من المناطق المهمة التي توجه إليها دعاة النزارية خاصة أنه يوجد بها المستعلية أعداؤهم اللدودون، وبعد فترة من الزمن وفي خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري وبالتحديد في عهد الخليفة المستعلي الفاطمي الحافظ لدين الله، انفجرت أكثر من ثورة موالية لنزار، لكن جيوش مصر استطاعت أن تخمد هذه الثورات وتقضي عليها وأخذت الحكومة المستعلية في مصر بعد ذلك في صرف معظم انتباهها للتغلب على الدعاية النزارية بين رعاياها[1].

أخذ النزارية بعد هذا التضييق في استخدام وسائل وأساليب أقوى وأكثر تميزاً وتأثيراً ضد أعدائهم ومنافسيهم المستعلية، فاستطاعوا في عام ٥١٥هـ اغتيال عدوهم الأول الوزير الأفضل أمير الجيوش في مصر والذي كان المسئول الأول عن عزل نزار واغتصاب الحق الشرعي في الإمامة لصالح ابن أخته الأصغر المستعلي وذلك من قبل ثلاثة فدائية حشيشية من حلب[2].

لم يقف النزارية عند هذا الحد في عدائهم للمستعلية، بل أرادوا في هذه المرة أن يكون صيدهم ثميناً، فدبروا الأمر لاغتيال الخليفة المستعلي نفسه، حتى يكون الثأر مساوياً لقتل إمامهم نزار. فاستطاعوا في عام ٥٢٤هـ اغتيال الخليفة المستعلي الآمر

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٤٦٩، ٤٧٠، برنارندد لويس: الدعوة الإسماعيلية ص ١٢٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٢٢٢/١، الذهبي: العبر ٤٠٤/٢، ٤٠٥، برنارند لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ١٢٤.

بأحكام الله فلقي مصرعه في القاهرة على يد عشرة من الحشيشية النزارية، وكانت كراهية الآمر للنزارية معروفة بشكل جيد، فلقد روى بأنه بعد مصرع بهرام داعي الباطنية النزارية في الشام على يد جماعة ضحاك بن جندل أخو برق بن جندل مقدم وادي التيم الذي اغتالته الباطنية النزارية، أخذ رأس بهرام ويداه وخاتمه من قبل أحد سكان وادي التيم إلى القاهرة، حيث استلم حاملهما جوائز وخلعة من الآمر نفسه[1].

ظل العداء مستحكماً بين النزارية وا لمستعلية ولم يرو أنه حصل أي اتصال أو اتفاق بين الطرفين، وظل كل طرف يحيك المؤامرات ضد الطرف الثاني، وكل واحد منهم أخذ في تتبع أتباع الطرف الآخر ويصفيهم فلقد روي بأنه في عام ٥١٤هـ قتل رجل على يد الحشيشية النزارية في دمشق اتهم بأنه كان يتجسس على الحشيشية النزارية في الشام لحساب الحكومة المستعلية في مصر[2].

هذه هي طبيعة العلاقات بين النزارية والمستعلية عداء محكم قائم على الكيد لمحاولة تخلص أحد الطرفين من الآخر، ولم يقف العداء عند هذا الحد، بل تعداه إلى الاغتيال والقتل وسفك الدماء أحياناً فهذه هي طبيعة الحركات الباطنية في كل عصر وزمان.

---

(١) ابن ابي الدم: التاريخ المظفري ورقة ٤٥٨أ، ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٦٤،٦٦٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٠٠، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/١٢٨-١٣٧، برنارند لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ١٢٤، عبدالرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين ٢/٣٦٧.

(٢) برنارند لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ١٢٤.

الفصل الثاني

العلاقات السياسية والعسكرية بين الفاطميين والصليبيين

المبحث الأول: تعامل الفاطميين مع الصليبيين

المبحث الثاني: مقاومة الفاطميين للصليبيين

المبحث الأول

تعامل الفاطميين مع الصليبيين

بعد أن تحركت جموع الصليبيين من أوروبا باتجاه الشرق في أول حملة صليبية على العالم الإسلامي، وبعد وصول هذه الجموع إلى مضيق البسفور ودخولها في أراضي الدولة البيزنطية، أقسم زعماء هذه الحملة يمين الولاء والطاعة للإمبراطور الكسيوس كوفين، ونصحهم الإمبراطور بأن يسعوا للوصول إلى نوع من الاتفاق مع الفاطميين في مصر إذ أن الفاطميين كانوا من أشد الناس خصومة للترك السلاجقة السنيين ولا يقبلون مطلقاً مصالحتهم، بينما اشتهروا بالتسامح مع رعاياهم من المسيحيين، وكانوا دائماً مستعدين للتفاهم مع الدول المسيحية[1] ثم واصل الصليبيون زحفهم وتقدمهم عبر الأناضول وخاضوا عدة معارك مع سلاجقة الروم انتصروا في غالبها، وواصلت هذه الجموع زحفها فاقتحمت نيقية[2]، ومرعش[3]، وحصون الدروب، ووصلت إلى جبل السماق، وأخيراً اصطفت أمام أنطاكية أول معقل وحصن إسلامي على الحدود الإسلامية البيزنطية فشددوا عليها الحصار الذي استمر قرابة الثمانية أشهر سقطت بعده المدينة بأيديهم في أول رجب من عام ٤٩١هـ.

---

(١) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/٣٢٥، مصطفى الكناني: العلاقات بين جنوة والفاطميين ١/١٢٦.

(٢) نيقية: مدينة من أعمال اصطنبول على البر الشرقي. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/٣٣٣.

(٣) مرعش: مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم. ياقوت الحموي معجم البلدان ٢/١٠٢.

في هذا الوقت الحرج والعالم الإسلامي مهدد بالغزو الصليبي وهو في حاجة ماسة لمد يد العون وإلى كل جهود مخلصة لتوحيد جبهة المسلمين في وجه الصليبيين. في هذا الوقت العصيب لم تقف الخلافة الفاطمية صامتة متفرجة على الزحف الصليبي فحسب بل كان موقفها مريباً غامضاً مثيراً للشكوك والدهشة، مما حدا بالمؤرخين المسلمين المعاصرين إلى اتهام أمير الجيوش الفاطمي الأفضل بالتقصير والتفريط، فيعجب ابن تغري بردي من هذا الموقف المريب وهو أكثر المؤرخين تسامحاً في وصف موقف الأفضل فقال: «ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال»[1].

لم يكتف الأفضل بهذا ولم يقف عند هذا الحد، وبدلاً من أن يجيش الجيوش لصد المعتدين أرسل سفارة إلى الصليبيين بينما كانوا يحاصرون أنطاكية، وتفيد بعض المصادر الصليبية بأن ... الأفضل عندما رأى حصارهم لأنطاكية قد طال، خاف من أن يتسرب الضعف والملل إلى نفوس الصليبيين، لذا أرسل إليهم سفارة ترجو قادتهم مواصلة الحصار، وأكد لهم أنه سيساعدهم بالإمدادات العسكرية والمواد الغذائية، وكلف سفراء مخصوصين بالعمل على كسب قلوب قادة الصليبيين، فوصلت السفارة المصرية في أوائل الربيع إلى معسكر الصليبيين المحاصر لأنطاكية، فاستقبل القادة الصليبيون السفارة المصرية بحفاوة بالغة، وعقدوا معهم عدة اجتماعات وتسلموا منهم رسالة الأفضل، ومكث الوفد الفاطمي في المعسكر الصليبي عدة أسابيع عادوا بعدها إلى بلادهم تصحبهم سفارة صليبية تحمل الهدايا

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٤٧.

الوفيرة للتباحث مع الأفضل في الأمور التي اتفقوا عليها[1]. والجدير بالذكر أن السفارة الفاطمية قبل إبحارها عائدة إلى مصر أرسل إليها الصليبيون حمولة أربعة جياد من رؤوس القتلى السلاجقة السنيين هدية لخليفة مصر فأبدى أفراد السفارة سرورهم البالغ لذلك المشهد[2].

لم يكن هذا هو الاتصال الأول بين الفاطميين والصليبيين فهناك إشارات أوردها المؤرخ اللاتيني المعاصر للحملة الصليبية الأولى كفارو الكاسكيفلوني في حولياته ذكرها الدكتور مصطفى العناني فقال: «ليكن معلوماً لدى الجميع الآن وفي المستقبل، وفي عهد البابا أوربان الثاني الطيب الذكر، أن الدون جونفريد بصحبة الكونت فراندلينيس، وعدد آخر من النبلاء والسادة الذين رغبوا في زيارة ضريح السيد المسيح (عليه السلام) قد ذهبوا إلى مدينة جنوة، ومنها ركبوا السفينة الجندية المعروفة باسم بوميلا Pomella ليبحروا إلى الإسكندرية. ولما وصل الوفد إلى ميناء الإسكندرية، اتجهوا بصحبة الجنود (الفواطم) إلى ميناء مدينة بيت المقدس (أي يافا). وعندما أرادوا دخول المدينة عبر بواباتها لزيارة ضريح السيد المسيح، رفض حراس المدينة دخولهم إلا أن يدفعوا الرسوم المفروضة عليهم حسب ما هو مقرر كالعادة ومقدارها بيزنط واحد ليتمكنوا من الدخول» ويفسر الدكتور العناني هذا الحدث بقوله: إن هذه الرحلة التي قام بها الأمراء الصليبيون، لم تأت من فراغ وبلا معتقدات واتصالات مسبقة بين هؤلاء الأمراء الفاطميين في مصر، فلا يعقل أن

---

(١) ستيفن رنيسمان: الحروب الصليبية ٣٢٦/١، يوسف غوانمة: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين ص ١٢٣، ١٢٤، سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية، مقال في المجلة التاريخية المصرية المجلد ١٦ لعام ١٩٦٩، ص ٢١، حسن حبشي: الحروب الصليبية الأولى ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس: ترجمة حسن حبشي ص ٦٣.

يقوم هؤلاء الأمراء الصليبيون بزيارة ميناء الإسكندرية دون أن يستقبلهم مسئولو الأمن بالميناء، ودون وجود اتصالات سابقة وترتيب سالف. وهذا يؤيد ما قام به الفاطميون من إرسال جند حراسة اصطحبوا السفينة بوميلا إلى ميناء بيت المقدس، وكان الهدف من ذلك حماية هؤلاء الأمراء من خطر السلاجقة إبان رحلة الذهاب والعودة من الإسكندرية إلى بيت المقدس التي استغرقت أكثر من عامين[1].

لم يتمهل الأفضل واستغل فرصة انشغال السلاجقة في شمال الشام بالتصدي للزحف الصليبي فأرسل قواته إلى صور وفتحها عنوة وملكها[2] ثم أرسل قواته في العام التالي ونزلت على بيت المقدس واستطاعت أن تنتزعه من أصحابه الأراتقة سكمان وأخيه إيلغازي[3]. ولو بقي بيت المقدس في أيدي الأراتقة لكان أصلح للمسلمين على حد قول ابن ظافر[4].

لا شك أن سلوك الأفضل هذا كان عاملاً من أهم العوامل في انتصار الجيوش الصليبية، ووصولها إلى هدفها من دخول بيت المقدس واحتلال معظم بلاد الشام، لقد كان بمقدور الأفضل أن يقف في وجه الصليبيين ويتصدى لزحفهم ويردهم عن بلاد المسلمين، فالأحوال في مصر كانت هادئة مستتبة وكانت مصر تتمتع بالرخاء؛ بالإضافة إلى ذلك كان الأفضل قادراً على المال والرجال -كما قال ابن تغري بردي. وليس أدل على ذلك من قدرة الأفضل على احتلال صور وتملكه لبيت المقدس. في هذا الوقت كانت الجيوش الصليبية في طريقها إلى القدس فلم

(١) مصطفى العناني: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي ٢/٨٨-٨٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٢٦٤.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٢٢.

(٤) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ص ٨٢.

ينتظر الأفضل وصولها أو حتى التصدي لها، بل عاد لتوه إلى القاهرة، في حين كانت القوات الصليبية التي حاصرت بيت المقدس في غاية الإنهاك والتعب، وعانوا أثناء الحصار كثيراً من الحرارة الشديدة التي ظلت تهب أياماً عديدة، فأثارت بذلك أعصاب الصليبيين الذين لم يألفوها، أما قلة حصولهم على الماء فقد زاد وضعهم صعوبة وعسراً، ففي كل يوم كانت تهلك عطشاً أعداد كبيرة من الدواب والماشية والأغنام التي جمعها الجيش، بالإضافة إلى ذلك لم تكن أعداد الجيش الصليبي المحاصر لبيت المقدس كبيرة ومخيفة كما صور ذلك بعض المؤرخين فهي لم تتجاوز ١٥٠٠ فارس و ٢٠ ألف من المشاة لقد كان بمقدور المسلمين في هذا الحال تحطيم القوات الصليبية لإنهاك الدولة القوية الصليبية الغازية لكن موقف الدولة الفاطمية بحكم أنها الدولة القوية كان فاتحاً لها أبواب النصر، وهذا ما أثار تعجب المؤرخ ابن تغري بردي فقال: «والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوت، حتى أنهم أكلوا الميتة وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة، فكسروا (أي الصليبيين) المسلمين وفرقوا جموعهم»[1].

ومما لاشك فيه أن الدولة الفاطمية كانت على علم بأهداف الصليبيين وخط سيرهم حتى قبل وصولهم إلى أراضي الدولة البيزنطية، فلقد بلغ الصليبيون أهدافهم وأمير جيوش الدولة الفاطمية خامل متردد حائر فرماه بعض المؤرخين بالخيانة، والبعض الآخر قال بأنه كان يعمل على معاونة الفرنج وفي تيسير فتوحاتهم، والدليل على أن الأفضل والدولة الفاطمية كانوا على علم بقدوم الصليبيين ما قاله

(١) رينسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٣٩٩/١، يوسف غوانمة: دراسات تاريخ الأردن وفلسطين ص ١٢٢، مصطفى الكناني: العلاقات بين الفاطميين وجنوة ١٢٤/١.

المؤرخ المعاصر ابن الأثير: «أن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، ودخول الأقسيس إلى مصر وحصرها، فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه»[1].

في هذا الوقت الحرج، وعدم وجود قائد مسلم يجمع كلمة المسلمين حوله، تطلعت الأبصار إلى مصر باعتبارها أقوى دولة إسلامية آنذاك ولديها القدرة والكفاءة ما يرد المعتدين لو أخلصت النية، ولقد ذكر الدكتور يوسف غوانمة عن المؤرخ وليم الصوري ما عبر عن ذلك فقال: «فإن خليفة مصر كان أكثر المسلمين قوة بسبب ثروته الكبيرة وقواته العسكرية»[2]. ولكن موقف الدولة الفاطمية خيب الظن وأفقد الأمل فالخليفة الفاطمي الآمر كان كما قال ابن تغري بردي: «متناهي في العظمة، متقاعد عن الجهاد، متهاون في أمر الغزو -ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه»[3].

وهكذا يتبين لنا أن موقف الدولة الفاطمية المتحالف مع الصليبيين كان يهدف إلى ضرب السلاجقة السنيين في الشام والقضاء عليهم، وعدم تمكينهم من الوحدة وجمع صفوفهم لمواجهة الصليبيين، وهذا ما دل عليه قول وليم الصوري الذي نقله الدكتور يوسف غوانمة فقال: «إن محاصرة الصليبيين لأنطاكية أثلجت صدر الأفضل، واعتبر أن خسارة الأتراك السلاجقة (السنيين) لأي جزء من أملاكهم إنما

(١) ابن الأثير: الكامل ٢٧٣/١٠، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٢٤/٥، انظر مصطفى الكناني: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي ٩٦/٢.

(٢) يوسف غوانمة: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين ص ١٢٣.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٧٨/٥، ١٧٩.

هو نصر له نفسه»[1].

ولكن الحقيقة لم تلبث أن تكشف، فالصليبيون أخذوا بنشوة النصر على المسلمين في أنطاكية، وأخذوا يتنصلون من الاتفاق الذي حصل بينهم وبين الأفضل، وبدأوا يزحفون صوب هدفهم الأساسي بيت المقدس، فأخذت جموعهم تزحف نحو الجنوب فاستولوا على المعرة[2]، ثم رحلوا عنها إلى جبل لبنان وقتلوا من به[3]، وأخذوا يستولون على المدن والقرى التي في طريقهم حتى وصلوا إلى طرابلس الشام، وضربوا عليها الحصار، وبدلاً من أن يخرج الأفضل بالجيوش لمحاربة الصليبيين وتوقيف زحفهم جنوباً أرسل إليهم سفارة أخرى وهم يحاصرون طرابلس هنأهم فيها على ما فعلوه، وطلب منهم التشديد على الأتراك السلاجقة السنيين والخلافة العباسية في بغداد، واحتلال المزيد من أملاكهم، والحد من العجرفة المفرطة للأتراك ولكي يثبت لهم حسن نواياه واستعداده للتعاون معهم، وكمكافأة لهم على ما فعلوه، أرسل مع السفارة الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين، وذكر لهم أنه سوف يمنحهم امتيازاً خاصاً وذلك بالسماح لمجموعات من الحجاج غير المسلحين بزيارة القدس، تكون كل مجموعة بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ حاج، وتعهد بأن يعيدهم سالمين بعد أداء مراسم الحج. فاعتبر الصليبيون هذه الرسالة، وهذا العرض إهانة لهم، فأجبروا أعضاء السفارة المصريين على العودة

---

(١) يوسف غوانمة: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين ص ١٢٤، وانظر أيضاً مصطفى الكناني: العلاقات بين جنوة والفاطميين ١/١٢٦ حاشية رقم ١. فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص ١١٠.

(٢) المعرة: مدينة كبيرة مشهورة وهي معرة النعمان من أعمال حمص بين حلب وحماه. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/١٥٦.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٢٣، ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ص ٨٢.

ومعهم الجواب الذي جاء فيه: «أن الجيش لن يقبل الذهاب هناك في فصائل صغيرة طبقاً للحالات المقترحة وعلى النقيض من ذلك فإنه سيزحف إلى القدس كجيش واحد متحد، وإنهم سيتمكنون من الحج فعلاً، ولكن بإذن الله... وليس بإذن الخليفة الفاطمي»[1].

لم يتمهل الصليبيون، فبعد سقوط طرابلس واصلوا زحفهم جنوباً واشتد حماسهم لاحتلال مدينة الرملة التي تقع في جوف الأراضي المقدسة لاتخاذها مركزاً للانطلاق منه لحصار مدينة بيت المقدس، فنزلوا عليها وملكوها[2]. ومنها وفي شهر رجب من عام ٤٩٢هـ تحركت جموع الصليبيين باتجاه بيت المقدس ضاربة الحصار عليه تمهيداً لاحتلاله.

تمكن الصليبيون من بعد حصار دام أربعين يوماً من احتلال بيت المقدس في شهر شعبان من عام ٤٩٢هـ، ولبثوا اسبوعا يقتلون المسلمين وأحرقوا ما كان ببيت المقدس من مصاحف وكتب، وقتل الصليبيون بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفٍ من المسلمين، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم[3]. وعندما أراد القائد الصليبي ريموند زيارة ساحة المعبد، لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة، فأخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه[4].

---

(١) يوسف غوانمة: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين ص ١٢٥، سعيد عاشور شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية ص٢٢-٢٣.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٢، رينسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/٣٩٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/٢٨٣-٢٨٤، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٢٢.

(٤) رينسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/٤٠٤.

في هذا الوقت، وبعد أن كشف الصليبيون عن حقدهم تجاه المسلمين وهدفهم، لم يتخذ الأفضل أي إجراء حاسم لردع الصليبيين وتوقيفهم عند حدهم. وبدلاً من أن يتحرك الأفضل بجيشه مسرعاً لإنقاذ بيت المقدس كانت قواته تتثاءب متباطئة في سيرها فوصلت إلى عسقلان في منتصف شهر رمضان أي بعد سقوط بيت المقدس بعشرين يوماً وقد فات الأمر[١]. ومن عسقلان أرسل الأفضل إلى الصليبيين في بيت المقدس يوبخهم ويتهددهم وينكر عليهم ما فعلوه[٢]، ومن نقضهم للمعاهدة التي تمت بينه وبينهم، وأعاد الصليبيون الرسول بالجواب، وركبوا في أثره، وعقيب وصول الرسول باغتت القوات الصليبية الأفضل وجيشه في الموضع المعروف بالبصة فهزمتهم وقتلت منهم عدداً كبيراً[٣]. وغنمت ما في معسكرهم من مال وسلاح، واحتمى البعض من الجند المهزومين بشجر الجميز وكان هناك كثيراً، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه، وقتلوا من خرج منه[٤]. ثم انهزم الأفضل وشتات جيشه إلى عسقلان وتحصن بها، وحاصره الصليبيون فيها، ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحام المدينة، فعادوا إلى بيت المقدس، وبقيت عسقلان تحت سيطرة الدولة الفاطمية إلى عام ٥٤٨هـ، وهذا دليل على أن الدولة الفاطمية كانت قوية وإلا لما استطاعت أن تصمد هذه الفترة الطويلة في عسقلان، ولكن للأسف لم توجه هذه القوة ضد الصليبيين.

بعد موقعة عسقلان وانهزام الأفضل وجيشه أمام الصليبيين. زال خوف

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٣.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢٤/٣، ابن الأثير: الكامل ٢٨٦/١٠.

(٣) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ص ٨٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٢٨٦/١٠، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢٤/٣، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٣.

الصليبيين من الأفضل وقواته، فقويت عزيمتهم على انتزاع المدن الفلسطينية والشامية والسيطرة عليها، فضعفت عزيمة أهل الشام واقتنعوا بأن لا فائدة ترجى من الفاطميين، فعندما حاصر الصليبيون أرسوف وضيقوا عليها الحصار أرسل أهل أرسوف إلى الأفضل يطلبون النجدة، فأرسل الأفضل حملة صغيرة لا يتجاوز عدد أفرادها الثلاثمائة رجل، في حين وصلت الصليبيين نجدات بحرية كثيرة، فلم يقو أفراد تلك الحملة على الصمود أو المقاومة مما اضطر أهالي أرسوف إلى الاستسلام للصليبيين وتسليم المدينة إليهم بالأمان فأخذوها وأخرجوا أهلها منها[1].

ثم مالبث أن استولى الصليبيون في عام ٤٩٣هـ على حيفا على ساحل البحر المتوسط بالسيف، وواصلوا بسط سلطانهم على المدن الفلسطينية فاستولوا في العام التالي على قيسارية بالسيف، وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها[2].

وعند منتصف عام ٤٩٣هـ رجع عدد كبير من أمراء الحملة الصليبية الأولى إلى بلادهم، ولم يبق في الساحل الشامي، سوى عدد محدود من الجنود بلغوا ثلاثمائة فارس، وألفين من المشاة. ومع ذلك لم يقم المسلمون بأي عمل عسكري ولو بسيط، ولقد كان بإمكان الأفضل وزير الدولة الفاطمية والتي كانت أقوى دولة في العالم الإسلامي، انتزاع ما استولى عليه الصليبيون من قرى ومدن، أو على الأقل إحراجهم وضعضعة مركزهم في فلسطين ولكنه لم يفعل[3].

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٥، خاشع المعاضيدي: الحياة السياسية في بلاد الشام ص ١٣٢،سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص ٢٥-٢٦، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص ١١٨.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٥، ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ص ٨٣.

(٣) يوسف غوانمة: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين ص ١٢٦-١٢٧.

لقد كان موقف الأفضل باهتاً حائراً، وحملاته التي أرسلها لنجدة بلاد الشام لم تجد شيئاً، حتى أن ابن تغري بردي قال: ليته لم يرسلها[1] فرغم عدة محاولات قامت بها قواته، إلا أنها لم تؤثر في الموقف في بلاد الشام، فالقوات التي أرسلها الأفضل لقتال الفرنج كانت ضعيفة هزيلة.

في هذا الوقت لم يتخل بلدوين الأول ملك بيت المقدس عن فكرة الاستيلاء على بقية المدن الساحلية التي ما زالت بأيدي الفاطميين، فاستولى على عكا عنوة في رمضان عام ٤٩٧هـ، ثم استطاع وبمساعدة صنجيل صاحب أنطاكية من تشديد الحصار على طرابلس، فملكوها بالسيف بعد حصار دام سبعة أعوام وذلك في عام ٥٠٢هـ، فنهبوا ما فيها، وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها[2].

ونتيجة لهذا الموقف الضعيف من قبل الدولة الفاطمية سقطت بقية المدن الساحلية بيد الصليبيين، فسقطت بيروت عام ٥٢٣هـ، فنهبوا ما فيها وأسروا الرجال، وسبوا النساء والأطفال، واستولوا على الأموال، وغنموا من أهلها من الأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما يعد ولايحصى[3]، أما صيدا فسلمت إلى الفرنج بالأمان في عام ٥٠٤هـ بعد أن عجز الأسطول المصري عن إنجادها[4].

ولم تلبث مدينة عسقلان هي الأخرى أن أوشكت على الدخول تحت سيطرة الصليبيين، وهي القاعدة الحربية والمعقل الرئيسي للفاطميين في فلسطين -وذلك أن

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٧٨.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٢، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٤٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٧٦.

(٤) نفس المصدر السابق ١٠/٤٧٩.

حاكم عسقلان من قبل الدولة الفاطمية –شمس الخلافة– راسل بلدوين الأول ملك بيت المقدس «وأهدى إليه مالاً وعروضاً» طالباً منه عقد اتفاقية دفاعية بين الطرفين، مع استعداده لدفع الجزية للصليبيين فوصلت هذه الأخبار إلى الخليفة الفاطمي الآمر ووزيره الأفضل، فانزعج لتلك الأخبار، لأن عسقلان بالذات كانت بالنسبة للدولة الفاطمية مفتاح فلسطين، وبالنسبة للصليبيين مفتاح مصر. لذلك أرسل الأفضل حملة عسكرية تحت غطاء محاربة الصليبيين، وأعطى تعليمات سرية لقائد الحملة بعزل شمس الخلافة، ويتولى هو حكم المدينة بدلاً منه[1]. لكن شمس الخلافة توجس خيفة من هذه الحملة، فرفض أن يفتح لها أبواب عسقلان كما رفض أن يخرج لمقابلة قائد الحملة، وأرسل إلى بلدوين يطلب منه أن يمده بالرجال ويعده بتسليم عسقلان وأن يعوضه عنها، فلما علم الأفضل بذلك خاف أن يسلم عسقلان إلى الفرنج، فأرسل إليه، وطيب قلبه، وسكنه، وأقره على عمله، وأعاد عليه اقطاعه بمصر[2].

ومع هذا لم يطمئن شمس الخلافة، وأخذ يتشكك فيمن حوله من العرب وأهل عسقلان، «فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جنداً»، فأساء بذلك إلى شعور أهل عسقلان، فثاروا عليه وقتلوه، ونهبوا داره وجميع ما فيها فلما علم الأفضل بذلك أرسل في الحال حامية قوية أعادت الأمور إلى نصابها في عسقلان[3].

أما مدينة صور فكانت مثل عسقلان، من المدن التي استعصت على بلدوين

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٨٠، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٨١، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٤٦-٤٧.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٨١، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٥.

الأول ملك بيت المقدس، لأنها اعتمدت دائماً على الخلافة الفاطمية وتتلقى منها الإمدادات، ولكن أهل صور لم يلبثوا أن أحسوا بحرج موقفهم أمام الغارات الصليبية المتكررة من ناحية، وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم في كثير من الحالات من ناحية أخرى، فلذلك اتجهوا نحو طغتكين أتابك دمشق السلجوقي طالبين حمايته بوصفه أكبر قوة إسلامية قريبة منهم، فما كان من طغتكين إلا أن استجاب إلى ماطلبوا، فأرسل إليهم عسكراً، وجعل عندهم والياً من قبله اسمه مسعود، وبعث معه المؤن والأموال فوزعها على أهل صور حتى طابت نفوس أهل البلد، ومع هذا لم تغير الخطبة في صور للآمر صاحب مصر، ولا السكة، وكتب طغتكين إلى الأفضل بمصر يعرفه صورة الحال ويقول: متى وصل إليها من مصر مَنْ يتولاها، ويذب عنها سلمتها إليه، فشكره الأفضل على ذلك، وأثنى عليه، وصوب رأيه فيما فعله[1]. وعندما طلب أهل صور من طغتكين السلجوقي الاشتراك في حكمهم وحمايتهم، ذهب إليهم وتسلم البلد، وقال لهم: «أنا ما فعلت ما فعلت إلا لله تعالى، لا رغبة في حصن ومال، ومتى دهمكم عدو جئتكم بنفسي ورجالي» كل ذلك حدث ولم تأت نجدة المصريين[2].

إن المتتبع لتاريخ الدولة الفاطمية في هذه المرحلة، يلمس فتوراً ملحوظاً في مواجهة الصليبيين ومقاتلتهم، فكان هناك اتجاه قوي في المعسكر الفاطمي يميل لمهادنة الصليبيين، وعدم الجد في محاولة طردهم من مواقعهم في جنوب بلاد الشام، وظهر هذا الاتجاه قوياً بين المتطرفين من شيعة البيت الفاطمي، وهم الذين رأوا في

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٢٠.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٨٢، سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص ٣٤،٣٥.

بقاء الصليبيين ضماناً لحماية أملاك الفاطميين من أطماع السلاجقة، وزادت من سلبية الدولة الفاطمية في هذه المرحلة أيضاً أن الوزير الأفضل أمير الجيوش أخذ يقترب من نهايته، فلقد اغتيل الأفضل في الثالث والعشرين من رمضان عام ٥١٥هـ، وقيل في سبب مقتله أنه سمح لطغتكين -أتابك دمشق السني- إرسال قوة للمشاركة في الدفاع عن صور، الأمر الذي أثار غلاة الشيعة في مصر، مما أدى إلى مقتل الوزير الأفضل بيد بعض الباطنية الذين كانوا يكرهون الأفضل لأسباب أخرى منها تضييقه على إمامهم (الخليفة الفاطمي) ومنها ترك معارضة أهل السنة في اعتقادهم والنهي عن معارضتهم[١].

لكن الخليفة الفاطمي الآمر لم يستطع أن يكشف عن سياسته تجاه الصليبيين بعد مقتل الوزير الأفضل مباشرة، حرصاً منه على مكانته في العالم الإسلامي، لذلك رأى أن يسترضي الرأي العام، فأنفذ حملة كبيرة من عسقلان لحصار يافا، وتمكنت هذه الحملة من إحكام الحصار على يافا من البر والبحر، ولكن وصول النجدات الصليبية إلى يافا جعل الفاطميين يفكرون في الانسحاب إلى يبنا[٢]، وفي يبنا دارت بين الفاطميين والصليبيين معركة انهزم الفاطميون فيها، فولوا الأدبار، واقتفى الصليبيون أثرهم يقتلون ويأسرون وينهبون ما تصل إليه أيديهم[٣].

بعد ذلك لم تلبث أن انكشفت سياسة الخليفة الآمر الفاطمي في مسالمة الصليبيين، فتخلص الفاطميون من القوات الدمشقية السنية التي كانت تشترك

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٥٨٩، ٥٩٠، سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص ٣٧، ٣٨.

(٢) يبنا: بليدة قرب الرملة (وهي على الطريق بين يافا وعسقلان) فيها قبر صحابي بعضهم يقول هو قبر أبي هريرة وبعضهم يقول قبر عبدالله بن أبي السرح. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/٤٢٨.

(٣) سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص ٣٨.

معهم في الدفاع عن صور، كما تخلصوا من مندوب طغتكين في تلك المدينة، حيث أرسل الفاطميون أسطولاً إلى صور، شحن بالرجالة وأسندت قيادته إلى وحشي بن طلائع، وصدرت تعليمات إلى مقدم الأسطول بالقبض على الوالي السلجوقي الأمير سيف الدين مسعود وتسلم البلد منه فلما رسى الأسطول الفاطمي عند صور، خرج الأمير مسعود للترحيب بقائد الأسطول، فألقى قائد الأسطول القبض عليه وأرسل إلى مصر مع الأسطول الفاطمي، ولقد انتقد المؤرخ ابن تغري بردي ذلك التصرف من قبل الدولة الفاطمية، واعتبره تعاوناً صريحاً مع الفرنج ضد المسلمين فقال: «وهذه زيادة في النكاية للمسلمين من صاحب مصر، فإن سيف الدولة المذكور (الأمير مسعود) كان قائماً بمصالح المسلمين، وفعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة، فأخذوه منها غصباً، وخلوا البلد مع من لا قبل له بمحاربة الفرنج، فكان حال المصريين في أول الأمر أنهم تقاعدوا عن نصرة المسلمين، والآن بأخذهم سيف الدولة من صور صاروا نجدة للفرنج»[1].

لما علم الصليبيون بما فعله الفاطميون من أخذهم للأمير سيف الدولة مسعود، وخلوا البلد من قائد قوي يستطيع أن يصد هجماتهم، قوي طمعهم فيها، فأخذوا يستعدون للنزول عليها ومحاصرتها، فلما علم الوالي الفاطمي الجديد بذلك وأيقن أنه لا قوة له بدفع الصليبيين عنها، لقلة ما عنده من الجند والميرة، أرسل إلى الخليفة الفاطمي الآمر يخبره بحقيقة الأوضاع في صور، وأشار عليه أن ترد ولاية هذه المدينة لطغتكين أتابك دمشق، فوافق الخليفة الفاطمي على ذلك، وتسلم طغتكين صور،

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة د/١٨٢.

ورتب بها العدد اللازم من الجند والسلاح[1].

أما الصليبيون فإنهم واصلوا السير إلى صور، وضيقوا عليها الحصار، فقلت الأقوات، وسئم أهلها القتال، وضعفت نفوسهم، وأرسل طغتكين إلى الفاطميين بمصر يستنجدهم فلم يستجيبوا له، فأدى ذلك إلى ازدياد الحالة سوءاً في صور، مما حمل واليها على أن يكتب إلى طغتكين أتابك دمشق، يعرض عليه أن يسلم صور للصليبيين، على أن يسمحوا لمن بها من الجند والرعية الخروج منها، وحمل ما يستطيعون حمله من أموالهم فاستقر الحال على ذلك، وفتحت صور أبوابها واستولى عليها الصليبيون سنة ٥١٨هـ، بعد أن تأخر الفاطميون عن نجدتها، وعجز طغتكين وحده عن صد الصليبيين عنها، وانتهى الأمر بأهلها إلى تفرقهم في البلاد، ولم يتعرض الصليبيون لأحد منهم عند خروجهم[2].

قال الدكتور سعيد عاشور: وارتفع من مصر صوت خافت يتهم الخليفة الآمر الفاطمي بأنه فرط في صور، ويطالب الخلافة الفاطمية باتخاذ سياسة إيجابية في الجهاد ضد الصليبيين بالشام، وزاد من الانقسام الداخلي في الدولة الفاطمية أن الخليفة الآمر الفاطمي قبض على وزيره ابن البطائحي عام ٥١٩هـ ثم صلبه، ولم يتخذ الخليفة الآمر بعد ابن البطائحي «وزير سيف بل استبد بأموره وباشرها بنفسه»[3]، واستعان بالمشيرين من غير المسلمين، فولاهم مناصب الدولة، وظهر منهم بهرام الأرمني الذي «صادر عامة من بالديار المصرية، من كاتب وحاكم وجندي وعامل

(١) ابن الأثير: الكامل ٦٢١/١٠، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٦.

(٢) نفس المصادر السابقة.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر ٧٣/٢.

وتاجر، وامتدت يده إلى الناس على اختلاف طبقاتهم»[1]. وكان من الطبيعي أن يجنح مستشارو الدولة الفاطمية من المسيحيين إلى مسالمة الصليبيين بالشام. وزاد هذا الاتجاه قوة بعد اغتيال الخليفة الآمر في خريف عام ٥٢٤هـ وقيام ابن عمه الحافظ محله في الخلافة لأن الحافظ هذا كان من أشد المتحمسين لمسالمة الصليبيين، وقيل بأنه أشار بقتل الوزير الأفضل[2].

ظلت الدولة الفاطمية على هذا الحال، لا تستجيب لأي نداء ينادي بضرورة الوحدة الإسلامية، والجهاد ضد الصليبيين، وكانت تقف عقبة في طريق ذلك، وكان الخلفاء الفاطميون يتخلصون من الوزراء الذين ينادون بفكرة الجهاد على وجه السرعة، وهذا ما حدث مع الوزير رضوان بن الوخشي الذي كان من أشد المتحمسين لحركة الجهاد ضد الصليبيين، فما إن تولى الوزارة حتى أنشأ ديواناً جديداً أطلق عليه اسم «ديوان الجهاد» وفي الوقت نفسه أخذ يطارد الأرمن ويقصيهم عن مناصب الدولة، حتى بلغ به الأمر حد التنديد بالخليفة الحافظ الفاطمي، وسياسة الاستكانة التي اتبعها تجاه الصليبيين بالشام. وعندما علم رضوان بن الوخشي أن الخليفة الحافظ يعمل سراً لتمكين الأرمن من استعادة نفوذهم في الدولة، فضلاً عن جهود الخليفة في استثارة عداء بعض طوائف الجيش الفاطمي ضد الوزير، الأمر الذي يؤثر تأثيراً خطيراً على حركة الجهاد التي عزم رضوان بن الوخشي المضي فيها. فرّ ابن الوخشي نحو الشمال لاجئاً إلى بطل من أبطال الجهاد الإسلامي وعلم من أعلام الوحدة الإسلامية هو عماد الدين زنكي ليستعين به في

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٣٦٩/١٣.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٤، سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص ٤٠.

تنفيذ مشروعاته وخططه في الجهاد ضد الصليبيين[1].

ظل الوضع على هذا الحال في الدولة الفاطمية، فازدادت ضعفاً على ضعف، وتسلط الوزراء على الخلفاء وأصبحوا هم المتصرفون في شئون الدولة، ولم يكن الخلفاء معهم إلا صورة بلا اسم، وتصارع القُوَّاد والولاة على مركز الوزارة إلى أن استطاع شاور السعدي الذي كان والياً على الصعيد في عهد الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي من الاستيلاء على الوزارة بعد أن تخلص من الوزير العادل بن طلائع بن رزيك في المحرم من عام ٥٥٨هـ، ولكن مالبث أن ثار أحد قواد الجيش وهو أبوالأشبال ضرغام على شاور فقهره واستولى على الوزارة منه، وقتل ولده الأكبر طي بن شاور، فما كان من شاور إلا أن توجه إلى الشام مستغيثاً بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ومستجيراً به[2].

أطمع شاور الملك نور الدين محمود في مصر، وطلب منه أن يرسل معه العساكر إلى مصر ليستعين بها في استعادة نفوذه بها. وقال له: «أكون نائبك بها وأقنع بما تعين لي من الضياع والباقي لك»[3]. ووعد كذلك بأن يعطيه ثلث خراج مصر إذا عاونه في التغلب على ضرغام وانتزاع الوزارة منه، «وأن يتصرف على أمره ونهيه واختياره»[4].

تردد نور الدين محمود بادئ الأمر في إرسال حملة عسكرية مع شاور، خوفاً من

---

(١) سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص ٤١.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٤٥/٧، ابن الأثير: الكامل ٢٩٨/١١، ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٣٦.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٤٦/٥.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص١٢٠، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ١٣٨/١.

أن يتورط في هذا المشروع وهو لا يزال أمام أعداء أقوياء في الشام، ولم يستطع بعد توحيد الجبهة الإسلامية في شمال بلاد الشام ولكنه استخار الله تعالى، واستقام إليه الأمر بإرسال حملة عسكرية إلى مصر، فاستدعى أكبر قواده أسد الدين شيركوه... من إقطاعه في الرحبة[1]. وأمره بأن يجهز حملة عسكرية إلى مصر، وأرسل معه ابن أخيه صلاح الدين وهو كاره لذلك، وأمر نور الدين بإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نزعه في الوزارة[2].

سار الجميع، وسار معهم نور الدين محمود إلى أطراف الشام، حتى يشغل الفرنج بعدم التعرض لأسد الدين شيركوه وجيشه، ووصل أسد الدين شيركوه إلى مصر سالماً هو ومن معه، فأرسل ضرغام إلى الصليبيين مستنجداً وتعهد إلى القائد الصليبي عمورى مقابل مساعدته له أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين[3]. لكن أسد الدين شيركوه لم يدع فرصة لضرغام في مراسلة الصليبيين، فوصل لمصر قبل أن تأتي جيوش الصليبيين لنجدة ضرغام، فالتقى أسد الدين بجيشه مع جيش أرسله ضرغام بقيادة أخيه ناصر الدين، وفي منطقة تعرف باسم تل بسطة في الدلتا، دارت بين الفريقين معركة انهزم فيها ناصر الدين وعاد إلى القاهرة مهزوماً[4]. وواصل أسد الدين شيركوه زحفه باتجاه القاهرة حتى وصلها في أواخر جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ ضارباً الحصار عليها، فما كان من الخليفة والجيش وعامة الناس إلا أن تخلوا عن ضرغام فقتل أثناء محاولته الفرار عند مشهد السيدة نفيسة،

---

(١) أبوشامة: الروضتين ١٦٦/١، والرحبة: قرية من قرى دمشق. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣٣/٣.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٢١، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٤٥/٧.

(٣) سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص ٥٠.

(٤) أبوشامة: الروضتين ١٦٦/١، ابن واصل: مفرج الكروب ١٣٩/١.

فاستولى شاور على الأمور، وخلع عليه خلع الوزارة في مستهل رجب ٥٥٩هـ وأعيد إلى الوزارة وتمكن منها، وحصل له مقصوده[١].

عندما تمكن شاور من الوزارة أساء معاملة الناس، ونسي وعوده المعسولة لنور الدين محمود وظهرت منه أمارات القدر بأسد الدين شيركون، فأرسل إليه يطلب منه الرجوع إلى الشام، ولكن شيركوه رفض ذلك وطلب منه أن يرسل ما كان قد استقر بينه وبين نور الدين، فلم يجبه شاور إلى ذلك، ولما علم أسد الدين شيركوه إصرار شاور على الغدر أرسل نوابه إلى مدينة بلبيس[٢] فتسلموها وتحصن بها[٣].

عندما رفض أسد الدين شيركوه طلب شاور بالعودة إلى الشام، أرسل شاور إلى مري (عموري الأول) ملك بيت المقدس الصليبي يستنجده على شيركوه، ويخوفه من نور الدين محمود إن هو ملك الديار المصرية فقال له: ((إن شيركوه طلع معي نجدة على ضرغام، فلما حصلوا في البلاد طمعوا فيها، ومتى ملكوها مضافة إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولا قرار))[٤].

طمع الفرنج في ملك مصر، خاصة بعد أن بذل لهم شاور مالاً كثيراً يحمله إليهم إن هم ساعدوه في إخراج أسد الدين من مصر، فسارعوا إلى تلبية طلب شاور، فتوجهوا بجيوشهم إلى مصر، ولما اقتربوا من مصر انسحب أسد الدين شيركوه إلى

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢٩٩/١١، ابن واصل: مفرج الكروب ١٣٩/١، ابن خلكان وفيات الأعيان ١٤٦/٧-١٤٧.

(٢) بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤٧٨/١.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ١٣٩/١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٤٧/٥، ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٢١، زكي النقاش: العلاقات بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية ص ٤٤،٤٥.

(٤) أبو شامة: الروضتين ١٦٦/١، ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٢١.

بلبيس وتحصن بها هو وعساكره، أما شاور فخرج بعساكره واجتمع بالفرنج وتوجهوا إلى بلبيس وحاصروا أسد الدين فيها، واستمر حصارهم له ثلاثة شهور، فحماها أسد الدين ولم ينالوا منها نصيباً[1]. وبينما هم على هذا الحال يجدون في حصار بلبيس، أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم، وتملك نور الدين لها، ومسيره بعد ذلك إلى بانياس لأخذها، فأسقط في أيديهم، وخافوا على البلاد، فراسلوا أسد الدين في الصلح وتسليم ما أخذه واستولى عليه من البلاد إلى المصريين فأجابهم إلى ذلك لأن الأقوات قلّت عليه، وعلم عجزه عن مقاومة الفريقين فصالحهم وخرج من بلبيس في ذي الحجة من عام ٥٥٩هـ وهو في غاية القهر[2].

كان لهذه السياسة التي اتبعها شاور أثر كبير في توجيه أنظار كل من نورالدين محمود صاحب دمشق والفرنجة ببيت المقدس إلى غزو مصر مرة ثانية، وأثبتت لهم التجربة العملية في أرض مصر عن مدى ثروة البلاد وضعفها الشديد، حتى بدا لهم أن الاستيلاء عليها يمثل الهناء دون عناء، ولكن الملاحظ أن الطمع في ثروة مصر، والخوف من أن يستفيد منها الصليبيون حربياً ومادياً، ولم تكن الدوافع الوحيدة لاهتمام نور الدين في ذلك الدور بأمر مصر، وإنما كان هناك -بالإضافة إلى ما سبق- دافع آخر مذهبي له أهميته في توحيد الجبهة الإسلامية. ذلك أن الخلافة الفاطمية بوضعها في مصر، كانت مصدراً من مصادر الفرقة في العالم الإسلامي، لأن قيامها في القاهرة كان كفيلاً ببقاء المذهب الشيعي حياً -على الأقل في مصر- في

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٤٠.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٢١-١٢٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٣٤٨، ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ص ١١٥، زكي النقاش: العلاقات بين العرب والفرنج ص ٤٥.

حين ساد المذهب السني بلاد الشام وغالبية العراق[1].

وفي عام ٥٦٢هـ أعد نور الدين محمود حملة عسكرية ثانية بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين لإنفاذها إلى مصر ليملكها وكان سبب ذلك أن العاضد الخليفة الفاطمي لما رأى استبداد شاور وغلبته عليه، كتب إلى نور الدين يستنجده على شاور، ويخبره بأن شاور ((قد استبد بالأمر وظلم وسفك الدم))، وسبب آخر: ((كان في قلب نور الدين من شاور حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنج))[2].

خرجت الحملة من دمشق في منتصف شهر ربيع الأول من عام ٥٦٢هـ، وسار أسد الدين إلى أن بلغ الديار المصرية، ووضع في حسابه أن شاور سوف يستنجد بالفرنج، فوجد أن من الحكمة عدم مهاجمة القاهرة، فعبر النيل إلى الجانب الغربي من عند اطفيح[3] ونزل بجنده في بر الجيزة[4].

رأى شاور أن يستنجد بالفرنج مرة ثانية، فأرسل إليهم يستغيثهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب والذلول، خوفاً من أن يستولي جيش نور الدين محمود على مصر ويضمها إلى بلاد الشام، فيصبح مركزهم في بيت المقدس والساحل مهدداً بالأخطار. فخرج الصليبيون إلى مصر و ((الرجاء يقودهم والخوف

---

(١) سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص ٥٢، محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٤٨/٥.

(٣) اطفيح: بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطىء النيل من الناحية الشرقية. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢١٨/١.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ١٤٩/١، أبوشامة: الروضتين ١٦٨/١.

يسوقهم»[1]. فلما وصلوا إلى مصر خف شاور للقاء حلفائه، فانضمت عساكر الصليبيين إلى جيوش شاور والمصريين.

في هذه الأثناء توجه أسد الدين شيركوه بعساكره إلى الصعيد في الجنوب ونزل بهم في مكان يعرف باسم البابين[2]، فتبعته العساكر الصليبية والفاطمية، والتقى الفريقان في منطقة البابين ودارت بينهما معركة حاسمة انتهت بهزيمة الصليبيين والفاطميين أمام جنود شيركوه، فوضع السيف فيهم فأثخن الجراح وأكثر القتل والأسر وانهزم الباقون. «فكان هذا من أعجب ما يؤرخ، أن ألفي فارس (عدد أفراد جيش شيركوه) تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل». ولو ساق أسد الدين شيركوه خلفهم في الحال لملك القاهرة[3]..

بعد انتهاء المعركة توجه أسد الدين شيركوه بقواته إلى الإسكندرية فتلقاه أهلها طائعين، وسلموها إليه، لميلهم إلى مذهب أهل السنة وكراهيتهم لرأي المصريين – على حد تعبير ابن واصل– وخشي أسد الدين شيركوه أن يحضره الصليبيون ومعه جميع قواته داخل الإسكندرية، فولى عليها ابن أخيه صلاح الدين وجعله نائباً عنه فيها، واتجه هو على رأس الجزء الأكبر من قواته عائداً إلى الصعيد فاستولى عليه وجبى أمواله[4].

أما قوات الفرنج والمصريين فإنهم عادوا إلى القاهرة فرتبوا أمرهم، وأصلحوا

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٣٢.

(٢) البابين: قرية كانت تقع جنوب مدينة المنيا. انظر ابن واصل مفرج الكروب ١/١٥٠ حاشية رقم (١).

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٥٠-١٥١، ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٣٢-١٣٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٣٤٩، جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر ص ١٢٨.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٣٣، أبوشامة: الروضتين ١/١٦٨، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٥٢.

عساكرهم، ثم ساروا إلى الإسكندرية فحاصروها براً بينما كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحراً، ولم يكن لدى صلاح الدين من الجند ما يمكنه من رفع الحصار، فقاتل أهل الإسكندرية مع صلاح الدين وأخذوا يقوونه بالمال، ولكن الحصار طال واشتد عليهم، فقل الطعام بها، فصبر أهلها على ذلك، فلما علم أسد الدين شيركوه باشتداد الأمر على أهل الإسكندرية، سار من الصعيد إليهم لنجدتهم، فما علم القوم به حتى خافوا وأرسلوا يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد وكل ما خسره في هذه السفرة، فأجابهم إلى ذلك، وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة، وأن الإسكندرية تعاد للمصريين، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا، فتسلم المصريون الإسكندرية في منتصف شوال وعاد أسد الدين شيركوه إلى دمشق[1].

أما الصليبيون فإن قواتهم لم تغادر مصر تطبيقاً لهذا الصلح، بل عقدوا مع شاور معاهدة من أهم شروطها أن يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم حتى يمتنع الملك العادل نور الدين من إرسال عسكر إليهم، ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار ومن سكن منهم بالقاهرة يبقى على حاله ويعود بعض ملوكهم إلى الساحل فأجابهم شاور إلى ذلك[2].

يقول الدكتور سعيد عاشور: أن شاور أخذ يتخوف من المساعدة الصليبية التي تحولت إلى حماية، بل إلى نوع من الوصاية على الدولة الفاطمية. فوجود مندوب أو

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص١٣٣، أبوشامة: الروضتين ١٦٩/١، ابن واصل: مفرج الكروب ١٥٢/١، جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر ص ١٢٨.

(٢) ابن الأثير:" التاريخ الباهر ص ١٣٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٤٩/٥.

شحنة عن ملك بيت المقدس الصليبي في القاهرة يشاركه في شئون الحكم، ووجود حامية من الصليبيين تحرس أبواب القاهرة،كل ذلك أزعج الفكر الإسلامي[1]، في الوقت الذي كان الشعور الديني في العالم الإسلامي معبأ ضد الصليبيين، والدعوة إلى الجهاد يتردد صداها في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، إذا بالمسئولين في الدولة الفاطمية يستعينون بالصليبيين ويطلبون حمايتهم ضد قوة إسلامية شقيقة مجاورة. وقد ذكر ابن الأثير أن أولئك الصليبيين الذين استعان بهم شاور أساءوا معاملة أهل البلاد «فحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم الأذى»[2]. هذا إلى أن الأتاوة السنوية التي فرضها عموري على شاور -وهي مائة ألف دينار- أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية في الوقت الذي ضعفت تلك الدولة ونضبت مواردها. وهكذا لم يجد شاور مفراً أمام ضغط الرأي العام وشعوره بالاستياء -من أن يقلب سياسته رأساً على عقب، فاتصل بنور الدين محمود طالباً مساعدته في التخلص من الحماية الصليبية[3]. ويذكر أبوشامة أن شاور أرسل ابنه الكامل شجاع إلى نور الدين محمود «ينهي محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته» مما ترتب عليه عقد اتفاقية بين الطرفين. كذلك حاول شاور تأكيد هذه الرابطة الجديدة عن طريق المصاهرة فعرض أن يتزوج ابنه الكامل شجاع أخت صلاح الدين أو يتزوج صلاح الدين ابنة شاور[4].

لم يهدأ بال الصليبيين، ووجدوا في مصر لقمة سائغة، فبعث رجال الحامية

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٣٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١١/٣٣٥.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٦٧-٦٨.

(٤) أبوشامة: الروضتين ١/١٧٠، سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص ٥٦-٥٧.

الصليبية في مصر إلى ملكهم ببيت المقدس عموري «يستدعونه ليملكها، وأعلموه بخلوها من الموانع، وهونوا أمرها عليه»[1]. ولكنه لم يجبهم إلى طلبهم، وبعد مشاورات بين زعماء الصليبيين في أمر غزو مصر استقر رأي جماعة من الصليبيين بأن يغزوا مصر ويأخذوها وقالوا: «إن مصر لا مانع لها ولا حافظ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة»[2].

أجاب عموري طلب الصليبيين بغزو مصر على كره شديد، فجهز عساكره وأظهر بأنه يريد قصد مدينة حمص، فلما سمع نور الدين بذلك شرع في جمع عساكره، وأمرهم بالقدوم عليه، وجد الفرنج في السير إلى مصر فوصلوا إلى مدينة بلبيس، فنازلوها، وحاصروها، وملكوها قهراً، فنهبوها وسلبوا أهلها وذلك في مستهل شهر صفر عام ٥٦٤هـ[3]. ثم واصل عموري وجيشه الزحف نحو القاهرة، فنزلوا عليها في العاشر من شهر صفر وضربوا عليها الحصار، فخاف الناس أن يفعلوا بهم كما فعلوا بأهل بلبيس، فاستماتوا في الدفاع عن القاهرة، وبذلوا الجهد في الحفظ[4]. أما شاور فقد أحس في ذلك الوقت بحرج موقفه واستياء الناس منه، فأمر الناس بالانتقال إلى القاهرة وأحرق الفسطاط عن آخرها، وبقيت النار مشتعلة فيها خمسة وأربعين يوماً. لما اشتد الحصار على القاهرة، وعلم شاور أنه عاجز عن مقاومة الصليبيين، عمد إلى طريق الخداع والحيلة، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٥٦.
(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٣٧-١٣٨.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١١/٣٣٦، ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ص ١١٥.
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٥٧، ابن الأثير: الكامل ١١/٣٣٦.

مودته ومحبته القديمة، وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد، وأن المسلمين لا يوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلد إلى نور الدين، فأجابه على الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر الباقي، واستقرت القاعدة على ذلك[1].

في هذا الوقت أرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن مقاومة الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال: «هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج» ووعد بثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً عندهم في عسكر وإقطاعهم من البلاد المصرية أيضاً خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين[2].

بعث نور الدين محمود على الفور إلى قائده أسد الدين شيركوه وأمره بتجهيز العساكر إلى مصر، والسرعة في ذلك، فاختار من العسكر ألفي فارس، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، وزودهم نور الدين بالمال والثياب والدواب والآلات والأسلحة[3]. وندب نور الدين محمود صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يمضي مع عمه إلى الديار المصرية.

انطلق أسد الدين شيركوه مجداً السير إلى الديار المصرية، فلما قارب مصر، رحل الصليبيون عنها عائدين إلى بلادهم بخفي حنين خائبين مما أملوه، فسب ملكهم

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٣٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١١/٣٣٧-٣٣٨، ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٥٨، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٥٥.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٣٩.

كل من أشار عليه بقصد مصر، وبلغ نور الدين محمود انهزام الصليبيين ورحيلهم عن مصر فسُرَّ بذلك، وأمر بضرب البشائر استبشاراً بهذا النصر في سائر البلاد[١].

أما أسد الدين شيركوه، فلقد فرح به أهل مصر واستقبل استقبال الأبطال الفاتحين هو وجنده وعند وصوله إلى القاهرة، استدعاه الخليفة الفاطمي العاضد إلى القصر، فاجتمع به وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور، وأخذ أرباب الدولة يترددون إلى خدمته في كل يوم[٢]. أما شاور فإنه لم يستطع إلا السكوت على مضض أمام ذلك، وأسرها لشيركوه في نفسه خاصة بعد أن ظهر تأييد الخليفة العاضد لشيركوه وميله له، فأرسل شاور مرة أخرى إلى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ويقول لهم: «يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر»[٣].

لم يكتف شاور بذلك بل حدثته نفسه بأكبر من ذلك بالتآمر على حياة أسد الدين شيركوه، فعزم على تدبير مؤامرة بدعوة أسد الدين شيركوه ومن معه من الأمراء إلى وليمة ويقبض عليهم ويقتلهم، فعارضه ابنه الكامل في ذلك وقال: «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين» فرد شاور على ابنه قائلاً: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا» فقال له ابنه: «لئن نقتل والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل والبلاد بيد الفرنج»[٤].

كان شاور قد تعهد لشيركوه بدفع ثلث أموال البلاد له، فلما أرسل شيركوه

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٦٠، ابوشامة: الروضتين ١/١٧١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٣٥١.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٤٠، ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٦١.

لشاور يطلب منه الوفاء بوعده أخذ يماطل ويتعلل منتظراً وصول الصليبيين لنجدته، فأدرك أعيان الدولة بمصر خطر سياسة شاور وسوء نيته، فاجتمعوا عند أسد الدين شيركوه وقالوا له: «شاور فساد العباد والبلاد، وقد كاتب الفرنج، وهو يكون (بذلك) سبب هلاك الإسلام»[1]، فطالبوا بقتله والتخلص منه.

وهكذا اتفقت الآراء واجتمعت على التخلص من شاور، وانتهى الأمر بقتله في السابع عشر من شهر ربيع الآخر عام ٥٦٤هـ، وقيل أن الخليفة العاضد شارك في تدبير مؤامرة قتل شاور، فحين قبض على شاور من قبل أعيان ورجال شيركوه، أرسل العاضد إلى شيركوه يطلب منه إنفاذ رأس شاور على الفور، فضرب رأسه وحمل إلى الخليفة في القصر، بعد ذلك دخل أسد الدين شيركوه القاهرة دخول الظافرين، وأباح للناس والأهالي نهب دار شاور[2].

وبقتل شاور وتولي أسد الدين شيركوه ومن بعده ابن أخيه صلاح الدين شئون الوزارة في مصر، تبدأ صفحة جديدة في تاريخ مصر وموقفها من الجهاد ضد الصليبيين. فبعد عامين ونصف من تولي الملك الناصر صلاح الدين للوزارة في مصر، قطع الخطبة للخليفة الفاطمي في ثاني جمعة من المحرم عام ٥٦٧هـ، وخطب للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وبذلك انقرضت الدولة الفاطمية، وعادت مصر مرة أخرى إلى المذهب السني تحت لواء الدولة العباسية، وأخذت تمارس دورها الطبيعي في أحداث المنطقة وبعودتها تم إحكام الطوق على الصليبيين في بلاد

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٣٥١.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٦٣، ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٤٠، ابن شداد: النوادر السلطانية ص٤٠، ابن الأثير: الكامل ١١/٣٤٠.

الشام، ووحدت الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، فكانت شوكة في حلق الصليبيين.

لم يكتف دعاة الفرقة والخيانة بهذا كله، بل استمروا في غرس الأسافين في قلب العالم الإسلامي، وسعوا جاهدين لتمزيق أي وحدة إسلامية تقوم لمواجهة الصليبيين، ومحاولة التخلص من صاحبها بأي ثمن ففي ذي القعدة من عام ٥٦٤هـ اتفق مؤتمن الخلافة –وهو خصي كان بقصر الخليفة العاضد، وكان الحكم في القصر إليه– مع جماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى البلاد والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه، فأرسلوا إلى الفرنج كتاباً بذلك مع إنسان يثقون به، وأخذوا ينتظرون الجواب. وكانت خطة مؤتمن الخلافة المقترحة في هذا الكتاب أن يتحرك الفرنج إلى الديار المصرية، فإذا وصلوا إليها خرج صلاح الدين في العساكر لقتالهم، فيثور هو ومن معه من المصريين في الداخل ويقتلون مخالفيهم من أنصار صلاح الدين، ثم يخرجون جميعاً في أثر صلاح الدين حتى يأتونه من الخلف، فيصبح محاصراً بين مؤتمن الخلافة وجنوده والصليبيين، فيقتلونهم ولا تبقى لهم باقية[1].

لكن شاءت الأقدار أن ينكشف حامل الرسالة، وأحضر إلى صلاح الدين فسأله عن كاتب الرسالة فقال: رجل يهودي، فأحضر اليهودي، وأمر بتقريره، فاعترف بذلك وأخبر صلاح الدين الخبر، فأرسل صلاح الدين على الفور جماعة من أصحابه إلى مؤتمن الخلافة حيث كان يتنزه في قرية له فأخذوه وقتلوه وأتوه برأسه، وعزل جميع الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة، ثم مالبث أن ثار جند السودان الذين بمصر غضباً على قتل مؤتمن الخلافة، لأنه كان يتعصب لهم، فجمعوا خمسين ألفاً من رجالهم، وساروا لحرب صلاح الدين، فدارت بينهم عدة معارك بين القصرين،

(١) ابن الأثير: الكامل ١١/٣٤٥-٣٤٦-٣٤٧، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٣١١-٣١٢-٣١٣.

وكثر القتل في الفريقين، وأرسل صلاح الدين إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة فأحرقها على أموالهم وأولادهم وحرمهم، فلما علموا بذلك ولوا منهزمين، فركبهم السيف وظل القتل فيهم مستمراً إلى أن قضى على آخرهم تورانشاه أخو صلاح الدين في منطقة الجيزة[1].

وبعد سقوط الدولة الفاطمية حاول أنصار هذه الدولة أن يتآمروا على صلاح الدين والفتك به، وإعادة الخلافة الفاطمية إلى مصر مرة ثانية فاتفق جماعة من شيعة العلويين، منهم عمارة اليمني الشاعر المعروف وعبدالصمد الكاتب، والقاضي العويرسى، وداعي الدعاة عبدالجبار بن إسماعيل بن عبدالقوي، وقاضي القضاة هبة الله بن كامل، ومعهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام إلى الديار المصرية على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد، فإذا قصدوا البلاد، وخرج إليهم صلاح الدين لمقاتلتهم ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة الفاطمية، وإن بقي صلاح الدين وأرسل العساكر لمواجهتهم ثاروا به، وأخذوه أخذاً باليد لعدم وجود مناصرين ومساعدين له، فرتبوا أمرهم على هذا وشكلوا فيما بينهم هيكل الدولة فعينوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقاضي[2].

أرسل هؤلاء المتآمرون إلى الفرنج بصقلية وساحل الشام في ذلك وتقررت القاعدة بينهم، ولم يبق إلا أن يغزو الصليبيون مصر، ولكن أبت المشيئة الإلهية إلا أن تفضح هؤلاء القوم من الباطنية، وكان من غبائهم أنهم أدخلوا معهم في المؤامرة

---

(١) نفس المصادر السابقة.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١١/٣٩٨-٣٩٩.

الأمير زين الدين علي بن نجا الواعظ فأخبر ابن نجا السلطان صلاح الدين بما تعاقد عليه القوم فكافأه السلطان على ذلك بأموال جزيلة، ثم استدعاهم واحداً واحداً، وقررهم فأقروا بذلك، فاعتقلهم ثم استفتى الفقهاء في أمرهم، فأفتوه بقتلهم فقتل رؤوسهم وأعيانهم، دون أتباعهم وغلمانهم، وأمر بنفي من بقي من جيش العبيديين إلى أقصى البلاد[1]. وسلم الله مصر مرة أخرى من أيدي الباطنية، وبقيت تحت لواء السنة لتأخذ دورها في الجهاد ضد الصليبيين.

(١) نفس المصدر السابق، ابن كثير: البداية والنهاية ٢٧٥/١٢، الذهبي دول الإسلام ٨٤/٢.

المبحث الثاني

مقاومة الفاطميين للصليبيين

بعد سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين في عام ٤٩٢هـ، وانكشاف الحقيقة التي جاؤا من أجلها، وعدم وقوفهم عند حد الاستيلاء على أنطاكية وغيره من المراكز الإسلامية في شمال الشام، وتوغلهم جنوباً في بلاد الشام صوب فلسطين والأماكن المقدسة واصطدامهم بمناطق النفوذ الفاطمي أدرك الأفضل أمير الجيوش بمصر حقيقة خطر الصليبيين، وأنهم سيهددون مصر وكافة مناطق النفوذ الفاطمي في جنوب الشام إذا لم يتخذ موقفاً حاسماً منهم، لذلك بدأ في إعداد الجيوش وإرسال الحملات العسكرية لمحاربة الصليبيين وتوقيفهم عند حدهم.

ففي عام ٤٩٦هـ أعد الأفضل أمير الجيوش حملة عسكرية كبيرة وأرسلها إلى فلسطين لمحاربة الصليبيين هناك وتهديدهم، وجعل على قيادة هذه الحملة أحد مماليك أبيه المعروف باسم سعد الدولة القواسي[1]، واتجهت هذه الحملة الفاطمية صوب فلسطين، وتجمع أفرادها في مدينة عسقلان قاعدة الفاطميين العسكرية التي انطلقت منها القوات الفاطمية لمحاربة الصليبيين في هذه المرحلة. لكن قيادة هذه الحملة لم تقم بأي عمل عسكري ضد الصليبيين فور وصولها، بل بقيت مرابطة في عسقلان عدة أشهر دون أن تفعل شيئاً، وربما كان ذلك التصرف لعدة أسباب كانت تراها قيادة الحملة منها: انتظار وصول إمدادات جديدة، أو استطلاع أخبار

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٦٤.

العدو واختيار الوقت المناسب لمباغتته، أو أنهم كانوا يخشون الدخول في معركة ضد الصليبيين، المهم أن هذا التسويف وتضييع الوقت أتاح الفرصة الكافية للصليبيين بقيادة زعيمهم بلدوين الأول ملك بيت المقدس من اتخاذ كافة التدابير والاستعدادات اللازمة لمواجهة قوات الفاطميين في عسقلان[1].

تحركت القوات الفاطمية من عسقلان بعد أن وصلتها الإمدادات المطلوبة واتجهت إلى منطقة الرملة حيث تستطيع منها تهديد كل من يافا وبيت المقدس. هنا أدرك بلدوين الأول ملك بيت المقدس خطورة هدف القوات الفاطمية، وعلم أن هدفها الوصول إلى بيت المقدس واسترجاعه من أيدي الصليبيين، فبادر إلى عقد مجلس حربي في يافا، وتقرّ فيه أن يبدأ الصليبيون بمهاجمة القوات الفاطمية فورا، وأخذ بلدوين يشجع أفراد قواته ويحرضهم على قتال المسلمين، وذكرهم بأنهم إذا ماتوا فإنما يلحقون بالشهداء والقديسين، وإذا انتصروا، فإنهم بذلك يؤدون للمسيحية خدمة ليس لها مثيل ولا يعادلها عمل آخر. فزحف الصليبيون وهم يحملون صليب الصلبوت بقيادة بلدوين الأول ورجال الدين المسيحي، والتقى الجيشان في السهل الواقع إلى الجنوب الغربي من مدينة الرملة «فحملت الفرنج حملة صادقة، فانهزم المسلمون»، فقتل من الجيش الفاطمي عدد كبير، وفر الباقون إلى مدينة عسقلان بعد أن قتل قائد الحملة سعد الدولة القواسي، واستمر الصليبيون يطاردون المسلمين حتى أسوار عسقلان، وغنم الفرنج في هذه المعركة جميع ما للمسلمين[2].

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١/٢٨٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٦٤، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٣٢، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٢٢٧، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١/٢٨٥-٢٨٦.

بعد هزيمة الفاطميين في موقعة الرملة، لم يستطع الوزير الأفضل الفاطمي صبرا على الهزيمة، فأسرع على الفور إلى إعداد حملة عسكرية كبيرة، بلغ تعدادها عشرين ألف رجل، وجعل قيادتها لابنه شرف المعالي سماء الملك حسينا[1]. وبعد تجهيز هذه الحملة اتجهت إلى عسقلان، ومن عسقلان سلكت نفس الطريق الذي سلكته الحملة السابقة، فاتجه الجيش الفاطمي إلى اللد والرملة حيث يستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس.

لما سمع الصليبيون بقدوم هذه الحملة، أخذوا استعداداتهم الكاملة فحشدوا في يافا بضعة آلاف من جنودهم، أما الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس فلقد أخذ أهبته، ويبدو أنه اغتر بانتصاره السابق واستخف بأمر الفاطميين، فخرج من بيت المقدس في عدد قليل من فرسانه بلغوا مائتي فارس اتجه بهم إلى الرملة، وعند يازور[2] بالقرب من الرملة باغتت القوات الفاطمية الملك بلدوين ورجاله فلم يستطيعوا الثبات أمام القوات الفاطمية «فانهزم الفرنج وقتل منهم مقتلة عظيمة، وعاد من سلم منهم مغلولين»، ولما رأى الملك بلدوين شدة الأمر خاف القتل والأسر فألقى بنفسه في الحشيش واختفى فيه، فلما ابتعد المسلمون خرج منه إلى الرملة[3].

واصلت القوات الفاطمية زحفها باتجاه الرملة وضربت عليها الحصار آخر النهار استعداداً لاقتحامها في الصباح، وفي منتصف الليل تنكر بلدوين وخرج منها

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٣٢.

(٢) يازور: بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين بالشام. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/٤٢٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٦٤، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٢٢٩.

متخفياً إلى يافا، واستطاع أن يفلت من مطاردة الفاطميين، الذين لاحقوه حتى بعد أن سمعوا خبر فراره[1]. أما شرف المعالي بن الأفضل فشرع في مهاجمة الرملة، فنزل على قصر بها كان قد بناه الفرنج وبه سبعمائة من أعيان الفرنج، فقاتلهم ابن الأفضل خمسة عشر يوماً، فقتل منهم أربعمائة صبراً، وأسر ثلاثمائة بعث بهم إلى القاهرة[2].

وبذلك سقطت الرملة بأيدي الفاطميين عام ٤٩٦هـ.

تابعت القوات الفاطمية زحفها بعد الرملة إلى يافا، وضربت عليها الحصار، في حين وصل بلدوين الأول إلى آرسوف فتقوى به الصليبيون فيها وبدأ في تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الفاطميين، وتمكن بلدوين من دخول مدينة يافا عن طريق البحر، ولحقت به كثير من الإمدادات الصليبية وشاءت الصدف أن تصل إلى ميناء يافا مائتا سفينة من الغرب تحمل عدداً كبيراً من الجند والحجاج الإنجليز، وتمكنت هذه السفن من اختراق حصار الأسطول الفاطمي والوصول إلى ميناء يافا، وبذلك حصل للصليبيين ما كانوا يرجونه، فارتفعت معنوياتهم، وقرروا الثأر لهزيمتهم في الرملة والانتقام من الفاطميين وإنزال الهزيمة بهم.

كان أصحاب شرف المعالي بعد انتصارهم في موقعة الرملة قد اختلفوا «فقال قوم: نقصد البيت المقدس ونتملكه، وقال قوم: نقصد يافا ونتملكها فبينما هم في هذا الاختلاف، إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة البيت

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٤٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٦٤، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٣٢، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١/٢٨٧-٢٨٨.

المقدس»[1].

خرج بلدوين على رأس قوته وهاجم القوات الفاطمية المحاصرة ليافا واستطاع فك الحصار المضروب على يافا، وانزل الهزيمة بالقوات الفاطمية المحاصرة التي ولت الأدبار نحو عسقلان[2].

لما علم الأفضل بهزيمة ابنه وما لحق به، أسرع إلى إرسال حملتين عسكريتين، إحداهما برية مكونة من أربعة آلاف فارس، وجعل على قيادتها أحد مماليكه المعروف باسم تاج العجم، والأخرى بحرية بقيادة رجل يقال له القاضي ابن قادوس، فنزل ابن قادوس بالأسطول على يافا، ونزل تاج العجم على عسقلان، ولكن عدم التعاون والتنسيق بين قائدي الحملتين جعل موقف القوات الفاطمية في حرج أمام الصليبيين، فابن قادوس استدعى إليه تاج العجم ليتفقا على حرب الفرنج، فرفض تاج العجم الحضور أو مساعدة ابن قادوس وقال: «ما يمكنني أن أنزل إليك إلا بأمرالأفضل ولم يحضر عنده، ولا أعانه فأرسل القادوس إلى قاضي عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوماً واستدعى تاج العجم فلم يأته ولا أرسل رجلا، فلما وقف الأفضل على الحال، أرسل من قبض على تاج العجم فلم يأته، ولا أرسل رجلا، فلما وقف الأفضل على الحال، أرسل من قبض على تاج العجم، وأرسل رجلا لقبه جمال الملك، فأسكنه عسقلان وجعله متقدم العساكرالشامية»[3].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٦٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٦٥، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٣٢، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١/٢٨٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٦٥، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٣٣.

في تلك الأثناء أرسل بلدوين الأول رسالة عاجلة إلى تنكرد الوصي على أنطاكية، وإلى بلدوين أمير الرها، يطلب منهما إمداده بنجدة سريعة ولم تلبث هذه النجدة التي بلغت خمسمائة من الفرسان وألف من المشاة أن وصلت إلى يافا وعلى رأسها أمير أنطاكية والرها. وكان من الممكن أن يصبح لتلك التجمعات الصليبية شأن كبير لو أن الفاطميين ثبتوا في القتال في معركة فاصلة ضد الصليبيين، ولكن الجيوش الفاطمية عقب هزيمتها أمام يافا، آثرت الانسحاب -وفي أعقابها الصليبيون- حتى عسقلان[1].

لم يستكن عزم الفاطميين عن مقاومة الصلبيين ومحاولة الانتقام منهم، وطردهم من الشام، فرغم انتصار قوات الوزير الفاطمي الأفضل على الصليبيين في موقعة الرملة الثانية، فإنه أعد جيشاً كبيراً بلغ خمسة آلاف جندي من المصريين والسودان، فضلاً عن الفرسان العرب، وجعل على قيادة هذا الجيش ابنه سناء الملك حسين، وأنفذه إلى عسقلان، وفي نفس الوقت أخذ الأسطول الفاطمي كامل استعداداته لمساندة الجيش من ناحية البحر، ولم يتردد الوزير الأفضل في طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السنيين، على الرغم من الخصومة المذهبية بينهم وبين الفاطميين الشيعة فعرض على طغتكين أتابك دمشق أن يساعده في قتال العدو المشترك، وفعلاً استجاب طغتكين لنداء الفاطميين، فأرسل إليهم أحد قواده واسمه "اصبهبذ صباوه" ومعه ألف وثلاثمائة فارس[2].

لما علم بلدوين الأول ملك بيت المقدس بتلك الأحداث، وبخطة المسلمين،

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١/٢٩٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٩٤، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/ ٣٥.

وإصرارهم على قتاله، خرج من يافا على رأس قواته وسار بهم إلى الرملة، حيث يستطيع منها حماية يافا من ناحية، وحماية بيت المقدس من ناحية أخرى، واجتمع حول بلدوين أنداده من أمراء الصليبيين ومعهم جيوشهم، ولم يكد أبرمار بطرق بيت المقدس يأتي ومعه صليب الصلبوت و عدد من الرجال حتى دارت المعركة المنتظرة مع المسلمين بين عسقلان ويافا والتي انتهت بتمزيق القوات الفاطمية شر ممزق، وفرار الدماشقة الذين أرسلهم طغتكين، وقتل كثير من أمراء الجيش، من جملتهم جمال الملك أمير عسقلان، هذا مع ملاحظة أن خسائر الصليبيين أيضاً كانت كبيرة في تلك الموقعة، فقتل منهم كثيرون على رأسهم قائد قوات أرسوف وقائد قوات عكا ولقد عبر المؤرخ ابن الأثير عن نتيجة هذه الموقعة تعبيراً دقيقاً فقال: "لم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى، فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم، وقتل جمال الملك أمير عسقلان"[1].

ومن سوء حظ المسلمين في هذه المعركة أن الأسطول الفاطمي لم يكن له أي دور فيها، بل وتعرض أثناء عودته إلى مصر لعاصفة شديدة، قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه إلى الموانئ الصليبية، فأسرها الصليبيون وأخذوها غنيمة بدون قتال.[2]

كان من نتائج هذه المعركة أنها كانت آخر محاولة كبرى قام بها الفاطميون في مقامهم للصليبين في هذه الفترة فيئس الصليبيون الفاطميون من حرب الصليبيين، واقتصر نشاطهم الحربي ضدهم بعد ذلك على التهديدات والغارات البسيطة، التي

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٩٥، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/ ٣٥، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٢٤٠.
(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١/ ٢٩٦.

تنطلق من مركز الهجمات الفاطمية في مدينة عسقلان. ومن هذه الغارات هجوم القوات الفاطمية عام ٥٠٠هـ على قافلة حجاج صليبية بين يافا وأرسوف، كما هاجموا عام ٥٠١هـ الخليل، وفي عام ٥٠٤هـ تقدم الفاطميون في هجماتهم السريعة حتى وصلوا إلى أسوار مدينة بيت المقدس.[١]

وجد الصليبيون في موقف الدولة الفاطمية الضعيف والغير قادر على صد هجماتهم، خير مشجع ومعين لهم للاستيلاء على مزيد من المواقع والحصون وتأمين ممتلكاتهم خاصة مملكة بيت المقدس، فأعد بلدوين الأول ملك بيت المقدس حملة عسكرية اتجه بها جنوباً حتى أيله على ساحل خليج العقبة ولم يلق بلدوين في طريقه أي مقاومة تذكر، حيث فر الأهالي من وجهه خوفاً وفزعاً، وفي مدينة أيله بنى بلدوين قلعة حصينة استطاع من خلالها أن يتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام عبر شبه جزيرة سيناء، كذلك شيد قلعة ثانية في جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة في خليج العقبة[٢].

لم يكتف بلدوين بهذا، بل طمع بأكثر من ذلك، فأخذ يفكر في غزو الفاطميين في عقر دارهم حتى يشعرهم بقوته، وألا يفكروا بمهاجمته ومحاربته بعد ذلك، فأعد حملة كبيرة في عام ٤٩٦هـ وعبر بها الصحراء من غزة إلى العريش حتى وصل إلى الفرما[٣] واستولى عليها وأحرق جامعها ومساجدها[٤].

---

(١) سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص٣٥.

(٢) سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية، ص٣٦، أحمد رمضان: شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى، ص٦٦.

(٣) الفرما: مدينة قديمة بين العريش والفسطاط شرقي تنيس على ساحل البحر على يمين القاصد لمصر. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٢٥٦.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٧١.

كان لجرأة الصليبيين في مهاجمة مصر الأثر البالغ في إيقاظ الدولة الفاطمية من سباتها، وجعلها تفكر جدياً في كيفية درء هذا الخطر الذي أصبح يهددها تهديداً مباشراً، فشرع الوزير الأفضل أمير الجيوش في القيام بمحاولة جديدة يرد بها على العدوان الصليبي، فبادر بإرسال قواته إلى عسقلان وأسطوله إلى صور، وفي هذه المرحلة حدث الأمر الذي لم يكن في الحسبان ألا وهو تحالف الدماشقة السنيين مع الفاطميين الشيعة ضد الصليبيين، فتم الاتصال بين الوزير الأفضل في مصر وطغتكين في دمشق على القيام بعمل مشترك بتوحيد جهودهما في قتال الصليبيين كل من ناحيته فوافق الطرفان على هذا، وعلى الفور توجه طغتكين بنفسه إلى عسقلان حيث ترابط القوات الفاطمية ليتولى قيادة القوات المشتركة الشامية والمصرية والتي كان عددها سبعة آلاف فارس، "فاجتمع بهم طغتكين، وأعلمه المقدم عليهم أن صاحبهم تقدم إليه بالوقوف عند رأي طغتكين والتصرف على ما يحكم به"[1].

أحس الملك بلدوين الثاني -ملك بيت المقدس الجديد- بخطورة الموقف، فحاول عزل طغتكين عن الأفضل ، وعرض على الأول عقد هدنة، ولكن طغتكين رفض عرضه. وفي نفس الوقت استنجد بلدوين الثاني بالصليبيين في أنطاكية وطرابلس، ولكن الموقف لم يؤد إلى صدام بين الطرفين إذ رابط كل من الصليبيين والمسلمين مدة شهرين أو ثلاثة، ثم انصرف كل فريق من حيث أتى دون أن يقع بينهما قتال[2].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٥٤٣.

(٢) سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص٣٧.

لم يستكن وزراء الدولة الفاطمية لهذا الضعف، فأخذوا يبذلون قصارى جهدهم لمواجهة الصليبيين ومحاولة صدهم ووقف زحفهم بأي وسيلة كانت، ففي عام ٥٤٤هـ تولى ابن السلار الوزارة في الدولة الفاطمية للخليفة الفاطمي الظافر، وكان ابن السلار هذا سنياً على المذهب الشافعي[١] فلم يرض عنه الخليفة الفاطمي الظافر، وأخذ يكيد له ويدبر المؤامرات للتخلص منه[٢] في هذا الوقت كان ابن السلار يضع مخططاً لمقاتلة الصليبيين في غزة وعسقلان، وسعى لإنجاح هذا المخطط بأن اتصل مع نور الدين محمود للاتفاق على ذلك، فاستدعى ابن السلار أسامة بن منقذ وكان في هذا الوقت موجوداً في مصر، وعهد إليه بمهمة الاتصال بنور الدين محمود، قال له: ((تأخذ معك مالاً وتمضي إليه لينازل طبريه، ويشغل الفرنج عنا، لنخرج من ها هنا نخرب غزة))[٣].

سافر أسامة بن منقذ من مصر مزوداً بستة آلاف دينار مصرية، عدا الثياب وغيرها من المتاع، واتجه إلى الشام بصحبة قوم من العرب أدلاء، والتقى مع أسد الدين شيركوه في بصرى، ومنها صحبه إلى دمشق حيث التقى مع نور الدين محمود وتحدث معه بما جاء به، فأبى نور الدين الاستجابة لمشروع ابن السلار وقال لأسامة: ((يا فلان أهل دمشق أعداء والفرنج أعداء، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما. ولكن مع هذا سمح نور الدين لأسامة أن يستأجر بالمال الذي زوده به الوزير الفاطمي ابن السلار جنداً يحارب بهم الصليبيّين، فجمع أسامة ثمانمائة وستين فارساً، وزوده نور الدين بثلاثين فارساً من أصحابه بقيادة الأمير عين الدولة

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤١٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص١٨٢.

(٣) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار ص١٠.

الياروقي واتجه بهم إلى الصليبيين لمحاربتهم.[١]

نازل أسامة بن منقذ -بما توافر لديه من قوة- الصليبيين في عسقلان وبيت جبريل[٢] وبينا، ولكنه لم يستطع أن يحقق أي نجاح حربي ملحوظ ضد الصليبيين في تلك العمليات الحربية، لصغر قواته من ناحية، وعدم تماسكها بالنظام والطاعة من ناحية أخرى[٣]. عندئذ استدعى الوزير الفاطمي ابن السلار أسامة بن منقذ إلى القاهرة، فحضر وترك أخاه عزالدولة أبا الحسن علي في عسقلان ليواصل مقاتلة الصليبيين في غزة ولكن أبا الحسن لم يلبث أن استشهد في تلك العمليات[٤].

يقول الدكتور سعيد عاشور: ومهما يكن من أمر، فإننا نخرج من هذه الأحداث بعدة معان: أولها استمرار تمسك وزراء الدولة الفاطمية -وهم أصحاب النفوذ الفعلي فيها- بفكرة الجهاد، وثانيها اتجاه هؤلاء الوزراء إلى زنكي ثم إلى ابنه نور الدين محمود طالبين محالفتهم والاستعانة بهم في تنفيذ مشاريعهم ضد الصليبيين، وذلك بعد أن يئس الوزراء من أمر الخلفاء الفاطميين أنفسهم، وثالثها اضطراب أحوال الدولة الفاطمية وضعفها وعجزها عن القيام بعمل حربي منفرد ضد الصليبيين بالشام[٥].

لم يلبث أن اغتال الخليفة الفاطمي الظافر الوزير ابن السلار في عام ٥٤٨هـ[٦]. وتولى

---

(١) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار ص١٤ ، ١٥.

(٢) بيت جبريل: بليد بين بيت المقدس وغزة، بنيه وبين القدس مرحلتان وبين غزة أقل من ذلك. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٥١٩.

(٣) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار ص ١٥-١٧.

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٨.

(٥) سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية ص ٤٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل ١١/١٨٤.

الوزارة الملك الصالح طلائع بن رزيك، ولم يلبث أن رفع الصالح بن رزيك علم الجهاد من جديد، فاهتم بإرسال الأساطيل والسرايا لمهاجمة الصليبيين، فجهز في عام ٥٥٠هـ أسطولاً هاجم ميناء صور حيث ظفر بمراكب الفرنج، وعاث في الميناء قتلاً وأسراً، وعقد الفرنج مع الصالح بعد هذه الوقعة هدنة استمرت حتى سنة ٥٥٢هـ شرع الصالح بعدها في إرسال الحملات البرية والبحرية للإغارة على بلاد الفرنج[١].

كما حصلت اتصالات بين الصالح ونور الدين محمود للعمل يداً واحدة ضد الصليبيين، وكتب الصالح له عدة قصائد يحرضه فيها على الجهاد، فأرسل نور الدين رسولاً سنة ٥٥٢هـ، وآخر سنة ٥٥٣هـ، كما قدم رسول من عند الفرنج يطلب الصلح، وقد أعاد الصالح رسول نور الدين بجواب رسالته ومعه هدية من الأسلحة ما قيمته ثلاثون ألف دينار، ومن العين ما مبلغه سبعون ألف دينار تقوية له على جهاد الفرنج[٢]. ولقد اهتم الصليبيون لمهادنة الصالح، فأرسلوا رسولاً آخر سنة ٥٥٤هـ ومعه هدية وعرض بقيام هدنة بين الطرفين، إلا أن رسولاً من قبل نور الدين وصل إلى مصر يخبر بأنه متوجه لمهاجمة الصليبيين، وطلب خروج حملة من مصر تشغلهم، فبادر الصالح بتجهيز ستة آلاف وخمسمائة فارس، لشن الغارات على غزة، كما خرج أسطول في البحر لمهاجمة موانئ العدو وسفنه[٣].

ويبدو أنه كان هناك اتفاق بين ابن رزيك ونور الدين على أنه بعد طرد الصليبيين من الشام يجري تقسيمها بين نور الدين ومصر، ويظهر ذلك من قصيدة للمهذب بن الزبير أحد أصدقاء ابن رزيك المقربين إذ يشير في قصيدته هذه إلى تلك الوقعة وإلى هذا الاتفاق، فمن

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٢٣٠، محمد المناوي: الوزارة والوزراء ص ٢٢٩.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٢٣٣-٢٣٤.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٢٣٦، محمد المناوي: الوزارة والوزراء ص ٢٣٠.

تلك القصيدة:

وأعدت رسل ابن القسيم إليه في شعبان كيما يلأم الشعبان
والفأل يشهد باسمه أن سوف يغـ ـدو الشام وهو عليكما قسمان
وأراك من بعد الشهيد أبا له وجعلته من أقرب الإخوان[1]

ولكن برغم اهتمام الصالح بقيام هذا التحالف، وكتبه المتلاحقة لحث نور الدين على العمل يداً واحدة، والقيام بمجهود مشترك ضد العدو إلا أن ذلك لم يأت بالغرض المنشود، إما لأن نور الدين لم يكن يثق تماماً في عروض مصر، أو لأن القدر لم يمهل الصالح إذ قتل بعد قليل. ومات الصالح وهو يتأسف لعدم تمكنه من فتح بيت المقدس وطرد الصليبيين.

وبقتل الصالح بن رزيك دخلت مصر في حالة من الفوضى لم يكن لها مثيل وأصبح التطاحن بين الوزراء على أشده، فلم تخرج من مصر بعد مقتل الصالح أي حملة عسكرية ضد الصليبيين، فتوقف العمل العسكري إلى أن قتل شاور آخر الوزراء الفاطميين، وتولى الوزارة بعده بتقليد من الخليفة الفاطمي القائد أسد الدين شيركوه السني ومن بعده ابن أخيه صلاح الدين وفي عهدها بدأت صفحة جديدة في تارخ مصر فقام صلاح الدين بإسقاط الدولة الفاطمية وتحويلها من المذهب الشيعي إلى المذهب السني، وأرجعها إلى التبعية للدولة العباسية، وبدأ بعد ترتيب الأمور الداخلية في إعداد الجيوش وإرسال الحملات العسكرية المتوالية لمقاتلة الصليبيين في الشام إلى أن استطاع استرجاع بيت المقدس من الصليبيين بعد موقعة حطين الشهيرة في عام ٥٨٣هـ.

(١) أبو شامة: الروضتين ١/١٤٧-١٤٨، محمد المناوي: الوزارة والوزراء ص ٢٣٠.

الفصل الثالث

الباطنية النزارية (الحشاشون)

ودورهم

في الحروب الصليبية

المبحث الأول: تعامل النزارية مع الصليبيين

المبحث الثاني: اغتيال القادة المسلمين

المبحث الثالث: إفساد المجتمع الإسلامي من الداخل

المبحث الرابع: موقف القادة المسلمين من الباطنية النزارية

المبحث الأول

تعامل الباطنية النزارية مع الصليبيين

كان أول ظهور الباطنية ببلاد الشام في مدينة حلب، التي كانت تحت حكم الملك السلجوقي رضوان بن تتش، حيث أقام الداعي الباطني الحكيم المنجم الذي أرسله الحسن بن الصباح من آلموت لنشر الدعوة في الشام واستطاع استمالة رضوان إلى الباطنية على أساس أن يستغل هذا شجاعة الباطنية في اغتيال خصومه السياسيين، فحفظ الملك رضوان جانبهم وشايعهم حتى أصبح لهم بحلب دار دعوة[1].

لكن لم يلبث أن توفي الحكيم المنجم فتولى أمر الباطنية بعده في الشام رفيقه أبو طاهر الصائغ العجمي الذي سار على نفس الطريقة التي سارت عليها الباطنية في بلاد فارس، فاعتمد الاغتيال كوسيلة لتثبيت أقدامه في الشام وفرض سيطرته، فقام في عام ٤٩٨هـ باغتيال خلف بن ملاعب صاحب أفامية عن طريق أحد دعاته هناك، حيث تسلم أبو طاهر الصائغ الحصن عقب ذلك وأقام فيه[2].

بعد استفحال أمر الباطنية في حلب والشام، أرسل السلطان السلجوقي محمّد ابن ملكشاه إلى ألب أرسلان بن رضوان بن تتش- الذي تولى الحكم في حلب بعد وفاة أبيه- أن يفتك بالباطنية ويقتلهم، فقرر ألب أرسلان الايقاع بهم والقضاء

(١) ابن العديم بغية الطلب في تاريخ حلب ص١٤٠، ١٤١، انظر ما سبق ص٥٦.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٣٦.

عليهم، فقبض على أبي طاهر الصائغ وقتله، وقتل إسماعيل الداعي وأخا الحكيم المنجم والأعيان من أصحاب هذا المذهب الباطني بحلب واستصفى أموالهم وتفرقوا في البلاد[1].

ظلّت الباطنية في الشام مختفية مغلوبة على أمرها، بسبب مطاردة الحكام والعامة لها، إلى أن جاءت سنة ٥٢٠هـ ، حيث كان على زعامة الباطنية رجل يعرف باسم بهرام، فقال عنه ابن القلانسي: ((وفي هذه السنة استفحل أمر بهرام داعي الباطنية وعظم خطبه في حلب والشام، وهو على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزي واللباس، بحيث يطوف البلاد والمعاقل ولا يعرف أحد شخصه))[2].

استقر المقام بداعي الباطنية بهرام في دمشق حيث أرسل نجم الدين اليغازي ابن أرتق صاحب الموصل إلى الأمير ظهير الدين أتابك دمشق خطابا يستأذنه في أن يقيم عنده بهرام حتى يؤمن شره وشر جماعته، فأذن له الأمير ظهير الدين بالمقام عنده في دمشق، وفي دمشق ((وافق وزير الأمير ظهير الدين أبو عليّ طاهر ابن سعيد المزدقاني داعي الباطنية بهرام، وساعده على نشر مذهبه وبث أفكاره، فعظمت المصيبة بهم، وجلت المحنة بظهور أمرهم، وضاقت صدور الفقهاء والمتدينين والعلماء وأهل السنة، والمقدمين، وأحجم كل منهم عن الكلام فيهم، دفعا لشرهم وارتقابا لدائرة السوء عليهم، لأنهم شرعوا في قتل من يعاندهم، ومعاضدة من يؤازرهم على ضلالهم))[3].

---

(١) انظر ما سبق ص٥٨، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص٣٠٢.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٣٤٢.

(٣) نفس المصدر السابق ص٣٤٣.

لم يكتف بهرام بهذا، بل حن إلى ماضيه وماضي جماعته في سفك الدماء وقتل الأبرياء، فحدثته نفسه بقتل برق بن جندل أحد مقدمي وادي التيم لغير سبب، فخدعه إلى أن حصل في يده، فاعتقله وقتله صبرا، لكن أخاه ضحاكاً لم ينم على دم أخيه فجمع أتباعه وعقدوا العزم على الأخذ بثأر برق، فسار ضحاك مع أتباعه والتقى مع أصحاب بهرام ودارت بينهما معركة في وادي التيم أسفرت عن هزيمة أصحاب بهرام حيث قتل أكثرهم وسقط بهرام نفسه قتيلا في هذه المعركة[1].

بعد مقتل بهرام قام مقامه في قلعة بانياس رجل من الباطنية اسمه اسماعيل العجمي، وأقام الوزير المزدقاني عوض بهرام بدمشق رجلا من الباطنية اسمه أبو الوفا، فعظم أمر أبي الوفا هذا بسبب مساندة الوزير المزدقاني له، حتى أصبح حكمه في دمشق أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك بوري.

لم يقنع أبو الوفا بهذا، بل حدثته نفسه بالخيانة والاستعانة بالصليبيين على أهل دمشق المسلمين، وتسليم دمشق إليهم، فكاتب أبو الوفا زعيم الباطنية في الشام الفرنج على أن يسلم إليهم دمشق، ويسلموا إليه عوضها مدينة صور، واتفقوا على ذلك، وتقرر بينهم الميعاد على أن يكون قدوم الصليبيين إلى دمشق في يوم جمعة وقت الصلاة، على أن يجعل أبو الوفا أصحابه على أبواب جامع دمشق، فلا يمكنوا أحداً من الخروج منه حتى يجيء الفرنج ويتسلموا دمشق.... علم تاج الملوك بوري صاحب دمشق بهذه المؤامرة، فبادر بالتخلص من أصحابها، ومن كل من ساهم فيها، وبدأ بوزيره أبي على طاهر بن سعيد المزدقاني، فاستدعاه إليه فحضر، وخلا معه فقتله تاج الملوك لتواطئه مع الباطنية، وعلق رأسه على باب القلعة، ثم نادى

(١) نفس المصدر السابق ص٣٥٣ (بتصرف).

تاج الملوك في البلد بقتل الباطنية، فثار بهم أهل دمشق فقتلوا منهم ستة آلاف نفر، وكفى الله المسلمين شرهم[1].

أما الصليبيون فلقد وصلوا على الميعاد المقرر بينهم وبين الباطنية وحاصروا دمشق استعداداً لأخذها، لكنهم علموا أن تاج الملوك قد بطش بحلفائهم وقضى عليهم فتأسفوا على ذلك أشد الأسف وغضبوا على عدم تمكنهم من أخذ دمشق، وأرسلوا إلى أعمال دمشق لجمع الميرة والإغارة على البلد فلما سمع تاج الملوك بذلك أرسل أميراً من أمرائه يعرف بشمس الخواص في جمع من المسلمين إليهم، فلقوا الفرنج وقاتلوهم، فصبر بعضهم لبعض، فظفر المسلمون بهم وقتلوهم، وأخذوا ما معهم من غنائم وهي عشرة آلاف دابة وثلاثمائة أسير، فلما علم المحاصرون لدمشق بهذا ألقي في قلوبهم الرعب، فرحلوا عن دمشق شبه المنهزمين وكان البرد والشتاء شديداً فخرج تاج الملوك في أثرهم وأخذ يطارهم حتى قتل كل من تخلف منهم[2].

أما صاحب بانياس الباطني إسماعيل العجمي فلما سمع هو وأصحابه بما وقع لأقرانهم في دمشق أسقط في أيديهم، فخاف إسماعيل على نفسه وعلى أصحابه من أن يثور به النّاس فيقتلونهم، فراسل الفرنج، وبذل لهم تسليم بانياس على أن ينتقل إلى بلادهم ليأمن بهم، فأجابوه إلى ذلك فسلمها إليهم، وخرج هو وأصحابه متسللين من بانياس إلى الأعمال الفرنجية على غاية من الذلة، ونهاية من القلة، فلقوا شدة وهوانا[3].

---

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/٢، ٣، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٦٥٦، ٦٥٧.

(٢) نفس المصادر السابقة.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٣٥٥-٣٥٦، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٦٥٧.

ظل الحشيشية الباطنية في بلاد الشام على صلة وثيقة بالصليبيين يتآمرون على المسلمين من أهل السنة، ولا يتركون فرصة تلوح للانتقام منهم إلا اهتبلوها، فوجهوا كل عملياتهم ومؤامراتهم ضد قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمؤسسات السنية في الشام- ((فلم يقاتل الحشيشية (النزارية) الإثنى عشرية أو الشيعة الآخرين، ولم يديروا سكاكينهم ضد النصارى أو اليهود المحليين))[1]- وهذا يثبت لنا بالدليل القاطع الصلات الوثيقة، وحقيقة التعاون بين الباطنية والصليبيين من جهة واليهود من جهة أخرى.

فمن الأدلة التي تثبت حقيقة التعاون بين الباطنية والصليبيين أن زعيم الباطنية في الشام راشد الدين سنان أرسل في عام ٥٦٩هـ وفداً إلى أملريك ملك بيت المقدس يقترح عليه اتفاقاً بين الطرفين ضد القائد المسلم الملك العادل نور الدين محمود، ولوح سنان لملك بيت المقدس بأنه وقومه يفكرون بالتحول نحو النصرانية، وطلب منه مقابل ذلك إلغاء الضريبة التي فرضتها فرسان الداوية الصليبيين على بعض القرى الإسماعيلية الباطنية في الشام، ولما عاد وفد الباطنية الحشيشية من القدس سقط في كمين لفرسان الداوية، فقتل الداوية جميع أفراد الوفد فأثاروا بذلك غضب أملريك ملك بيت المقدس الصليبي، فبعث بكتاب توبيخ للجناة، وطلب من مقدم الداوية سجنهم، كما أرسل إلى سنان مقدم الباطنية معتذراً، وأعلمه أن الجناة نالوا عقابهم، فكان لهذا العمل أثره الذي زاد في إبقاء العلاقات الطيبة بين الطرفين[2].

---

(١) برنارند لويس: الحشيشة ص١٥٣.

(٢) نفس المرجع السابق ص١٣٠، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ٧٠٨/٢، ٧٠٩ فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢٤٧/٢.

أما عن علاقة الباطنية النزارية باليهود، فيبدو أنها لا تقل درجة عن علاقتهم بالصليبيين، بل كانت أقوى حيث كان الطرفان ممتزجين ببعضهما البعض، فلقد كان عدد كبير من اليهود يعمل بين صفوف الحركة الباطنية النزارية في الشام لخدمة أهدافها، وقد ذكر الرحالة اليهودي بنيامين الذي زار منطقة الشام حوالي عام ٥٦٩هـ بأنه كان يقيم بين الإسماعيلية في الشام نحو أربعة آلاف يهودي، يسكنون الجبال مثلهم، ويرافقونهم في غزواتهم وحروبهم، وهم أشداء لا يقدر أحد على قتالهم، وبينهم العلماء التابعون لنفوذ رأس الجالوت ببغداد[١].

ومن الأدلة الأخرى التي تثبت حقيقة التعاون بين الإسماعيلية الباطنية واليهود ضد المسلمين السنة، أن كاتب الرسائل الباطنية الموجهة إلى ملك بيت المقدس الصليبي بشأن الاتفاق معه للزحف على مصر وقيام الباطنية في الداخل بثورة ضد صلاح الدين وقتله وقتل أتباعه وأخذ مصر منه وإعادة الدولة الفاطمية مرة أخرى، كان كاتب هذه الرسائل يهودي[٢].

من هذا يتضح أن الطوائف الباطنية من إسماعيلية ونصيرية ودروز ليسوا من المسلمين حقيقة، لا بالقول ولا بالفعل ولا بالاعتقاد، فلقد كانت مواقفهم دائماً مناوئة للإسلام والمسلمين، بل تعاونوا في كل الأوقات مع أعداء الاسلام والمسلمين من صليبيين ويهود[٣].

---

(١) عبد الكريم حتامله: صلاح الدين وموقفه من القوى المناوئة في بلاد الشام، مقال في مجلة الدارة- العدد الثاني- السنة الثانية عشر لعام ١٤٠٧هـ، ص١٦٣، دريد عبد القادر: سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة ص٣٧٧.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٧٥، ابن الأثير: الكامل ١١/٣٤٦.

(٣) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص١٨٥.

لم يقف الباطنية في الشام عند حد التعاون مع الصليبيين بعقد الاتفاقات بين الطرفين، واغتيال القادة المسلمين الذين هبوا للجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين. بل تعدى الأمر إلى أبعد من ذلك، فلقد أصبح الباطنيون يخوضون مع الصليبيين المعارك الحربية جنبا إلى جنب ضد المسلمين، فعندما عزم الملك العادل نور الدين محمود في عام ٥٤٣ هـ توجيه ضرباته إلى الصليبيين ومهاجمة مناطقهم، تعاون الباطنية مع الصليبيين ضد هذه الجهود، ووقفوا مع الصليبيين ضد حركة نور الدين الجهادية هذه ففي عام ٥٤٤هـ أغار نور الدين محمود على الإقليم المحيط بقلعة حارم على الضفة الشرقية لنهر العاصي، وهي تابعة للصليبيين، وطلب من معين الدين أنر المعونة والمساعدة لقتال الصليبيين، فأمده معين الدين بقوة من فرسانه على رأسهم الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين[١] وعندما ترك نور الدين حارم مكتفيا بتدمير ما حولها من ضياع، أخذ يحاصر قلعة أنب[٢]، فلما علم البرنس ريموند صاحب أنطاكية بمحاصرة نور الدين لتلك القلعة، خرج على رأس قوة من رجاله للتصدي لنور الدين وإرجاعه عنها[٣]. فالتقى الفريقان في معركة بالقرب من انب وأحاط نور الدين محمود بريموند ورجاله فأبادهم جميعاً ولم يبق منهم احداً، وكان من جملة القتلى البرنس ريموند صاحب انطاكية، ففرح المسلمون كثيراً بقتله وريتو صاحب كيسوم[٤] ومرعش[٥] فضلاً عن عليّ بن وفاء زعيم الباطنية الذى كان

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٤٧٢.

(٢) أنب: حصن من أعمال اعزاز: من نواحي حلب. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/٢٥٨.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص٩٨- ٩٩.

(٤) كيسوم: قرية مستطيلة من اعمال سمسياط فيها حصن كبير. ياقوت الحموى: معجم البلدان ٤/٤٩٧.

(٥) مرعش: مدينة في الثغور بين بلاد الشام وبلاد الروم. ياقوت: معجم البلدان٥/١٠٧.

مرافقاً للصليبيين ومحارباً معهم في هذه المعركة[1].

استمر زعماء الباطنية في سياستهم المتحالفة مع الصليبيين، ولم يتركو أي فرصة تلوح لعقد أي اتفاق أو تحالف بينهم وبين الصليبيين وكانوا حريصين على ذلك أشد الحرص حتى يعرقلوا أى حركة جهادية يقوم بها المسلمون ضد الصليبيين. ففي أثناء رحلة هنري دي شامبنى ملك مملكة بيت المقدس إلى أنطاكية لتصفية النزاع بين أنطاكية وأرمينية اتصل هنرى بالباطنية في مناطق نفوذهم، وعقد معهم أواصر التحالف والصداقة، وانتهز زعيم الباطنية فرصة مرور هنري دي شامبنى بأراضيه إلى أنطاكيه، فحاول أن يجدد ما كان بين الباطنية والصليبيين من تحالف فاعتذر لهنري عن مقتل كونراد دي مونتفرات ودعاه لزيارة الباطنية في حصن الكهف، فحرص الباطنية أثناء تلك الزيارة على أن يبهروا أنظار ملك الصليبيين بقوتهم وثروتهم، فقدموا إليه كثيراً من الهدايا، كما عرضوا عليه محالفتهم واستعدادهم لقتل من يرغب في قتله[2].

يقول دريد عبد القادر في كتابه سياسة صلاح الدين: ويعتقد المؤرخ ((كاهين)) أن هناك علاقة بين الإسماعلية وجماعة الإسبتاريين الصليبيين الذين أصبحوا حماة الإسماعيلية، وأن أولئك الذين اغتيلوا من الصليبيين إنما كانوا أعداء الاسبتاريين[3].وقد أيد المؤرخ

---

(١) برنارند لويس: الحشيشية ص١٢٥-١٢٦، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ٢/٦٢٢.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية٢/٨٧٢-٨٧٣.

(٣) من الادلة التاريخية التى أوردها ((كاهين))على اثبات وجود علاقة بين الاسماعيلية والاسبتاريين الصليبيين ما ذكره في كتابه.la syrie du- nord

أ- في منطقة الرها كانت هناك املاك لفرسان الاسبتارية، وكان للاسماعلية في الرها ايضاً مركز لدعوتهم وكان ذلك المركز تحت سلطان الاسبتارية ادارياً في القرن ١٣م.

=

الإنجليزى هدجسون وجود مثل تلك العلاقة، واعتقد بأن هناك إشارات واضحة تدل على ذلك[1] وبعد قيام دولة المماليك في مصر وعقد الصلح بينهم وبين الأيوبيين في الشام لم يعد هناك أى شاغل يشغل الطرفين غير الجهاد ضد الصليبيين فاجتمعت جهودهم وقواهم وأخذكل واحد منهم يعمل من عنده في حرب الصليبيين، وفي المقابل وأمام هذا الاتفاق بين مصر والشام، قام لويس التاسع قائد الصليبين بتنظيم الدفاع عن الممتلكات والبلدان الصليبيه فقام بتحصين المدن والموانئ الصليبيه بتحصينات حربية ضخمه حتى تصمد في وجه الهجمات والغارات الإسلامية، ولكي يكمل لويس التاسع نظامه الدفاعي عن الممتلكات الصليبية في بلاد الشام سعى إلى عقد اتفاقيات وتحالفات واسعة النطاق مع أعداء المسلمين السنة في الشام، فحاول التحالف مع الباطنية الشيعة الحشاشين من ناحية ومع المغول من ناحية أخرى حتى يتحقق له بهذا التحالف نوع من التوازن بين الصليبين من جهة والمماليك والأيوبيين من جهة ثانية.

فعندما علم شيخ الجبل -زعيم الحشاشين في بلاد الشام- بوصول لويس التاسع إلى الشام أرسل إليه يطلب منه عقد نوع من الارتباط والتفاهم بين الطرفين، ويبدو أن الباطنيه أرادوا من وراء ذلك أن يؤمنوا أنفسهم إزاء الموقف الجديد الناشئ عن قيام دولة المماليك في مصر ووقفها إلى جانب الأيوبيين في الجهاد ضد الصليبيين عن طريق عقد تحالف مع الصليبيين بالشام، فأرسل شيخ الجبل زعيم الباطنية بعض

(ب) قتل الامير الصليبي ريموند سنة ١٢١٣م في كنيسة انطرطوس بيد الاسماعيلية الباطنية الذين كانوا مدفوعين من قبل الاسبتارية وكذلك مقتل بوهيموند الرابع الذى قتل بسبب الاختلافات التى كانت بينه وبين جماعة الاسبتارية، الذين استخدموا الاسماعيلية الباطنية لقتله وقد اكد كاهين ان اولئك الاسماعيلية كانوا مع جماعة الاسبتارية حلفاً واحداً ضد المسلمين.

انظر دريد عبد القادر: سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة ص٣٧٦.

(١) دريد عبد القادر: سياسة صلاح الدين ص٣٧٦.

الهدايا إلى لويس التاسع ملك فرنسا- من جملتها فيل من البللور- فرد عليه ملك فرنسا لويس التحية بأحسن منها، مما أدى إلى تقوية أواصر التحالف بين الطرفين[1].

وأثناء الغزو المغولي الذي استهدف الممالك الإسلامية والخلافة العباسية في بغداد، ورأى الإسماعيلية الباطنية أن مطامع المغول لا تقف عند حد، وأن فتوحاتهم مستمرة، خافوا خطرهم، وصمموا على مقاومتهم فأخذوا يرسلون رسلهم إلى إنجلترا وفرنسا سنة ٦٣٧هـ طالبين معونة الأوربيين الذين عرفوهم إبان الحروب الصليبية، ولكنهم لم يلقوا مجيباً يشهد بذلك ما قاله أسقف مدينة ونشستر Winchester: ((دع هؤلاء الكلاب يأكل بعضهم بعضاً حتى يقضى عليهم نهائياً، وعندئذ سوف نقيم على أنقاضهم الكنيسة الكاثوليكية العالمية، فتكون حقا راعياً واحداً وقطيعاً واحداً))[2].

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ٢/١٠٤٦.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ القسم ٢ ص٣٨٣ حاشية رقم (٤).

المبحث الثاني

اغتيال القادة المسلمين

ظلت الحركة النزارية الباطنية إسفينا في قلب المجتمع الإسلامي فزادته ضعفا على ضعف، وساهمت في تمزيقه ونشر الرعب والإرهاب في أرجائه فساعد ذلك الأعداء على الطمع فيه ومحاولة السيطرة عليه. لقد كانت الحركة النزارية مصدرا للانحلال السياسي والاجتماعي في بلاد فارس والشام طيلة عصر الحروب الصليبية، فاتخذ أتباعها من الاغتيال السياسي والتصفية الجسدية مبدأ ساروا عليه لتحقيق أهدافهم في السيطرة على أجزاء كبيرة من بلاد فارس والشام و إنهاك القوى السنية فيها، فاتسم تاريخ الحركة النزارية في هذه البلاد بالقتل وسفك الدماء والاغتيال، حتى أن زعماء هذه الحركة تناسوا الأهداف الفكرية والمبادىء التي كانوا ينادون بها، وأصبحوا عصابة سرية فريدة من نوعها في التاريخ، مدربة على القتل المنظم، لاهم لهم ولا غاية سوى الاغتيال وبث الذعر ونشر الإشاعات المخيفة.

لقد ذهب ضحية إجرام هؤلاء عدد كبير من قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، والخلفاء والوزراء والعلماء والقضاة والوعاظ، فكان مصير كل قائد مسلم ينادي بالجهاد ضد الصليبيين وتوحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي... القتل على أيدي رجل الجناح العسكري في تنظيم الحركة النزارية الباطنية من الفداوية، وكذلك إذا ظهر أي عالم أو فقيه أو واعظ، وأخذ يبين زيف أفكار ومبادىء هؤلاء الباطنية وتوعية العامة وتحذيرهم منها، طالت أيدي هؤلاء الباطنية الغادرة هذا العالم أو الفقيه بالاغتيال والقتل.

وهكذا لم يسلم من بطش الباطنية أي رجل مخلص يظهر في المجتمع الإسلامي، وسوف نعرض قائمة طويلة بأسماء قادة ووزراء وسلاطين وفقهاء وقضاة ووعاظ، اغتالتهم أيدي أتباع النزارية الباطنية في بلاد فارس والشام إبان الحروب الصليبية.

ففي ربيع الأول من عام ٤٨٥هـ خرج الوزير السلجوقي نظام الملك في زيارة لولايات الدولة في بلاد فارس، ومعه ولد الخليفة العباسي أبو الفضل جعفر، وبعد انتهاء الوزير من الزيارة، وفي أثناء عودته في شهر رمضان إلى بغداد، عاصمة الخلافة، وفي الطريق تقدم إليه صبي ديلمي من الباطنية عرف باسم أبي طاهر الأراني في صورة مستغيث، فتقدم إلى نظام الملك وضربه بسكين كانت معه فقتله على الفور، فقبض جنود نظام الملك على الصبي الديلمي وقتلوه، فكان الوزير نظام الملك رحمه الله أول ضحية تسقط بيد الباطنية في تلك السنة[1].

إن الوزير نظام الملك رحمه الله كان من الوزراء الأفذاذ الذين خدموا الإسلام والمسلمين خدمة عظيمة، فهو المؤسس للمدارس النظامية التي انتشرت في أرجاء الدولة الإسلامية تدرس مختلف العلوم الإسلامية، ولقد كان نظام الملك يهدف من وراء إنشاء هذه المدارس عدة أهداف، منها مواجهة الفكر الباطني الذي أخذ ينتشر في المجتمع الإسلامي انتشار النار في الهشيم واستغوت كثيراً من العامة والناس، فبادر إلى إنشاء هذه المدارس لتدريس العلوم الإسلامية ونشر الفكر الإسلامي الصحيح ونقض الأفكار الباطنية، وندب للتدريس فيها خيرة العلماء والفقهاء والمحدثين إلى جانب ذلك كان نظام الملك رحمه الله من الرجال القلائل الواعين

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص٩، أبو شامة: الروضتين ١/٢٥، ابن العديم: بغية الطلب ص٨٦، ٨٧، الفارقي: تاريخ الفارقي ص٢٢٩، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص١٩٢.

لخطط الباطنية وأهدافها، لذلك شرع منذ البداية في محاربتها ومطاردة زعمائها بشتى الوسائل والطرق حتى يطهر المجتمع الإسلامي منهم، لذا وجد الباطنية في شخص نظام الملك خطرا كبيراً عليهم، وأنهم لن يستطيعوا أن يحققوا أهدافهم ما دام موجوداً على رأس الدولة السلجوقية، فعملوا جاهدين على التخلص منه، فأرسلوا أحد فدائييهم الغادرين فطعنه بسكين وقتله.

كان نظام الملك رحمه الله عالماً أديباً جواداً كثير الحلم والصفح عن المذنبين، وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والفقراء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، أمر ببناء المدارس في سائر الأمصار والبلاد، وأسقط المكوس والضرائب، وكان رحمه الله إذا سمع المؤذن أمسك عما هو فيه ويجيبه، فإذا فرغ من الأذان لا يبدأ بشيء قبل الصلاة[1].

وفي رمضان من عام ٤٨٨هـ خرج السلطان السلجوقي بركيارق فعدا عليه فداوي من الباطنية، فلم يتمكن منه وسلم السلطان بركياروق من سكين هذا الباطني، وقبض على الباطني فعوقب وأقر على اثنين من أصحابه ولكن لم يعترفا بذلك، فقتل الثلاثة عقابا لهم[2].

وفي عام ٤٩٠ هـ قتلت الباطنية أرغش النظامي بالري[3].

وفي نفس السنة قتلت الأمير برسق، وكان الأمير برسق هذا من أصحاب

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٢٠٨، ٢٠٩، النويري: نهاية الأرب ٢٦/٣٣٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٤٩.

(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/٢١٠.

الزعيم السلجوقي طغرل بك، وكان برسق أول شحنة[1] يعين ببغداد من قبل السلاجقة[2]. وفي عام ٤٩٢ هـ اغتال الباطنية أيضا أبو القاسم ابن إمام الحرمين بنيسابور[3].

لما كثرت عمليات اغتيال القادة المسلمين من قبل الباطنية صار القادة يلبسون الدروع والملابس الواقية من خناجر الباطنية الغادرة، وكانوا شديدي الاحتراز منهم، لكن الباطنية بأساليبهم الغادرة كانوا يتحينون الفرص المناسبة لتنفيذ عملياتهم حتى تكون ناجحة ففي أواخر رمضان من عام ٤٩٣هـ اغتال الباطنية رئيس شحنة أصبهان الأمير بلكابك سرمز، وكان بلكابك كثير الاحتياط من الباطنية، فلا يفارق لبس الدروع احترازا منهم، لكنه في تلك الليلة لم يلبس الدرع، فاستغل الباطنية الفرصة فهجموا عليه بسكاكينهم الغادرة وقتلوه[4].

لم يقف الباطنية عند حد سفك دماء القادة والحكام والسلاطين المسلمين، بل امتدت أيديهم الغادرة إلى الفقهاء والوعاظ والعلماء، فاغتالوا كل من سولت له نفسه بالتحدث عن الباطنية بكشف أفكارها الفاسدة، أو تحريض النّاس والحكام

---

(١) شحنة: استخدم لفظ شحنة على موظف في الدول الإسلامية، وهي لفظة عربية من شحن بمعنى ملء وقد استخدمت في أول الأمر للدلالة على الرابطة من الخيل في البلد لضبط أهله، ثم استخدمت للدلالة على وظيفة. وكانت شحنة بمثابة مندوب للحاكم الأعلى يعين في المدن التابعة له أو التي يفتحها، أي أنه كان بمثابة حاكم عسكري يمثل صاحب الحكومة المركزية خليفة أو سلطانا أو غير ذلك. وكانت وظيفته مراقبة القوى المعارضة ومنعها من التضخم أو الظهور، وكان يسيطر على الادارة والمكاتبات ويقوم بالدفاع عن المدينة ويحافظ على الأمن ويتدخل في تحصيل الضرائب والمكوس والأموال ليحصل على نصيب الحكومة المركزية منها. انظر: حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ٦٢٣/٢.

(٢) ابن أبي الدم: التاريخ المظفري، مخطوط، ورقة ٣٤٥ب، ٣٤٦ أ، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢١٠/٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٥٧/٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٣٠١/١٠، ابن كثير: البداية والنهاية ١٥٨/١٢.

على جهادهم ومحاربتهم، ففي عام ٤٩٤هـ قدم على تيرانشاه صاحب كرمان رجل يقال له: أبو زرعة، وكان أبو زرعة هذا من الباطنية وكاتبا بخوزستان، فحسن أبو زرعة لتيرانشاه مذهب الباطنية ودعاه إلى اعتناقه فأجابه تيرانشاه إلى ذلك، وأصبح من الباطنية، وكان عند تيرانشاه فقيه حنفي يقال له أحمد بن الحسين البلخي، وكان هذا الفقيه مطاعا عند النّاس مسموع الكلمة، فاستدعى تيرانشاه ذات ليلة الفقيه الحنفي وطال الحديث والجلوس معه، ولما خرج الفقيه من عنده أتبعه ببعض رجاله من الباطنية فقتلوه دون أن يقترف أي ذنب[١].

وفي عام ٤٩٦هـ قتل رجل علوي من الباطنية الواعظ أبو المظفر بن الخجندي بالري، وكان أبو المظفر هذا يعظ النّاس في الجامع، ولما انتهى من درسه ونزل من على كرسيه وثب عليه ذلك الباطني وقتله، وقتل الباطني على الفور، وكان أبو المظفر هذا عالماً فاضلا، وفقيهاً شافعياً مدرساً، وكان الوزير نظام الملك يزوره ويعظمه[٢].

ومن الوعاظ الذين قتلوا بيد الباطنية الواعظ أبو جعفر بن المشاط وهو من شيوخ الشافعية أخذ الفقه عن الخجندي، وقتل رحمه الله بنفس الطريقة التي قتل بها شيخه الخجندي، فكان رحمه الله يدرس بالري ويعظ الناس، فلما نزل من على كرسيه أتاه باطني فطعنه بسكين وقتله[٣].

ومن القضاة الذين اغتيلوا أيضا بيد الباطنية أبو العلاء صاعد بن أبي محمّد

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٢٠، ٣٢١.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط، ١٣/ ورقة ١٤١ أ، ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٦٦، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٦٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٩٣.

النيسابوري هجم عليه باطني وهو بجامع أصبهان فقتله[1].

واغتال الباطنية أيضا في شهر صفر من عام ٥٠٢هـ قاضي أصبهان عبيد الله ابن عليّ الخطيبي بهمذان، وكان رحمه الله قد فضح أمر الباطنية وكشف عن كثير من أفكارها الباطلة، فقال عنه ابن الأثير: ((كان قد تجرد في أمر الباطنية تجرداً عظيماً، وصار يلبس درعاً حذراً منهم، ويحتاط ويحترز))، فأصبح القاضي عبيد الله الخطيبي حذراً من هؤلاء الغدارين لما اشتهروا عنهم باغتيال كل من يتكلم عليهم ويفضح أمرهم، ولكن لا يغني حذر من قدر، فجاء رجل من الباطنية قاصداً القاضي الخطيبي في يوم الجمعة، فدخل بينه وبين أصحابه وهجم عليه ذلك الباطني وقتله لكونه يحرض عليهم حسب قول الشيخ الذهبي[2].

ومن القضاة الذين اغتالتهم الباطنية أيضاً صاعد بن محمّد بن عبد الرحمن أبو العلاء قاضي نيسابور، اغتالوه يوم عيد الفطر بجامع أصبهان، إذ وثب عليه رجل باطني وطعنه بسكين وقتله، وقتل الباطني على الفور[3].

واغتالوا أيضاً قاضي القضاة زين الإسلام أبو سعد محمّد بن نصر بن منصور الهروي، كان قد تقدم في الدولة السلجوقية كثيراً، فأرسله الخليفة إلى خراسان برسالة إلى السلطان سنجر السلجوقي، وفي أثناء عودته من خراسان نزل بهمذان في جامعها للاستراحة، وفي أثناء ذلك وثب عليه على حين غفلة جماعة من الباطنية

---

(١) نفس المصدر السابق ١٠/٤١٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٧١، الذهبي: دول الاسلام ٢/٣١.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط ٢/ ورقة ٤٣ أ، ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٧٢، الذهبي: دول الاسلام ٢/٣١، الذهبي: العبر ٢/٣٨٣.

كانوا معدين إلى ذلك فضربوه بسكاكينهم، فقتلوه وهربوا في الحال[1].

وفي منتصف شهر صفر من عام ٤٩٥هـ قتل الباطنية وزير السلطان السلجوقي بركيارق على أصبهان الوزير الأعز أبو المحاسن عبد الجليل بن محمّد الدهستاني، وكان الوزير مع السلطان محاصراً لأصبهان فركب الوزير من خيمته إلى خيمة السلطان، فتقدم إليه شاب من الباطنية ووثب عليه فجرحه عدة جراحات، فتفرق أصحابه عنه، ثم عادوا إليه، فوثب الباطني على أقرب واحد منهم وجرحه عدة جراحات أثخنته، ثم عاد إلى الوزير مرة ثانية يضربه بالسكين حتى تركه بآخر رمق ومات[2].

ولم يكتف الباطنية باغتيال الوزير الأكبر نظام الملك، بل امتدت أيديهم الغادرة إلى ابنه الأكبر فخر الملك أبو المظفر بن نظام الملك، وكان وزيراً للسلطان السلجوقي سنجر بنيسابور، وكان رحمه الله في ذلك اليوم الذي اغتالته فيه الباطنية صائماً، وكان قد رأى في المنام في ليلة ذلك اليوم الحسين بن عليّ وهو يقول له: عجل إلينا وافطر عندنا هذه الليلة، وعندما ذكر ذلك لأصحابه نصحوه بعدم الخروج ذلك اليوم من المنزل، فما خرج إلا في آخر النهار، فرأى شاباً يتظلم وفي يده رقعة فقال: ما شأنك، فناوله الرقعة وبينما هو يقرأ الرقعة وثب عليه ذلك الشاب وكان من الباطنية، فضربه بخنجر كان بيده فقتله، وقبض على الباطني ورفع إلى السلطان فقرره فأقر، على جماعة من أصحاب الوزير أنهم أمروه بذلك، وكان

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٣٠، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٣٣٦، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٩٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٣٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٦٧.

كاذباً، فأخذوا وقتلوا بغير ذنب اقترفوه، ثم قتل الباطني بعدهم وفصل على قبر فخر الملك عضواً عضواً كما قال ابن تغري بردي[1].

وفي عام ٤٩٥هـ امتدت أيدي الباطنية إلى قائد من القادة المسلمين الذين وقفوا في وجه الزحف الصليبي وجاهد ضدهم، ألا وهو جناح الدولة حسين صاحب حمص، فلقد كان جناح الدولة من ألد أعداء القائد الصليبي ريموند، حيث أن جناح الدولة وقف في وجهه وحد من أطماعه التوسعية في بلاد الشام ولم يستطع ريموند التحرك بحرية إلا بعد أن قتل جناح الدولة. أما كيفية قتله، فلقد نزل رحمه الله من القلعة إلى الجامع الكبير ليؤدي صلاة الجمعة وحوله أصحابه، فتقدم إليه ثلاثة أشخاص من الباطنية في زي الزهاد، وأخذوا يسألونه ويستميحونه فوعدهم، فوثبوا عليه بسكاكينهم فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه، قال عنه ابن تغري بردي: كان أميراً مجاهداً شجاعاً يباشر الحروب بنفسه[2].

وفي عام ٤٩٩هـ أرسل أبو طاهر الصائغ زعيم الباطنية في الشام جماعة من الباطنية إلى خلف بن ملاعب صاحب حصن أفامية فقتلوه بالاتفاق مع رجل يعرف باسم أبو الفتح السرميني أحد دعاة الباطنية هناك فأعملوا الحيلة، وأحضروا معهم حصاناً وبغلة وعدداً إفرنجية، وخرجوا من حلب إلى أفامية بتلك العدة والدواب، ولما وصلوا إلى أفامية قالوا لسيف الدولة خلف بن ملاعب: جئنا قاصدين خدمتك،

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط ٢/ ورقة ٣٣ أ، ابن الأثير: الكامل ١٠/٤١٨، ٤١٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٩٤، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٦٧.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط ١٣/ ورقة ١٣٩ أ، ابن أبي الدم: التاريخ المظفري، مخطوط، ورقة ٤٤٨ ب، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٦٨، ١٦٩، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٢٣٠، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١/٣٤٦، ٣٤٧.

وفي الطريق لقينا فارساً من الفرنج فقتلناه وجئنا إليك بحصانه وبغلته وعدته، فأكرمهم وأنزلهم بجوار حصن أفامية في دار محاذية للسور، فنقبوا نقباً في السور حتى وصلوا إليه، فلما أحس بهم ابن ملاعب لقيهم فوثبوا عليه وطعنوه بالخناجر حتى مات، ووافقهم على ذلك جماعة من أهل أفامية، كانوا من الباطنية[1].

ومن الفقهاء الذين اغتالتهم الباطنية شيخ الشافعية ببلاد العجم عبد الواحد ابن إسماعيل أبو المحاسن الروياني، قتلوه يوم الجمعة في الجامع بطبرستان، وكان رحمه الله من أئمة الشافعية، رحل إلى الآفاق حتى بلغ ما وراء النهر، وحصل علوماً جمة، وسمع الحديث الكثير، وصنف كتباً في المذهب، من ذلك كتاب البحر في الفروع وهو حافل شامل للغرائب وغيرها، وفي المثل يقال: ((حدث عن البحر ولا حرج))، وكان يقول رحمه الله لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من حفظي[2].

ومن الوزراء الذين حاول الباطنية اغتيالهم الوزير أبو نصر ابن الوزير نظام الملك، حيث خرج إلى الجامع للصلاة فوثب عليه جماعة من الباطنية وضربوه بالسكاكين، وجرحوه في رقبته عدة جراحات، فبقي مريضاً مدة، ثم شفي، وقبض على الباطني الذي جرحه فسقي الخمر حتى سكر، ثم سئل عن أصحابه فأقر على جماعة منهم بمسجد المأمونية، فأخذوا وقتلوا وكان ذلك في شعبان من عام ٥٠٣هـ[3].

ومن القادة المسلمين الذين قتلوا بيد الباطنية، القائد الأمير مودود صاحب

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب ص١٢٩، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٢٤٢، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣٦/٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٧٠/١٢، ١٧١، الذهبي: دول الاسلام ٣١/٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٩٨/٣، ابن الأثير: الكامل ٤٧٣/١٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٤٧٨/١٠، ابن كثير: البداية والنهاية ١٧١/١٢.

الموصل الذي جاهد طويلا ضد الصليبيين، وحاول توحيد الجبهة الإسلامية ضدهم، ولم تنثن له عزيمة في هذا المجال، ففي عام ٥٠٧هـ بعث السلطان غياث الدين محمّد السلجوقي جيشاً كبيراً فيه مجموعة من الأمراء، ومنهم سكمان القطبي صاحب تبريز[١]، وأحمديل صاحب مراغة[٢]، والأمير ايلغازي صاحب ماردين[٣]، وعلى الجميع الأمير مودود صاحب الموصل لقتال الفرنج بالشام، فجاهد هؤلاء الأمراء بقيادة الأمير مودود الصليبيين فهزموهم في أكثر من موقعة، وانتزعوا من أيديهم حصوناً كثيرة، وبعد جهاد طويل أذن الأمير مودود للعساكر بالراحة على أن يجتمعوا في الربيع مرة أخرى لجهاد الصليبيين، فدخل الأمير مودود دمشق في شهر ربيع الأول من نفس السنة ليصلي الجمعة في الجامع الكبير، فلما فرغ من الصلاة خرج إلى صحن الجامع، فجاءه باطني في زي سائل فطلب منه شيئاً فأعطاه فلما اقترب منه وثب عليه وضربه بخنجر في فؤاده فمات، وكان رحمه الله صائماً فحاول أصحابه معه في لحظاته الأخيرة ليفطر فرفض وقال: لا لقيت الله إلا صائماً، ومات في آخر النهار، قال ابن الأثير: إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه، وبعد مقتل الأمير مودود جاء كتاب من الفرنج إلى المسلمين وفيه: أن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها[٤]. وهكذا قدم الباطنية للصليبيين

---

(١) تبريز: من أشهر مدن أذربيجان وهي قصبتها، وهي مدينة حصينة ذات أسوار محكمة، ياقوت: معجم البلدان ١٣/٢، القزويني: آثار البلاد ص٣٣٩.

(٢) مراغة: مدينة كبيرة مشهورة وهي أشهر بلاد أذربيجان. ياقوت: معجم البلدان ٩٣/٥، القزويني: آثار البلاد ص٥٦٢.

(٣) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل بالجزيرة. ياقوت: معجم البلدان ٣٩/٥، القزويني: آثار البلاد ص٢٥٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٤٩٦/١٠، ٤٩٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٧٣/١٢، أبو شامة: الروضتين ٢٧/١، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص١٩٩.

ما كانوا يتمنونه دون أي ثمن، وخسر العالم الإسلامي قائداً عظيماً من قادة الجهاد الإسلامي، وفرح الصليبيون بموته فرحاً شديداً.

وفي الأول من المحرم عام ٥١٠هـ حضر أتابك طغتكين صاحب دمشق إلى دار السلطان محمّد السلجوقي ببغداد، وحضر في نفس الوقت جماعة من الأمراء منهم أحمديل بن إبراهيم، وهسوذان الروادي صاحب مراغة الذي صاحب الأمير مودود جنباً إلى جنب في جهاده ضد الصليبيين، وبينما كان أحمديل صاحب مراغة جالساً إلى جانب طغتكين أتاه رجل متظلم، وبيده رقعة وهو يبكي ويسأله أن يوصلها إلى السلطان، فأخذها من يده، فوثب الرجل على الفور على أحمديل وضربه بسكين فجذبه أحمديل وتركه تحته فوثب رفيق للباطني كان موجوداً وضرب أحمديل سكيناً أخرى، فهب الحاضرون وأخذت سيوفهم تلعب على الرجلين الباطنيين، وبينما هم كذلك إذ أقبل رفيق لهما باطني ثالث وضرب أحمديل ضربة ثالثة فقضى عليه ومات، فعجب النّاس من إقدامه بعد قتل صاحبيه أمامه[1].

وطالت أيدي الباطنية وزيراً آخر من وزراء الدولة السلجوقية وقتلته شر قتلة، ففي سلخ صفر من عام ٥١٦هـ قتلت الباطنية الوزير الكمال أبو طالب السيرمي، وزير السلطان السلجوقي محمود، وكان قد استعد للمسير مع السلطان إلى همذان، وبينما هو في الطريق وحوله رجاله واجتاز طريقاً ضيقاً، فتقدم أصحابه أمامه لضيق الطريق، فوثب عليه باطني وضربه بسكين فوقعت في البغلة، وهرب الباطني على الفور فلحق به رجال الوزير، فظهر باطني آخر وضربه بسكين في حاصرته وجذبه عن البغلة إلى الأرض وضربه عدة ضربات حتى أجهز عليه، ثم

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٥١٦، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٣١٥، الذهبي: دول الاسلام ٢/٣٦.

عاد أصحاب الوزير فتصدى لهم رجلان باطنيان فانهزموا منهما، لكنهم عادوا وقبضوا على الباطنيين وتفقدوا الوزير فوجدوه مقتولا وقد ذبح مثل الشاة، وبه نيف وثلاثون جراحة، فقتل أصحابه الباطنية الذين قتلوه[1].

وامتدت أيدي الباطنية أيضا إلى قائد آخر من قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين وضد الباطنية، فاغتالته غدراً في المسجد الجامع بعد صلاة الجمعة ألا وهو قسيم الدولة آقسنقر البرسقي صاحب الموصل ثم حلب، وكثير من مدن الشام، فلقد جاهد قسيم الدولة الصليبيين كثيراً، فخرج يوم الجمعة لأداء صلاة الجمعة مع العامة في المسجد، وكان قد رأى تلك الليلة في منامه أن عدداً من الكلاب ثارت به، فقتل بعضها ونال منه الباقي ما آذاه، فلما أخبر أصحابه بذلك أشاروا عليه بعدم الخروج من داره عدة أيام، فقال: لا أترك صلاة الجمعة لأي سبب من الأسباب، وعزم على الخروج إلى الجامع، وأخذ المصحف ليقرأ فيه، فأول ما وقع بصره على الآية ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ فجلس في الصف الأول كعادته، وبينما هو يصلي وثب عليه بضعة عشر نفراً من الباطنية عدة الكلاب التي رآها في المنام، فجرحوه بسكاكينهم، وجرح هو بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان كما يقول ابن العديم عنه سيفاً على الباطنية[2].

ومن الوزراء المخلصين الذين اغتالتهم يد الباطنية، معين الملك أبو نصر أحمد ابن الفضل وزير السلطان السلجوقي سنجر، ذكر أنه فتك بجماعة من الباطنية، وكان

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٦٠١/١٠، النويري: نهاية الأرب ٢٣/٢٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٩٠/١٢، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٣٢٨.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب ص٢١٣، ٢١٤، النويري: نهاية الأرب ٢٦/٢٧، ابن الأثير: الكامل ٦٣٣/١٠، ٦٣٤، أبو شامة: الروضتين ٣٠/١، ابن الجوزي: المنتظم ٢٥٤/٩، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٠٢.

له في قتالهم آثار حسنة ونية صالحة، وكان يحرض السلطان على النكاية فيهم، فوجد الباطنية أن هذا الوزير خطر عليهم ولا بد من التخلص منه، فرتبوا الأمر وأرسلوا أحد سفهائهم لخدمته، فلم يزل يتحيل إلى أن خدم في اصطبل دوابه سائساً لبغاله، وقام في خدمته إلى أن وجد الفرصة سانحة فوثب عليه وهو غافل يتفقد دوابه فقتله وقبض على الباطني وقتل بعده مباشرة، وكان هذا الوزير موصوفاً بجميل الأفعال وحميدها، ومتانة الدين، وحسن اليقين، والإنصاف في أعماله والتسديد في أقواله، فرزقه الله الشهادة على حسن نيته[1].

وفي عام ٥٢٣هـ وثب الإسماعيلية الباطنية على الفقيه عبد اللطيف بن الخجندي رئيس الشافعية بأصبهان فقتلوه، وكان ذا رئاسة عظيمة، وتحكم كثير، يسمع له النّاس ويطيعون[2].

وفي عام ٥٢٤هـ ملك السلطان السلجوقي سنجر مدينة سمرقند، وجعل رجلاً اسمه نصرخان بن أرسلان خان محمّد نائباً له فيها، وكان بسمرقند رجل علوي باطني، فقيه، مدرس، إليه الحل والعقد والحكم في البلد، فاتفق هذا الباطني مع رئيس الشرطة في البلد على قتل نصر خان، فقتلاه ليلاً، وكان والد نصر غائباً عن البلد، فلما سمع بمقتل ابنه عظم عليه الأمر، فأرسل إلى ابنه الثاني الذي في بلاد التركستان فحضر، ثم توجها إلى سمرقند فلما قاربا المدينة خرج العلوي ورئيس الشرطة لاستقباله، فهجم على العلوي وقتله في الحال، وقبض على رئيس الشرطة[3].

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٣٢٤، ابن الأثير: الكامل ٦٤٧/١٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٣٢/٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٦٥٩/١٠، ٦٦٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٦٦١.

ومن القادة المسلمين الذين كان لهم جهد مشكور في محاربة الصليبيين والفتك بالباطنية تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق، فبعد استفحال أمر الباطنية في دمشق، وطال أذاهم كل فرد إما بالسب أو السلب أو القتل ومراسلتهم للصليبيين، قرر تاج الملوك بوري الفتك بهم وتطهير البلد منهم، فبدأ أولا بوزيره المزدقاني الذي وافقهم على ذلك وساعدهم في بث حبائل شرهم فقتله، ثم نادى في البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف نفس[1]. ولما علم الباطنية في آلموت بما جرى لأصحابهم في دمشق أسفوا عليهم، وحزنوا على ما نزل بهم، فقرروا الانتقام لهم، فندبوا لتاج الملوك من يغتاله من فدائيتهم، فأرسلوا اثنين منهم إلى دمشق، واستطاعا بالحيلة والخداع أن يصبحا من المرتبين لحفظ ركاب تاج الملوك، ولما تمكنا منه، وأتيحت لهما الفرصة وثبا عليه عند باب داره بعد عودته من الحمام وتفرق أصحابه عنه، فضربه أحدهما بالسيف طالباً رأسه، فجرحه في رقبته جرحاً لم يتمكن منه، وضربه الآخر بسكين في خاصرته ورمى تاج الملوك بنفسه في الحال من على فرسه سليماً، وحضر أصحابه على الفور وقبضوا على الباطنيين وقطعوهما بالسيوف، وعولجت جراح تاج الملوك، فبرأ الجرح الذي عند الرأس، وتنسر الذي في الخاصرة وعاش سنة بعد الحادث حيث توفي في عام ٥٢٦هـ متأثراً بالآم الجرح الذي في خاصرته[2].

وفي عام ٥٢٧هـ اغتال الباطنية أقسنقر الأحمديلي، صاحب مراغة دون أي ذنب اقترفه[3].

---

(١) اليافعي: مرآة الجنان ٣/٢٢٩.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط ٢/ ورقة ١٦٢ ب، ابن واصل: التاريخ الصالحي، مخطوط ورقة ١٨٢ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٣٦٥،٣٦٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٨٦.

ولم يقف إجرام الباطنية عند حد اغتيال القادة والوزراء والعلماء بل طمعت نفوسهم بأكبر من ذلك، ففي هذه المرة طالت أيديهم الغادرة الخليفة العباسي المسترشد بالله ثم ابنه الراشد، ففي عام ٥٢٩هـ ظهر لأمير المؤمنين الخليفة المسترشد بالله أمور لم يستحسنها من السلطان مسعود بن ملكشاه ابن أخي السلطان سنجر، حيث أن الخليفة أقره في السلطنة وأمر بالدعاء له على المنابر، فاستعطفه ثم ناصحه فلم ينفع ذلك معه، فتجهز الخليفة لردعه، وصده عن ذلك وزحف بجيشه، ودارت بين الطرفين معركة انهزم فيها جيش الخليفة المسترشد، ووقع الخليفة نفسه في الأسر، فأنزله السلطان مسعود في خيمة، ووكل به من يحفظه، وقام بما يجب له من الخدمة، وكانت خيمة الخليفة منفردة عن خيام العسكر، فدخل عليه في خيمته بضعة عشر نفراً من الباطنية فقتلوه، وجرحوه ما يزيد على عشرين جرحاً، ومثلوا به، فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً، وقتلوا معه نفراً من أصحابه، ثم قبض على أولئك الباطنية فقتلوا ثم أحرقوا جميعاً[١].... وكان رحمه الله كما يقول ابن القلانسي: عالماً تقياً فاضلاً، حسن الخط بليغاً نافذاً في أكثر العلوم، عارفاً بالفتوى واختلاف الفقهاء فيها[٢].

أما الخليفة الراشد بن المسترشد فلقد اغتالوه في أصبهان في السابع والعشرين من شهر رمضان عام ٥٣٢هـ ودفن هناك بأصبهان[٣].

---

(١) ابن أبي الدم: التاريخ المظفري، مخطوط، ورقة ٤٦٣ أ، ابن واصل: التاريخ للصالحي، مخطوط ورقة ١٨٤ أ، ابن كثير: البداية والنهاية ٢٠٨/١٢، ابن الأثير: الكامل ٢٧/١١.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٣٩٧.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي، مخطوط ورقة ١٨٥ ب، أبو شامة: الروضتين ٣١/١، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٤١٩، ابن الأثير: التاريخ الباهر ص٥٥، الذهبي: دول الاسلام ٥٣/٢.

وفي عام ٥٢٩هـ قتلت الباطنية صاحب دمشق شمس الملوك إسماعيل بن بوري ابن طغتكين وكان شجاعاً مقداماً أسعر بلاد الفرنج بالغارة[١]. وقال عنه ابن العماد واليافعي: كان موصوفاً بالشجاعة كثير الإغارة على الفرنج، أخذ منهم عدة حصون[٢].

واغتال الباطنية في عام ٥٣٤هـ المقرب جوهر أحد خدم السلطان سنجر السلجوقي، وكان قد حكم في دولة السلطان سنجر جميعها، وكان من جملة مماليكه عباس صاحب الري التي هي من إقطاعه. اعترض جوهر جماعة من الباطنية كانوا يلبسون زي النساء، وكن يستغثن به، فوقف جوهر يسمع كلامهم فوثبوا عليه وقتلوه، فلما قتل، جمع صاحبه عباس العساكر وقصد الباطنية فقتل منهم وأكثر، وفعل بهم ما لم يفعله غيره، ولم يزل يغزوهم ويقتل فيهم ويخرب بلادهم إلى أن مات[٣].

وفي شهر رمضان من عام ٥٣٨هـ وردت الأخبار بقتل السلطان داود بن السلطان محمود بن محمّد بن ملكشاه، بيد نفر ندبوا لقتله، فاغتالوه وقتلوه، ولم يعرف لهم أصل ولا جهة، ولا علم مستقرهم[٤].

ومرة أخرى امتدت أيدي الباطنية محاولة النيل من قائد عظيم من قادة الجهاد

---

(١) الذهبي: دول الاسلام ٢/٥٠، ابن أبي الدم: التاريخ المظفري مخطوط، ورقة ٤٦٣ أ.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ٤/٩٠، اليافعي: مرآة الجنان ٣/٢٥٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط ١٣/ ورقة ٢٦٠ب، ابن الأثير: الكامل ١١/٧٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٢٦٦، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/١٥.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٤٣٣، يقول برنارند لويس أنه قتل من قبل أربعة من الحشيشية الباطنية بالشام، انظر برناند لويس: الحشيشية ص٨٣.

الإسلامي ضد الصليبيين والباطنية، هذا القائد البطل هو صلاح الدين الأيوبي هازم الصليبيين في موقعة حطين الشهيرة، والذي عمل جاهداً على توحيد الجبهة الإسلامية في مصر والشام ليقف على أرض ثابتة في جهاده ضد الغزاة المعتدين، فكان جزاء هذا القائد المسلم محاولتين آثمتين من قبل الباطنية لاغتياله، المحاولة الأولى كانت في عام ٥٧٠هـ حين أراد أن يوحد بلاد الشام تحت قيادة واحدة، ويقضي على الزعامات الصغيرة المنتشرة في كل مكان، حتى يتسنى له مواجهة الصليبيين بجبهة إسلامية واحدة موحدة، فلما كان محاصراً لحلب لأخذها من حاكمها الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين لضمها إلى مشروع الوحدة، أرسل سنان رئيس الباطنية في الشام مجموعة من الفدائيين الباطنية إلى صلاح الدين ليغتالوه، فرآهم أمير إسمه خمارتكين كان عند صلاح الدين فعرفهم بسبب مجاورته لهم، فقال لهم: ما الذي جاء بكم إلى هنا، وماذا تريدون؟ فهجموا عليه وجرحوه جراحات مثخنة، ثم حمل واحد منهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه، وقاتل الباقون من الباطنية أصحاب صلاح الدين، وحاولوا الوصول إليه لكنهم فشلوا فقتلوا جماعة منهم ثم قتلوا[1].

أما المحاولة الثانية لاغتياله، فكانت عندما كان محاصراً لقلعة أعزاز، فكان على عادته يشاهد كل ليلة آلات القتال، ويحرض الرجال على الحرب، فحضر في إحدى الليالي إلى خيمة أحد أمرائه والباطنية في زي الأجناد وقوف بين يديه، فقفز واحد منهم على السلطان صلاح الدين فضربه بسكين في رأسه وجرحه، ولولا أن

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي، مخطوط ورقة ١٩٨ب، ابن الأثير: الكامل ٤١٩/١١، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٥٧/٣، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٣٠٠/٥.

السلطان كان لابسا المغفر تحت القلنسوة لقتله، فأمسك السلطان يد الباطني بيده ليمنعه من الضرب، لكنه لم يقدر على منعه بالكلية، وبقي يضرب ضرباً ضعيفاً، فأدرك السلطان أحد مماليكه فأمسك السكين من الباطني بيده، فجرحه الباطني، ولم يطلق المملوك السكين من يده إلى أن قتل الباطني، ثم هجم باطني ثان على السلطان فتصدى له الجنود وقتلوه، ثم هجم باطني ثالث فقتلوه أيضاً وخرج باطني رابع من الخيمة منهزماً فأدركته العساكر وقتلوه[1].

وفي عام ٥٧٣هـ قتل الباطنية أحد أعيان مدينة حلب وهو أبو صالح بن العجمي، وكان هذا الرجل مقدماً عند نور الدين محمود، فلما مات نور الدين تقدم أيضاً في دولة ولده الملك الصالح، وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكن لكثرة أتباعه، فبينما هو في الجامع الكبير في حلب يؤدي صلاة الجمعة، وثب عليه بعض الأفراد من الباطنية وقتلوه ومضى شهيداً إلى ربه[2].

ومن الوزراء الذين اغتيلوا بيد الباطنية، الوزير عضد الدولة أبو الفرج محمّد ابن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء وزير الخليفة، كان رحمه الله قد عزم على الحج، فخرج النّاس في خدمته ليودعوه، فتقدم إليه ثلاثة من الباطنية في صورة فقراء ومعهم قصص يشكون للوزير، فتقدم أحدهم ليناوله قصة فهجم عليه وضربه بسكين ضربات مركزة، ثم هجم عليه الثاني ثم الثالث حتى قطعوه، وجرحوا جماعة ممن حول الوزير، ثم قبض على الباطنية الثلاثة وقتلوا على الفور[3].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٤٤- ٤٥، ابن واصل: التاريخ الصالحي مخطوط ورقة ١٩٩أ، سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط، ١٤/ ورقة ١٢٢ب، الذهبي: دول الاسلام ٢/٨٥.

(٢) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط ٣/ ورقة ١٤٦أ، ابن الأثير الكامل ١١/٤٤٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٩٨، ابن الأثير: الكامل ١١/٤٤٦، ٤٤٧، أبو شامة: الروضتين ١/٢٧٨، الذهبي: دول الاسلام ٢/٨٦.

ومن السلاطين الذين قتلتهم الباطنية سلطان خلاط[1] بكتمر، الذي تولى السلطنة في خلاط بعد وفاة صاحبها شاه أرمن، فضبط الأمور، وأحسن إلى الرعية، وعدل فيهم، وكان يصاحب العلماء، حسن السيرة متصدقاً، جاءه في أحد الأيام أربعة من الباطنية يلبسون زي الصوفية، فتقدم إليه واحد منهم وبيده قصة، فأخذها السلطان منه ليقرأها، فوثب عليه بسكين فشق جوفه على الفور، فمات من ساعته، وقبض على الباطنية الأربعة فقرروا فأقروا بأنهم إسماعيلية باطنية فقتلوا وأحرقوا[2].

ومن الوزراء المسلمين الذين اغتالتهم الباطنية نظام الملك مسعود بن عليّ وزير خوارزم شاه تكش، وثب عليه بعض رجال الملاحدة الإسماعيلية فقتلوه، وكان رحمه الله صالحاً كثير الخير حسن السيرة[3].

كما أنهم اغتالوا القائد المسلم شهاب الدين الغوري، ملك غزنة وبعض بلاد خراسان، الذي فتح كثيراً من بلاد الهند ونشر الاسلام فيها، كما أنه كان يتعقب الباطنية ويحاول أن يقلص من نفوذهم، وكان له جيش يحاصر بعض قلاعهم باستمرار، وبعد عودته من بلاد الهند خاف الباطنية من خروجه إلى خراسان لمحاربتهم، فأرسلوا إليه بعض رعاعهم، وتربصوا به حتى تمكنوا من قتله في أول شعبان سنة ٦٠٢هـ[4].

---

(١) خلاط: مدينة كبيرة مشهورة، وهي قصبة أرمينيا الوسطى، ولها سور حصين. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/٣٨٠، القزويني: آثار البلاد ص٥٢٤.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط ١٤/ ورقة ١٩٤أ، ابن واصل: التاريخ الصالحي، مخطوط، ورقة ٢٠٩ب، الذهبي: دول الاسلام ٢/١٠٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٢/١٥٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٢/٢١٣، الذهبي: دول الاسلام ٢/١٠٩.

وفي عام ٦٠٨هـ أظهرت الباطنية الإسلام في بعض قلاعها، وأقامت الحدود على كل من يتعاطى الحرام، وبنوا الجوامع والمساجد، وكتب زعيمهم جلال الدين إلى الخليفة العباسي يخبره بذلك، وقدمت إلى بغداد جماعة منهم يريدون الحج إلى مكة، فأكرموا لأجل ذلك، ولما كانوا بمنى وثب واحد من هؤلاء الباطنية على قريب لأمير مكة قتادة الحسيني، فقتله ظاناً أنه قتادة، فثارت فتنة بين أهل مكة وحجاج العراق، ونهب الحَجّاج وقتل منهم خلق كثير[١]. فهذا هو أسلوب الباطنية على مدى العصور والأيام، أسلوب قائم على الخداع والحيلة والتربص بالمسلمين، ومحاولة النيل منهم بشتى الطرق والوسائل حتى وهم يؤدون عباداتهم في المساجد أو الأماكن المقدسة، فلا تمنعهم من ذلك حرمة الله ولا حرمة النّاس ولا حرمة المكان، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

وفي عام ٦١٤هـ اغتال الباطنية أغلمش صاحب بلاد الجبل، وكان أغلمش لما ملك بلاد الجبل خطب لخوارزم شاه فيها، فلما اغتيل سار خوارزم شاه إلى بلاد الجبل، وبسط سيطرته عليها لئلا تخرج عن طاعته، ويعبث بها الباطنية[٢].

وكذلك طالت أيدي الباطنية أميراً كبيراً من نواب الدولة الخوارزمية وقتلته، ففي عام ٦٢٤هـ اغتال الباطنية أميراً من أمراء جلال الدين بن خوارزم شاه، وكان جلال الدين قد أقطع هذا الأمير مدينة كنجة[٣] وأعمالها وكان نعم الأمير، كثير الخير، حسن السيرة، ينكر على جلال الدين ما يفعله عسكره من النهب وغيره،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٦٢/١٣، ابن الأثير: الكامل ٢٩٧/١٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٣١٦/١٢.

(٣) كنجة: مدينة عظيمة وهي قصبة بلاد أران، وكنجة أيضاً من نواحي لرستان بين خوزستان وأصبهان. انظر ياقوت: معجم البلدان ٤٨٢/٤.

فلما علم جلال الدين بمقتل هذا الأمير العظيم غضب غضباً شديداً، فجمع عساكره وسار بهم إلى بلاد الإسماعيلية الباطنية من حدود آلموت إلى كردكوه بخرسان، فخربها وقتل أهلها، ونهب الأموال وسبي الحريم، واسترق الأولاد، وقتل الرجال، وانتقم منهم شر انتقام وكانوا قد عظم شرهم وازداد ضرهم، وتربصوا بالمسلمين الدوائر، لكن جلال الدين كف عاديتهم وقمعهم، ولقاهم الله ما عملوا بالمسلمين[1].

هذا ما أسعفتنا به المصادر والمراجع المتوفرة بين أيدينا عن أسماء القادة والخلفاء والوزراء والسلاطين والعلماء الذين اغتالتهم أيدي الباطنية، ولكن ما خفي هو أكبر وأعظم، فهناك عشرات الشخصيات والأسماء ممن اغتالتهم الباطنية ذكرت في المصادر الإسماعيلية النزارية، ولكن للأسف ما زال غالب هذه المصادر مفقوداً، ولم يعرف بالتحديد إجمالي الأعداد التي اغتالتها الباطنية من القادة والعلماء وعامة النّاس لكن هناك إشارة من المؤرخ الإنجليزي برنارندلويس يقول فيها: ((وفي ملف للحشيشية الوارد لدى مؤرخي آلموت هناك سجل بحوالي خمسين اغتيالاً وقعت خلال حكم الحسن بن الصباح فقط))[2].

وقائمة الاغتيالات التي تمت في بلاد فارس خلال حكم بيزرك أميد خليفة الحسن بن الصباح في آلموت هي بالمقارنة قصيرة مع فترة حكم الحسن بن الصباح، فكان عدد الاغتيالات في عهد بيزرك أميد أربعة عشر اغتيالاً، وكان أبرز الضحايا فيها السلطان السلجوقي داود الذي قتل في تبريز من قبل أربعة حشيشية من

(١) ابن الأثير: الكمل ١٢/٤٧٠، ابين كثير: البداية والنهاية ١٣/١١٧، برنارندلويس: الحشيشية ص٩٩-١٠٠.
(٢) برناندلويس: الحشيشية ص٦٦.

الباطنية، وأمير في بلاد السلطان سنجر وواحد من زملائه، وأمير في بيت خوارزم شاه، وحكام محليون في جورجيا[1] ومزندان[2]، وكذلك قضاة قوهستان وتفليس[3] وهمذان الذين حرضوا على قتال الباطنية[4].

(١) جورجيا: فارسية سماها العرب بلاد الكرج وهي كرجستان، وهي مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق وهي إلى همذان أقرب. أنظر: ياقوت: معجم البلدان ٤/٤٤٦- كيليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٢١١، ص٢١٦.

(٢) مزندان: اسم لولاية طبرستان في بلاد فارس. ياقوت: معجم البلدان ٥/٤١.

(٣) تفليس: بلد بأرمينية، والبعض يقول بأنها في أران قرب باب الأبواب. ياقوت: معجم البلدان ٢/٣٥.

(٤) برنارندلويس: الحشيشية ص٨٢-٨٣.

المبحث الثالث

إفساد المجتمع الإسلامي من الداخل

لم يقتصر دور الباطنية على اغتيال القادة المسلمين بل عملوا على نشر فسادهم ورعبهم وفتكهم إلى كافة طبقات المجتمع الإسلامي، فأخذوا ينشرون الرعب بين النّاس بقطع الطريق والاعتداء على سكان القرى المجاورة لهم، فيذبحونهم ويستولون على ما لديهم من مال ومتاع، ويأسرون أولادهم، إلى جانب ذلك لم تسلم القوافل المارة بجوار قلاعهم وحصونهم من النهب والقتل، فأصبح النّاس لا يأمنون على أنفسهم ولا على أولادهم ولا على أموالهم، ففي المحرم من عام ٥٥٦هـ جاء إلى نيسابور جماعة من تركمان بلاد فارس التجار، ومعهم أغنام كثيرة للتجارة، فباعوا ما لديهم من أغنام في أسواق نيسابور، وأخذوا ثمنها، وعادوا إلى بلادهم وفي الطريق أدركهم الليل فنزلوا في مكان يبعد عن طابس كنكلي[١] مرحلتين وناموا فيه، وفي الليل نزل إليهم الباطنية وباغتوهم وهم نائمون فوضعوا السيف فيهم فقتلوا أكثرهم ولم يسلم منهم إلا الشريد، وأخذ الباطنية جميع ما معهم من مال ومتاع وعادوا إلى قلاعهم[٢].

وفي إحدى الليالي أيضاً مرت قافلة عظيمة من كرمان[٣] إلى قاين وكان الباطنية

---

(١) طابس كنكلي: مدينة حسنة عامرة لا سور عليها وحولها كثير من القرى ملكها الاسماعيلية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وفي سنة ٤٩٤هـ حاصرها الجيش الذي بعثه السلطان سنجر السلجوقي لمقاتلة الحشيشية وخرب بعض أبنيتها، انظر كي ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٤٠٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١١/٢٨٠.

(٣) كرمان: ولاية مشهورة، وناحية معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة.

قد استولوا على قاين، وأصبحت من مناطق نفوذهم، فنزل الباطنية مع زعيمهم من بلد قاين، فاعترضوا طريق القافلة واعتدوا عليها، فقتلوا جميع أفراد القافلة، واستولوا على ما فيها من مال ومتاع ولم ينج منهم إلا رجل واحد وصل إلى كرمان، فأخبر بما حدث للقافلة، فهب أهل كرمان بقيادة القاضي الكرماني لنجدة القافلة وجهاد الباطنية، ولكنهم لم يقدروا عليهم لشدة بأس الباطنية[1]، فرجعوا إلى بلدهم والحزن والأسى والخوف قد بلغ منهم كل مبلغ.

بعد هذه الحوادث المتكررة من قبل الباطنية بقطع الطريق، وأخذ القوافل، وقتل الناس، عظم أمرهم، واشتدت شوكتهم، وقويت أطماعهم وأهم النّاس شأنهم، فعم المجتمع الإسلامي الخوف والرعب وعدم الأمان، حتى أصبح النّاس إذا جاء الليل أخفوا جميع ما لديهم من مال ومتاع في أماكن مجهولة غير معروفة خوفاً من هجمات الباطنية وأخذهم إياها، ويصور لنا ابن طباطبا في كتابه الفخري صورة حية عن هذا، وما كان يفعله النّاس إذا جاء الليل فيقول: ((حدثني الملك إمام الدين يحيى بن الإفتخاري قال: أذكرو نحن بقزوين، إذا جاء الليل جعلنا جميع ما لنا من أثاث وقماش ورحل في سراديب لنا في دورنا، غامضة خفية، ولا نترك على وجه الأرض شيئاً خوفاً من كبسات الملاحدة (الباطنية) فإذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا، فإذا جاء الليل فعلنا كذلك، ولأجل ذلك كثر حمل القزاونة (يعني أهل قزوين) للسكاكين وكثر حملهم للسلاح))[2]. وكان قاضي قضاة قزوين يلبس تحت ثيابه في

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٤.

(٢) ابن طباطبا: الفخري في الأداب السلطانية ص٣١.

كل وقت درعاً باستمرار خوفاً من أن تطوله يد الباطنية فتغتاله[1].

هذه هي حالة المجتمع الإسلامي وواقعه عند تفشي خطر الباطنية فيه، ولم يقف الباطنية عند هذا الحد، بل استمروا في عمليات السلب والنهب وقتل الآمنين من النساء والشيوخ والأطفال، ففي إحدى الليالي داهم الباطنية بنواحي قوهستان جماعة من التركمان، وحاصروا خيامهم وكان الرجال غائبين، فنهبوا الأموال، وأخذوا النساء والأطفال، وأحرقوا كل ما لم يقدروا على حمله[2].

ولم يقف هؤلاء الملاعين عند حد قطع الطريق وقتل الآمنين من النّاس وأخذ القوافل، بل أخذوا يبتكرون وسائل مختلفة للفتك بالناس ونشر الرعب بينهم، فلقد بلغ من جرأة هؤلاء المفسدين أنهم كانوا يخطفون النّاس من الشوارع والحارات بأغرب الطرق، وكان الرجل يتبع خاطفه من سكون والخوف ملجمه، والويل له إن أبدى مقاومة أو تحرك لسانه طلباً للنجدة، فإذا فعل ذلك استقر خنجر خاطفه في قلبه، فكان الإنسان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد لرجوعه، تيقن أهله بأن الباطنية قتلوه فيقعدوا للعزاء به، ويسودهم الحزن والأسى حتى يرجع، فأصبح النّاس لا يمشون في الشوارع منفردين وكانوا على غاية من الحذر. ويصور لنا المؤرخ ابن الأثير صورة لما فعله الباطنية بمؤذن خطفوه فيقول: ((وأخذوا (يعني الباطنية) في بعض الأيام مؤذناً، أخذه جار له باطني فقام أهله للنياحة عليه، فأصعده الباطنية إلى سطح داره، وأروه أهله كيف يلطمون ويبكون وهو لا يقدر أن يتكلم خوفاً منهم))[3].

---

(١) برنارندلويس: الحشيشية ص١٠٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢٣٨/١١، الذهبي: دول الاسلام ٦٩/٢-٧٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٣١٤/١٠.

ومن أساليبهم الأخرى التي استخدموها للفتك بأفراد المجتمع الإسلامي ونشر الرعب بينهم، أنهم كانوا يخطفون النّاس بحيل مختلفة ويحملونهم إلى منازل ودور غير معروفة، حيث يسجنونهم أو يقتلونهم، فكان إذا مر بهم إنسان أخذوه إلى إحدى تلك الدور، وهناك يعذبونه ثم يقتلونه ويرمونه في بئر في تلك الدار أعدت لذلك الغرض. وكانت طريقتهم في خطف الناس، أنه كان يجلس على أول الدرب المؤدية إلى إحدى هذه الدور رجل ضرير من الباطنية، فإذا مر به إنسان سأله أن يقوده خطوات في هذا الدرب، فتأخذه الرأفة والإحسان لعمل الخير فيقوده في هذا الدرب، حتى إذا وصل إلى دار من دورهم، قبضوا عليه وقتلوه ورموه في البئر[1].

ولكن لم يلبث أن اكتشف النّاس حيلة الباطنية هذه، ففتكوا بهم وقتلوهم، ففي أحد الأيام صادف أن رجلاً دخل دار صديق له فرأى فيها ثياباً وأحذية وملابس لم يعهدها، فخرج من عنده وتحدث للناس بما رآه، فداهم النّاس البيت وكشفوا عن الملابس والثياب فعرفوا أنها من المقتولين فثار النّاس وأخذوا يبحثون عمن قتل منهم، وتجردوا للانتقام من الباطنية بقيادة العالم أبي القاسم مسعود بن محمّد الخجندي الفقيه الشافعي فجمع النّاس بالأسلحة، وأمر بحفر الأخاديد، وأوقد فيها النيران، وأمر العامة من النّاس بأن يأتوا بالباطنية أفواجا ومنفردين، فيلقونهم في النار حتى قتلوا منهم خلقاً كثيراً[2].

ومن الوسائل التي استخدمها الباطنية لتبيين حقدهم على المسلمين من أهل السنة، قولهم للشعر، ففي عام ٥٧٤هـ قبض ببغداد على شاعر باطني كان ينشد

---

(١) نفس المصدر السابق ١٠/٣١٥، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص٩٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٤-٣١٥.

أشعاراً في ثلب الصحابة وسبهم، وتهجين من يحبهم، فعقد له مجلس واستنطق فأقر بأنه باطني رافضي، فأفتى الفقهاء بقطع لسانه ويديه ففعل به ذلك وطهر المجتمع منه[1].

ولم يسلم الحجّاج الآمنين من بطش الباطنية، ففي عام ٤٩٨هـ، تجمعت قوافل الحَجّاج مما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد، فوصلوا إلى خوار الري[2]، فباغتتهم الباطنية وقت السحر، فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاءوا، وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا شيئاً إلا أخذوه[3].

وفي عام ٥٢٢هـ بينما كان حجاج خراسان سائرين في طريقهم إلى الأماكن المقدسة، طلع عليهم الإسماعيلية الباطنية، فقاتلهم الحجّاج قتالاً شديداً، وصبروا صبراً عظيماً، حتى قتل أميرهم فانخذلوا، واستسلموا وطلبوا الأمان، وألقوا أسلحتهم مستأمنين، فأخذهم الإسماعيلية وقتلوهم، ولم يبقوا منهم إلا عدداً يسيراً، وقتل فيهم من الأئمة والعلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير، وفي الصباح طلع على القتلى والجرحى شيخ من الباطنية ينادي: يا مسلمين ذهبت الملاحدة، ومن أراد الماء سقيته فكان كل من يرفع رأسه أو يتكلم بكلمة أجهز عليه ذلك الشيخ وقتله حتى لم يبق منهم أحداً[4].

وفي عام ٦٠٨هـ عندما أظهر الباطنية في بعض قلاعهم الإسلام، وذهب منهم

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٣٠٠/١٢، الذهبي: دول الاسلام ٨٧/٢.

(٢) خوار الري: قرية من أعمال بيهق من نواحي نيسابور، انظر ياقوت: معجم البلدان ٣٩٤/٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٣٩٢/١٠-٣٩٣.

(٤) الذهبي: دول الاسلام ٦٨/٢، الذهبي: العبر ١٦/٣، ابن الأثير: الكامل ٢٢٥/١١.

جماعة للحج، وثب أحد هؤلاء الباطنية على أحد أقارب الأمير قتادة صاحب مكة فقتله ظناً منه أنه قتادة، فثارت الفتنة بين الحجّاج وكثر السلب والنهب فيهم[1].

ونتيجة لهذا الوضع الذي خلفته الباطنية في المجتمع الإسلامي أصبح النّاس غير آمنين ولا يثقون في بعضهم البعض، وصار كل من في نفسه ضغينة على صاحبه ادعى عليه مذهب الباطنية، فيؤخذ على الفور ويقتل[2] وهكذا حار النّاس في المجتمع الإسلامي وكأنهم غرباء على بعضهم البعض، لا أحد يكلم الثاني ولا يستطيع أن يتفوه عليه بكلمة واحدة، فقطعت الأرحام وتفككت الروابط وزادت الفرقة بين الناس.

من هذا يتبين لنا كيف عملت الباطنية على إفساد العلاقات الاجتماعية بين الناس في المجتمع الإسلامي، فأصبحت الثقة بين الأفراد معدومة، ويتضح لنا كذلك مدى انتشار وتغلغل الباطنية في المجتمع الإسلامي ووجودهم في كل مكان، وعن مدى سطوتهم والفتك بكل معارض لهم أو ناقد لفكرهم، فأصبح العلماء والكتاب لا يتحدثون عنهم إلا بالتلميح والتورية حتى لا تنالهم أيدي الباطنية، وخير شاهد على ذلك ما ذكره مؤرخ الدولة السلجوقية العماد الأصفهاني في كتابه تاريخ دولة آل سلجوق عند حديثه عن الإسماعيلية، فهو لم يتحدث عنهم بصراحة ولم يذكر إسمهم، بل تحدث عنهم بالتلميح والتورية والإشارة، وإليك ما قاله العماد الأصفهاني عن الإسماعيلية في كتابه تاريخ دولة آل سلجوق: ((قال: فنابت النوائب، وظهرت العجائب، وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا على طباعنا،

(١) ابن الأثير: الكامل ٢٩٧/١٢.

(٢) ابن أبي الدم: التاريخ المظفري، مخطوط، ورقة ٤٤٨ب، سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط ١٣/ ورقة ١٣٣أ.

وكالوا بصاعنا، وساح في العالم، وكانت صناعته الكتابة، فخفي أمره حتى ظهر وقام، فأقام من الفتنة كل قيامة، واستولى في مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة، وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعة[1] وخفيت عن النّاس أحوالهم، ودامت حتى استتبت على استتار، بسبب أن لم يكن للدولة أصحاب أخبار، وكان الرسم[2] في أيام الديلم ومن قبلهم من الملوك، أنهم لم يخلوا جانباً من صاحب خبر وبريد، فلم يخف عندهم أخبار الأداني والأقاصي، وحال الطائع والعاصي. (وهنا يضطرب الكلام ولا يستقيم المعنى، والخلاصة أن نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ألب أرسلان اقترح على السلطان بث العيون حتى لا تؤخذ الدولة من أي عدو داخلي على حين غرة)، فأجابه أنه لا حاجة بنا إلى صاحب خبر، فإن الدّنْيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء. فإذا نقل إلينا صاحب خبر، وكان له غرض، أخرج الصديق في صورة العدو، والعدو في صورة الصديق، فأسقط السلطان هذا الرسم[3] لأجل ما وقع له من الوهم، فلم يشعر إلا بظهور القوم وقد استحكمت قواعدهم، واستوثقت معاقدهم، وخافوا السبل، وأجالوا على الأكابر الأجل، وكان الواحد منهم يهجم على كبير، وهو يعلم أنه يقتل فيقتله غيلة، ولم يجد أحد من الملوك في حفظ نفسه منهم حيلة، فصار النّاس فيهم فريقين، فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة، ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة، فمن عاداهم خاف من فتكهم، ومن سالمهم نسب إلى شركهم في شركهم.

وكان النّاس منهم على خطر عظيم من الجبهتين. فأول ما بدأوا بقتل نظام

---

(١) هذا الرجل الذي يقصده العماد الكاتب هو الحسن بن الصباح زعيم الباطنية النزارية.

(٢) أي السياسة المتبعة.

(٣) أي لم يضع السلطان عيوناً للدولة خوفاً من هذا السبب.

الملك، ثم اتسع الخرق وتفاقم الفتق، ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف[1]، تطرقت إلى جميع أصناف النّاس التهم، ودب إلى البرىء السقم وتوفرت على التوقي الهمم، وتعين على السلطان أن يكاشفهم مدافعاً لئلا ينسبه العوام وأهل الدين إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد. كما جرى لملك كرمان فإن الرعية اتهموه بالميل إلى القوم فبطشوا به وقتلوه وأقاموا ملكاً آخر مقامه، وما كان سلطان يلي يثق بخواصه[2] وسعى ذوو الأغراض في ذوي اختصاصه. ولما عرفوا جد السلطان في إبادة القوم سعى بعض النّاس ببعض. وأحب وصمه الإلحاد لسابق عداوة وبغض، ووسمه باسم لم يمحه عنه غير السيف، ولم يجد محيداً عن التزام الحيف، وبقي[3] في هذه الاصطكاكات والاصطدامات خلق كثير، وجم غفير، ولم يبق للأكابر في دفع ماعرا رأي ولا تدبير))[4].

إن كلام العماد الأصفهاني هذا عن الباطنية يدلنا على ماكان لهم من شأن وخطر في المجتمع الإسلامي، حتى اضطر مؤرخ معروف، وكاتب مشهور إلى التلميح بأمرهم عند الكتابة في كتاب كان الهدف منه تسجيل تاريخ الدولة السلجوقية، ونحن نعرف ما كانت عليه هذه الدولة من قوة وغيرة على الإسلام ومحاربة كل القوى الخارجة التي أرادت أن تنال من الإسلام والمسلمين، ولكن على ما يبدو أن أمر الباطنية ازداد واستشرى عندما مات أقوى رجلين في الدولة

---

(١) أي أن جماعة الباطنية كانوا من مختلف الأجناس والأقوام، بحيث أصبح كل شخص يشك في أن يكون رفيقه منهم.

(٢) أصبح السلطان لا يثق بحاشيته، فخاف أن يكون أحدهم من الباطنية لأنهم كانوا من جميع طبقات المجتمع.

(٣) أي مات في هذه الأحداث.

(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص٦٨-٦٩.

السلجوقية السلطان ملكشاه والوزير نظام الملك، ووقوع الخلاف بين أولاد ملكشاه، ونشوب الحرب بينهم تنازعاً حول العرش... هذا الجو من الخلاف أتاح الفرصة المناسبة للباطنية لبث أفكارهم وتوسيع دائرة نشاطهم، فاستولوا على مزيد من القلاع والحصون وبثوا الفتن والدسائس بين النّاس، حتى أصبح خطرهم وفسادهم في المجتمع الإسلامي ما رأيناه وقرأناه.

المبحث الرابع

موقف القادة المسلمين من الباطنية

بعد استفحال أمر الباطنية في المجتمع الإسلامي، وأصبحوا يهددون كل فرد من أفراده، وباستيلاء زعيم الباطنية الحسن بن الصباح على قلعة آلموت الحصينة عام ٤٨٣هـ، وانتشار الفدائيين يغتالون الآمنين، لم يقف الحكام المسلمون مكتوفي الأيدي أمام هذا الخطر الغاشم الذي أخذ يهدد الدولة الإسلامية من داخلها، فشمروا عن ساعد الجد لاجتثاث هذا الخطر وتطهير المجتمع الإسلامي منه، واستخدموا من أجل ذلك وسائل وأساليب مختلفة، فبعد استيلاء الحسن بن الصباح على قلعة آلموت أرسل إليه السلطان السلجوقي ملكشاه أحد العلماء المسلمين لمناظرته هو وأتباعه لعلهم يرجعون إلى جادة الصواب[1]. ولكن يبدو أن هذه المناظرة لم تحقق الهدف الذي كان يرجوه السلطان ملكشاه من محاولة إقناعهم بالحكمة والموعظة الحسنة. ومن ثم لجأ إلى العمل المسلح لقمع هؤلاء المفسدين فأرسل في أوائل عام ٤٨٥هـ أحد قواده المعروف باسم الأمير أرسلان تاش على رأس جيش كبير لمحاربة الحسن بن الصباح، فحاصر قلعة آلموت وضيق عليها الخناق حتى كادت المؤن التي بداخلها أن تنفذ، فكان المحاصرون يعيشون على ما يسد الرمق من قليل القوت، واستمر الحصار لقلعة آلموت قرابة الأربعة أشهر، فلما أحس الحسن بن الصباح بالضيق أرسل إلى داعيته الباطني في قزوين دهدار بوعلي يطلب منه النجدة ومساعدته في فك الحصار عن القلعة، فأرسل الداعي دهدار

---

(١) انظر ما سبق ص١٤.

بوعلي ثلاثمائة رجل ومعهم الأسلحة وآلات الحرب، فأغاروا ليلاً بالاتفاق مع من بداخل القلعة على جيش أرسلان تاش، فأوقعوا بهم الهزيمة، وهزم أرسلان تاش، ورجع مع من بقي من فلول جيشه إلى السلطان ملكشاه[1].

لم يستسلم السلطان ملكشاه لهذه الهزيمة، بل عقد العزم على استئصال شأفة الباطنية، فأعد على الفور حملة عسكرية أخرى بقيادة أحد قواده يقال له ((قزل سارغ)) وتوجهت إلى منطقة قوهستان، وأخذت تحارب الباطنية في تلك المناطق، وضربت الحصار على قلعة درة الباطنية[2] وأثناء عملية الحصار توفي السلطان ملكشاه، فلما علم القائد قزل سارغ خبر الوفاة فض الحصار المضروب على القلعة ولم يظفر منها بطائل[3].

بعد وفاة السلطان ملكشاه، دب النزاع في البيت السلجوقي وتنافس أبناء ملكشاه الأربعة على السلطة، ودارت بينهم حروب ومعارك إلى أن استتب الأمر للإبن الأكبر بركيارق، فحاول الباطنية استغلال فرصة الاضطرابات هذه، فسعوا إلى التمكين لأنفسهم عن طريق الاستيلاء على مزيد من القلاع والأماكن الحصينة، والتسلل إلى بلاط السلاطين والاندساس في جيوشهم، فكان جيش بركيارق من الجيوش التي تزايد فيها نفوذ الباطنية، حتى قيل أنهم كانوا يشكلون ربع جيشه، ويبدو أن بركيارق فضل عدم الاصطدام بالباطنية والفتك بهم بسبب انشغاله في

---

(١) الجويني: تاريخ جهنكشاي ص١٩٥-١٩٦، عمر أبو النصر: قلعة آلموت ص١٢٨-١٢٩، أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص١٧٨-١٧٩.

(٢) دره: بلد بين هراه وسجستان، وهي آخر عمل من أعمال هراة. ياقوت: معجم البلدان ٤٥٣/٢.

(٣) الجويني: تاريخ جهنكشاي ص١٩٥-١٩٦، عمر أبو النصر: قلعة آلموت ص١٢٨-١٢٩، أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص١٧٨-١٧٩.

الحروب مع إخوته وأهل بيته بعد وفاة والده، فاستغل أخوه محمّد ذلك، فكان هو وجنوده عندما يتقابلون مع بركيارق وجنده، يكبرون عليهم ويقولون ياباطنية[1].

وبعد أن استقر السلطان بركيارق في السلطة، ورأى أن خطر الباطنية قد ازداد وأصبح يهدده، أشار عليه أعوانه أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافي أمرهم، وأعلموه بما يتهمه النّاس به من الميل إلى مذهبهم[2] فهب السلطان على الفور هو وعساكره وأخذ في حرب الباطنية، فطهر أولاً جيشه منهم، فقتل كل من ثبت عليه الاتهام بأنه من الباطنية أو حامت حوله الشبهة بأنه منهم، ثم هاجم الباطنية في كل مكان فأخذوا من خيامهم، ومنازلهم وقتلوا في ميدان عام، ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف، وبلغ عدد القتلى منهم ثلاثمائة ونيفاً[3]. كما أن السلطان أطلق العنان للناس ليقتلوهم أينما ثقفوهم، فأخذ النّاس والعامة يتتبعون الباطنية ويقتلونهم، حتى أن أحد فقهاء الشافعية واسمه أبو القاسم مسعود ابن محمّد الخجندي كان يحفر الأخاديد ويوقد فيها النيران ويحرق الباطنية فيها فرادى وجماعات[4].

لم يقف حد التنكيل بالباطنية وقتلهم على يد أتباع السلطان بركيارق عند هذا الحد، بل أن السلطان نفسه عندما أسر مؤيد الملك بن نظام الملك سبه لانتسابه إلى مذهب الباطنية وعيره بذلك ثم قتله بيده[5].

---

(١) ابن الأثير:الكامل ١٠/٣٢٢، النويري: نهاية الأرب ٢٦/٣٥٤، أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص١٨٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٢٢.

(٣) نفس المصدر السابق ١٠/٣٢٢-٣٢٣، النويري: نهاية الارب ٢٦/٣٥٥، ابن الجوزي: المنتظم ٩/١٢١.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٥٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٠٤.

إلى جانب ذلك تتبع أمراء الأقاليم التابعة لبركيارق الباطنية ففتك بهم الأمير جاولي سقاووا، وقتل منهم خلقاً كثيراً يقارب الثلاثمائة نفس، وذلك بحيلة دَبَّرها هو وأصحابه من داخل صفوف الباطنية حتى استطاع أن يظفر بهم ويقتلهم[1]. وفي نفس الوقت أرسل السلطان بركيارق إلى الخليفة العباسي في بغداد يشير عليه بتتبع الباطنية الموجودين هناك في عاصمة الخلافة، فأمر بالقبض على قوم يظن فيهم ذلك ((ولم يتجاسر أحد أن يشفع في أحد لئلا يظن ميله إلى ذلك المذهب))[2] وقتل كل من اتهم بأنه من الباطنية منهم.

وتعاون السلطان بركيارق أيضاً مع أخيه السلطان سنجر على العمل معاً لقتال الباطنية وتطهير المجتمع الإسلامي منهم، فأرسل سنجر حملة كبيرة وحسنة التسليح، وجعل على قيادتها أكبر أمرائه ((الأمير بزغش)) أرسل هذه الحملة إلى مناطق الباطنية في قوهستان، فضربت الحصار على قلعة طبس الباطنية التي كانت الحصن الرئيسي للباطنية في هذه المنطقة واستطاعت هذه الحملة أن تدمر معظم سور القلعة بالمنجنيقات، وأن تقتل من الباطنية أعداداً كبيرة، وكادت أن تسقط بيدهم لولا خيانة وقعت في جيش السلطان سنجر من قبل القائد بزغش، حيث تمكن الباطنية من رشوته فرفع الحصار ورحل عن القلعة[3].

ثم تكررت محاولة السلطان سنجر للفتك بالباطنية مرة ثانية ففي عام ٤٩٧هـ خرج قائده الأمير بزغش ومعه الكثير من المتطوعة، فقصد قلعة طبس مرة أخرى،

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في المصدر السابق ص٣٢٠.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٢٠/٩.

(٣) برنارندلويس: الحشيشية ص٦٧، ابن الأثير: الكامل ٣٢٤/١٠.

فحاصرها وخربها هي وماجاورها من القلاع والقرى وأكثر في الباطنية القتل، والنهب، والسبي، وفعل بهم الأفعال العظيمة ولكن أصحاب سنجر أشاروا عليه بأن يؤمنوا ويشترط عليهم بأن لا يبنوا حصناً، ولا يشتروا سلاحاً، ولا يدعون أحداً إلى مذهبهم[1]. وأمنوا على هذا الأساس.

لكن هذا الأمان والصلح للباطنية أثار سخط كثير من النّاس، لدرجة أنهم نقموا على السلطان سنجر، وذلك بسبب ما نالهم من أذى وقتل على أيدي أفراد هذه الفئة، ولعلمهم بأنهم لن يحترموا هذا الأمان وهذا الصلح، وهذا ما حدث فعلاً، ففي العام التالي ٤٩٨هـ خرج جمع كبير من الباطنية من قلعة طريثيث الواقعة بالقرب من بيهق، فأغاروا على النواحي المجاورة لها، وأكثروا القتل في الأهالي ونهبوا الأموال، وسبوا النساء، ولم يقفوا على الهدنة المتقدمة[2].

رغم هذا استمر السلطان سنجر في سياسته الرامية إلى الحد من خطر الباطنية، وتتبعهم في كل مكان، وقتل ما يستطيع قتله منهم، ففي عام ٥٢٠هـ أمر وزير السلطان سنجر أبو نصر أحمد بن الفضل بغزو الباطنية وقتلهم حيثما ظفر بهم، ونهب أموالهم وسبي حريمهم، فجهز إلى ذلك عدة جيوش أرسلها إلى أكثر المناطق التي يتواجدون فيها، فأنفذ جيشاً إلى طريثيث، وآخر إلى بيهق وثالث إلى طرز وأوصى بأن يقتلوا كل من لقوه منهم، فقصد كل جيش إلى الجهة المحددة له، فأما الجيش الذي توجه إلى بيهق وأعمالها فقد قتلوا كل من بها من الباطنية وهرب مقدمهم، وصعد منارة المسجد و ألقى بنفسه منها فهلك، وكذلك الجيش المنفذ إلى

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣٧٨-٣٧٩.

(٢) نفس المصدر السابق ١٠/٣٩٢-٣٩٣.

طريثيث قتلوا من أهلها فأكثروا، وغنموا من أموالهم وعادوا[١].

وفي عام ٥٢١هـ أغار السلطان سنجر على الباطنية في قلعة آلموت فأوقع بهم وقتل منهم ما يقارب الاثنى عشر ألفاً[٢]. وفي عام ٥٢٨هـ أمر السلطان سنجر الأمير بزغش بحصار قلعة كردكوه الباطنية ومحاولة السيطرة عليها، وبعد حصار طويل كادت القلعة أن تستسلم لولا أن الأمير بزغش رحل عنها في اللحظات الأخيرة بسبب تأثير الرشوة عليه من قبل الباطنية المحاصرين في القلعة[٣].

ورغم أن السلطان سنجر لم يستطع أن يحرز نصراً حاسماً على الباطنية إلا أنه استمر في سياسته الرامية إلى الحد من نفوذ الباطنية قدر المستطاع[٤] فأرسل في عام ٥٤٦هـ أحد أمرائه ((الأمير قجق)) على رأس جيش كبير إلى قلعة طريثيث، فأغار عليها، وأحرق مساكنها، وسبى ما وقعت عليه يده، وفعل بهم الأفاعيل العظيمة، ثم عاد سالماً[٥].

---

(١) ابن الأثير: الكمل ١٠/٦٣١-٦٣٢.

(٢) ابن الأثير: البداية والنهاية ١٢/١٩٨، الذهبي: العبر ٢/٤١٥، ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٤٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١١/١٧.

(٤) هناك بعض المؤرخين من يتهم السلطان سنجر بالتواطؤ مع الباطنية ومهادنتهم والاستعانة بهم في بعض الأحيان إلى درجة أن بعضهم اتهمه بتدبير اغتيال الخليفة المسترشد العباسي أمثال العماد الأصفهاني ولكن الجويني في تاريخ جهنكشاي يرد على ذلك وينفي الشبهة عن سنجر فيقول: ((كان سنجر نقي العقيدة ويخشى الله، وكان جماعة من قصار النظر وسيئي الطوية بالنسبة للدولة السنجرية ينسبون هذا الحادث (حادث اغتيال الخليفة المسترشد) إلى حضرة السلطان سنجر ولكن كذب المنجمون ورب الكعبة، فحسن طوية السلطان سنجر ونقاء سريرته في اتباع الدين الحنيف والشريعة وتقويتهما، وتعظيمه لكل ما يتعلق بدار الخلافة، إلى جانب شفقته ورأفته، كل ذلك واضح بحيث لا يمكن أن ينسب إلى حضرته أمثال هذا البهتان واشكال هذا التزوير فقد كان منبع الصفح ومنشأ الرأفة)). انظر الجويني: تاريخ جهنكشاي ص٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل ١١/١٥٧.

أما عن موقف السلطان محمّد السلجوقي من الباطنية، فهو بحق الموقف المشرف الذي كاد أن يقضي على خطر الباطنية قضاء مبرماً لو امتد به العمر قليلاً، فلقد عرف السلطان محمّد بغيرته الدينية وجهاده في سبيل إعلاء كلمة السنة، فأدرك منذ اللحظة الأولى التي استقر فيها الأمر له، أن استقلال البلاد التام وأمنها لا يتم إلا بالقضاء على الباطنية وهدم معاقلهم، وأيقن أن القضاء عليهم ينبغي أن يكون أهم عمل يقوم به، فكان أول ما فعله أن أرسل الأمير آقسنقر البرسقي شحنة بغداد إلى قلعة تكريت الباطنية ليملكها، فما كان من الباطنية أصحابها إلا أن سلموها إلى صدقة بن مزيد الشيعي الإمامي ليضمنوا عدم وقوعها في يد السلاجقة السنيين، وكانت النتيجة أن خسروا القلعة[1].

أما الخطوة الثانية التي فعلها السلطان محمّد في هذا المجال، هي أنه قام بالقبض على وزيره سعد الملك أبو المحاسن الآبي لتواطئه مع الباطنية وتقديم العون لهم، فقبض عليه وعلى أربعة من أعوانه وقتلهم ثم صلبهم على باب أصبهان[2]. وسعد الملك هذا كان له دور كبير في تأخير سقوط قلعة أصبهان ((شاه دز)) الباطنية في يد السلطان محمّد، فسقطت بعد قتله بيومين، وهذا دليل على أنه كان متواطئاً مع الباطنية ففي عام ٥٠٠هـ وبعد أن استفحل أمر الداعي الباطني أحمد ابن عبد الملك بن عطاش في قلعة أصبهان التي كان يرسل منها أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال، وقتل من قدروا على قتله، وجعلوا على القرى السلطانية المجاورة لهم وأملاك النّاس ضرائب يأخذونها، مقابل أن يكفوا أذاهم عنها، بعد هذا كله وبعد

(١) نفس المصدر السابق ١٠/٤٢٠.

(٢) نفس المصدر السابق ١٠/٤٣٧، النويري: نهاية الارب ٢٦/٣٦٢-٣٦٣.

أن صفت السلطنة للسلطان محمد، رأى أن تكون البداية في عملية قمع الباطنية، يجب أن تكون بقلعة أصبهان، لأن الأذى بها أكثر، وهي متسلطة على سرير ملكه، فخرج بنفسه على رأس جيش كبير فحاصرها في شعبان من نفس السنة، واستمر الحصار قرابة الأربعة أشهر إلى أن سقطت في يده في شهر ذي القعدة، ووقع ابن عطاش هو وابنه أسيرين في يد السلطان محمّد، فأمر السلطان محمّد بأن يشهر به في شوارع أصبهان، ثم يسلخ جلده وهوحي، ثم يحشى تبناً، فسلخ حتى مات وقتل بعده ابنه وحمل رأسيهما إلى بغداد[1].

لم يحصل السلطان محمّد على هذا النصر في أول لقاء بينه وبين هذه الطائفة بثمن بسيط، بل واجه كثيراً من المواقف الحرجة التي صمد أمامها حتى تحقق له هذا الهدف. ومن ذلك أنه لما عزم على حرب الباطنية استخدم المشايعون لهم في عسكره حرب الشائعات، ليصرفوه عن غايته، فأذاعوا أن قلج أرسلان (سلطان سلاجقة الروم) قد جاء إلى بغداد وملكها، وافتعلوا في ذلك مكاتبات، ثم أظهروا أن خللا حدث بخرسان، وكان هدفهم من ذلك كله إبعاد السلطان عن محاصرة قلعة أصبهان حتى لا يتحقق الهدف الذي كان يسعى إليه من إزالة هذه القلعة، لكن السلطان توقف حتى تحقق من بطلان الشائعات ثم انصرف لغايته[2].

وأثناء حصار السلطان محمّد لقلعة أصبهان لجأ الباطنية الذين بها إلى لعبة أشبه ما تكون بلعبة التحكيم الشهيرة بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما، إذ كتبوا إلى

---

(١) انظر نفس المصادر السابقة: ابن الأثير: ١٠/٤٣٠-٤٣٤، النويري: ٢٦/٣٦٢، ٣٦٣، الذهبي: دول الاسلام ٢/٢٩، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٢٤٤.

(٢) انظر ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٣١- ٤٣٢.

الفقهاء السنيين يطلبون فتواهم في قوم يؤمنون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، ولكن يخالفون في الإمام: هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم، وأن يقبل طاعتهم، ويحرسهم من كل أذى؟ وكادوا أن ينجحوا في لعبتهم هذه حين أجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك، وتوقف البعض عن الفتوى، فجمع السلطان الفقهاء للمناظرة، فانتصر رأي الفقيه الشافعي أبي الحسن عليّ بن عبد الرحمن السمنجاني الذي أفتى بوجوب قتالهم وسفك دمائهم، وأنه لا ينفعهم التلفظ بالشهادتين لرأيهم في الإمام الذي يستطيع أن يحرم عليهم ما أحل الله، ويحل لهم ما حرم الله، وتكون طاعته في هذه الحالة حسب اعتقادهم فيه واجبة فتباح دماؤهم بهذا السبب بالإجماع[1].

ولما فشلت حيلتهم هذه لصرف السلطان عن محاصرتهم لجأوا إلى أسلوب آخر لكي يؤخروا عملية سقوط القلعة، ولعلهم يستفيدون من الوقت فطلبوا من السلطان أن يرسل إليهم من يناظرهم، فصعد إليهم بعض العلماء ثم عادوا بغير طائل، وأخيراً طلبوا أن يؤمنوا، ويتركوا القلعة مقابل أن يوصلهم السلطان إلى بعض قلاعهم الأخرى على دفعات، فإذا عاد إليهم من يخبرهم بوصول الدفعة الأولى إلى القلاع سالمين، نزل ابن عطاش ومن بقي ليوصلهم السلطان إلى الحسن ابن الصباح في قلعة آلموت، فوافق السلطان محمّد على ذلك، ووصل الفوج الأول إلى القلاع التي عينوها فلما تأكد ابن عطاش أن أتباعه وصلوا سالمين نقض عهده،

(١) انظر ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٣٢.

واستمر في العناد إلى أن انتهت مقاومته وسقط أسيراً وفعل به ما فعل[1].

كان لهذا النصر الذي حققه السلطان محمّد السلجوقي على زعيم الباطنية أحمد بن عبد الملك بن عطاش، وأخذه لقلعة أصبهان دافعاً لملاحقة الباطنية في كل مكان، وخاصة في عاصمتهم آلموت، فأرسل في المحرم من عام ٥٠٣هـ وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك، إلى هذه القلعة، لقتال الحسن بن الصباح ومن معه من الباطنية في تلك القلعة، فحاصرهم مدة ثم رحل عنها بسبب دخول موسم الشتاء[2].

لم يكتف السلطان محمّد بهذه المحاولة لفتح قلعة آلموت عاصمة الباطنية، بل كرر ذلك مرة أخرى في عام ٥٠٥هـ إذ ندب لقتال الحسن بن الصباح في هذه القلعة أحد قواده واسمه أنوشتكين شيركير، فتوجه إليها وفي الطريق ملك من الباطنية عدة قلاع، ولكنه وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه سلطانه من قبل، إذ أمن من كانوا في هذه القلاع، وسيرهم إلى قلعة آلموت عاصمتهم، ثم سار هو بعد ذلك لحصارها بعد أن ازدادت قوة ومنعة بمن توّجه إليها من الباطنية، وأمدّه السلطان بعدد من الأمراء وانعقد عزمهم على إسقاط هذه القلعة مهما كلّفهم الأمر، فبنوا المساكن

---

(١) انظر نفس المصدر السابق ١٠/٤٣٣-٤٣٤.

ومن الملاحظ أن السلطان محمّد لم يكن موفقاً في تأمينه للباطنية فلقد زادوا إخوانهم في القلاع الأخرى قوة بالانضمام إليهم، مما جعلهم يقفون في وجهه بصلابة ولا يستسلمون، فكان من الأفضل والحكمة أن يقضى عليهم أولاً بأول حتى لا تفكر باقي القلاع ومن فيها بالمقاومة، ولكن لعل ظروف السلطان السياسية هي التي جعلته يتصرف معهم على هذا الأساس.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٧٧-٤٧٨.

وكان من نتيجة ذلك أن أرسل الباطنية مجموعة من فدائيتهم فوثبوا على الوزير نظام الملك أحمد في الجامع وضربوه بالسكاكين وجرحوه في رقبته، ولكن لم تكن الضربات قاتلة فبريء من جراحه... انظر ما سبق ص٢٠٥، ٢٠٦.

حولها، وعُيِّن لكل طائفة من الأمراء- بالتناوب- أشهراً يقيمون فيها لحصارها، على أن يقيم القائد العام أنوشتكين إقامة دائمة ليشرف بنفسه على عملية الحصار، وفي نفس الوقت كان السلطان يمده وينقل إليه الميرة والذخائر، والرجال، حتى اشتد الأمر على الباطنية، وعدمت عندهم الأقوات بسبب طول الحصار، فلم يجدوا بداً من إنزال نسائهم يطلبن الأمان لهم على أن يسلموا القلعة، ويوسع لهم كي يمضوا إلى أي طريق شاءوا، لكن القائد أنوشتكين رفض ذلك، وأدرك الأخطار التي ترتبت على منحهم الأمان في السابق، وكان من أبرز هذه الأخطار أن هذه القلعة (آلموت) أصبحت أكبر مركز لتجمعاتهم بعد أن وفد عليها الكثيرون من القلاع الأخرى التي سقطت قبل ذلك، لهذا رفض أن يمنحهم الأمان، وأعاد النساء إلى القلعة قصداً لكي يموت الجميع جوعاً، لكن ما أمله هذا القائد لم يتحقق بسبب وفاة السلطان محمّد في عام ٥١١هـ واصرار الأمراء والجند على الرحيل وفك الحصار بعد سماعهم خبر الوفاة، وذلك بعد أن استمر حصار القلعة ما يقارب ست سنوات، وبعد أن كان سقوطها وشيك الوقوع، فلما سمع الباطنية بذلك قويت نفوسهم، وطابت قلوبهم، فقال القائد أنوشتكين لجنوده: إن رحلنا عنهم وشاع الأمر، نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددناه من الأقوات والذخائر، والرأي أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها، وإن لم يكن المقام، فلا بد من مقام ثلاثة أيام، حتى ينفذ منا ثقلنا وما أعددناه ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو، لكن القائد أنوشتكين اضطر إلى الانسحاب تحت ضغط جنده، فغنم الباطنية ما تخلف وراءهم من متاع[1].

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٥٢٧-٥٢٩.

وبموت السلطان محمّد توقف تنفيذ مشروعاته للقضاء على، الباطنية والواقع أن السلطان محمّد بذل جهداً مشكوراً في الفل من شوكة الباطنية والحد من سلطانهم، ووفق إلى حد كبير في تصفية كثير من قلاعهم وإخماد ما اشتعل من فتنتهم، والقضاء على موجة الإرهاب التي اجتاحت المجتمع الإسلامي من أعمالهم وتصرفاتهم، غير أن وفاة السلطان محمّد وعودة النزاع بين أفراد البيت السلجوقي جعل الباطنية يستعيدون قوتهم ويواصلون نشاطهم، فلم تخمد فتنتهم نهائياً، بل عادت تطل برأسها بين آونة وأخرى، ووجدوا الفرصة سانحة لتقوية حالهم، فاستولوا على قلاع كثيرة أضافوها إلى ما تحت أيديهم.

بعد وفاة السلطان محمّد تولى السلطنة بعده ابنه محمود، وكان محمود يكن للشيعة والباطنية عداوة شديدة، لهذا حرمهم من امتلاك المدارس والخانقات وحضور مجالس البحث والمناظرة، غير أن ميله للمتعة قلل من قيمة دوره في الصراع ضد الباطنية، ومما يذكر في عهده أنه أرسل جيشاً إلى روذبار غير أن قائده عجز أمام الباطنية وسعى في طلب الصلح[1].

ولكن السلطان محمود استطاع في عام ٥٢٤هـ من احتلال قلعة آلموت وأخذها من الباطنية، ولكنهم تمكنوا من استرجاعها بعد وفاته في عام ٥٢٥هـ[2].

وكذلك واصل حكام الولايات الإسلامية تتبع الباطنية والفتك بهم فلقد كان الأمير عباس صاحب الري الذي كان من غلمان السلطان محمود كثير الجهاد للباطنية، فاستطاع أن يفتك بالباطنية الذين عنده، فقتل منهم خلقاً كثيراً لدرجة أنه

(١) أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص١٨٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٦٦٦/١٠، الذهبي: العبر ٤١٩/٢، أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص١٨٦.

بنى منارة من رؤوسهم بالري، كما أنه حاصر قلعة آلموت، ودخل قرية من قراهم فألقى فيها النار وأحرق كل من فيها من الرجال والنساء والصبيان[1].

لم تقتصر الجهود لمقاومة الباطنية، ومحاولة تطهير المجتمع الإسلامي منهم على حكام السلاجقة فحسب، بل ساهم حكام الدول الإسلامية الأخرى، التي ظهرت في تلك الحقبة بدور فعّال في الحد من نفوذ الباطنية، مثل الدولة الغورية والدولة الخوارزمية.

أما عن دور الدولة الغورية في هذا المجال، فبعد وفاة الملك علاء الدين الحسين الغوري ملك الغور تولى بعده زعامة الغور ابنه سيف الدين محمد، فأطاعه النّاس وأحبوه، وكان يوجد في مناطق الدولة الغورية بعض الدعاة الإسماعيلية الباطنية الذين كثر أتباعهم وأصبح خطرهم يهدد الناس، فأمر سيف الدين محمّد بإخراج هؤلاء الباطنية من بلادهم، فأخرجوا على الفور جميعهم ولم يبق منهم أحد[2].

وفي عام ٥٩٧هـ سار شهاب الدين الغوري إلى قهستان، وفي الطريق مر على قرية، فذكر له بأن أهلها إسماعيلية باطنية، فأمر بقتل المقاتلة ونهب الأموال، وسبي الذراري، وخرب القرية، فجعلها خاوية على عروشها ثم واصل السير إلى كناباد[3]، وهي من المدن التي جميع سكانها من الباطنية، فنزل عليها وحاصرها، وأرسل صاحب قهستان الباطني إلى غياث ملك الغور يشكو إليه أخاه شهاب الدين ويقول: ((بيننا عهد فما الذي بدا منا حتى تحاصر بلدي؟... لكن شهاب الدين

(١) ابن الأثير: الكامل ١١/١١٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٢١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١١/٢٧١.

(٣) كناباد: مدينة كبيرة في شمال شرقي تون. انظر كي ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٣٩٨.

شدد الحصار على المدينة، فلما اشتد خوف الباطنية الذين بها، طلبوا الأمان ليخرجوا منها ويأخذها، فأمنهم وأخرجهم منها، وملك المدينة فأقام بها الصلاة وشعائر الإسلام[١].

وهناك محاولة أخرى للحد من نفوذ الباطنية، كانت في عام ٦٠٠هـ حين وصل رسول إلى شهاب الدين الغوري من عند مقدم الإسماعيلية الباطنية في خرسان، برسالة أنكر ما جاء فيها، فأمر متولي بلاد الغور علاء الدين محمّد بن أبي عليّ أن يجهز العساكر ويسير بها إلى بلادهم ويحاصرها فسار إليهم ونزل على مدينة قاين وحاصرها، وضيق الخناق على أهلها، وفي أثناء الحصار وصل خبر مقتل شهاب الدين الغوري، فصالح علاء الدين أهل قاين على ستين ألف دينار ورحل عنهم[٢].

أما عن موقف قادة الدولة الخوارزمية من الباطنية فإنه يتمثل في موقفين بارزين، الموقف الأول كان في عام ٥٩٥هـ حيث اشتغل القائد خوارزم شاه بقتال الملاحدة الباطنية، حيث استطاع أن يفتتح قلعة الباطنية إرسلان كشاه التي تقع على باب منطقة قزوين، وانتقل بعدها إلى حصار عاصمة الباطنية آلموت، وأثناء عملية الحصار قتل الباطنية الفقيه محمّد بن الوزان رئيس الشافعية بالري، فعاد خوارزم شاه إلى عاصمته خوارزم. وفي السنة التي بعدها (٥٩٦هـ) وثب الباطنية أيضاً على وزير خوارزم شاه نظام الملك مسعود بن عليّ فقتلوه، فأمر القائد الخوارزمي تكش ولده قطب الدين بالتوجه إلى الباطنية الملاحدة والانتقام منهم فقصد قلعة ترشيش[٣]

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٦٧/١١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٨٩/١٢.

(٣) ترشيش: ناحية من أعمال نيسابور، وهي اليوم بيد الملاحدة (وهي طريثيث). انظر ياقوت: معجم البلدان ٢٢/٢.

الباطنية، فحاصرها حتى أذعن له الباطنية الذين فيها بالطاعة، وصالحوه على مائة ألف دينار ثم رحل عنها[1].

أما الموقف الثاني فكان في عام ٦٢٤هـ حين قتل الباطنية أميراً كبيراً من أمراء جلال الدين بن خوارزم شاه، فلما قتل ذلك الأمير عظم قتله على جلال الدين وحزن عليه، وقرر الانتقام من الباطنية، فسار بعساكره إلى بلادهم من حدود آلموت إلى كردكوه بخراسان فخربها جميعها، وقتل أهلها، ونهب الأموال، وسبى الحريم، واسترق الأولاد، وقتل الرجال وعمل بهم الأعمال العظيمة، وانتقم منهم، وكانوا قد عظم شرهم وازداد ضرهم[2].

كل هذه المحاولات التي قام بها السلاجقة وغيرهم من قادة الدول الإسلامية، لم تؤد إلى استئصال جذور الباطنية نهائياً من المجتمع الإسلامي، بل ظلت مؤامراتهم وفتنهم تلحق الأضرار بالمجتمع الإسلامي، بين الحين والآخر، لكنهم نجحوا إلى حد كبير في التخفيف من خطرهم، وفي تقليم أظافر حركتهم ولو إلى حين من الزمن.

هذا بالنسبة إلى موقف القادة المسلمين من الباطنية في بلاد فارس، أما فيما يتعلق بموقفهم من الباطنية في بلاد الشام فهو يتلخص في المواقف الآتية: فبعد أن كثر الباطنية في حلب أيام الملك رضوان بن تتش الذي كان يستعين بهم لقلة دينه كما يقول ابن الأثير: وأصبح لهم بها دار دعوة، خافهم ابن بديع رئيس حلب والأعيان من أهلها، ولما توفي الملك رضوان وتولى بعده ابنه الملك ألب أرسلان الأخرس أشار عليه ابن بديع بالفتك بالباطنية وقتلهم وتخليص البلد منهم قبل أن

(١) ابن الأثير: الكامل ١٢/١٥٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٢/٤٧٠.

يتمكنوا ويصبح من المتعذر دفع شرهم، وفي نفس الوقت كتب السلطان محمّد بن ملكشاه السلجوقي إلى ألب أرسلان ملك حلب يقول له: ((كان والدك يخالفني في الباطنية، وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم)). فاجتمعت الأسباب لدى الملك ألب أرسلان، فأمر بقتل الباطنية وتطهير البلد منهم، وساعده في ذلك الرئيس ابن بديع فقبض على رئيسهم أبو طاهر الصائغ مع جماعة من أعيانهم فقتلهم، ثم قبض على الباقين منهم فحبسهم واستصفى أموالهم وتفرق الباقون في البلاد ومنهم من قصد بلاد الفرنج محتمياً بهم[1].

أما تاج الملوك بوري صاحب دمشق فلقد فتك بالباطنية وقتلهم شر قتلة، وصفاهم من دمشق وطهرها منهم، ففي أيامه زاد الباطنية في دمشق وكثروا وأصبحوا كما أشرنا سابقاً هم المتصرفون في كثير من شئون البلد حتى كان حكمهم فيها أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك نفسه، ونال النّاس من أذاهم ما نالهم، ولما علم تاج الملوك ما تم بين الباطنية والصليبيين من إتفاق على تسليم دمشق للصليبيين مقابل تسليم صور لهم، استدعى وزيره المزدقاني الذي ساعد الباطنية على ذلك، فقتله على الفور ونادى في البلد بقتل الباطنية، فثار النّاس والجند بهم وقتلوا كل من ظفروا به من الباطنية، وبلغ عدد القتلى ستة آلاف نفس[2].

ظل الباطنية في الشام يحيكون المؤامرات ويترقبون الفرص للفتك بأي قائد

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٤٩٩/١٠، ابن العديم: بغية الطلب ص٣٥٢، ٣٥٣، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٣٠٢، الذهبي: دول الإسلام ٣٥/٢.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٣٥١-٣٥٥، ابن الأثير: الكامل ٦٥٧/١٠، ابن كثير: البداية والنهاية ٢٠٠/١٢، اليافعي: مرآة الجنان ٢٢٩/٣.

مسلم يظهر على الساحة، إلى أن كانت محاولاتهم الفاشلة للفتك بالقائد المسلم صلاح الدين الأيوبي واغتياله مرة حين كان محاصراً لحلب وأخرى حين كان محاصراً لقلعة اعزاز، فأدرك صلاح الدين شر هؤلاء القوم، فقصدهم في عام ٥٧٢هـ وحاصر عاصمتهم قلعة مصياف، ونصب عليها المنجنيقات فخربها وأحرقها وأوسع الباطنية الذين بها قتلاً وأسراً، وأخذ أبقارهم ودوابهم وخرب ديارهم، إلى أن شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود الحارمي صاحب حماه لأنهم كانوا جيرانه، فقبل صلاح الدين شفاعته وصالحهم ورحل عنهم، بعد أن أدبهم وأعطاهم درساً قاسياً[1].

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٤٧- ٤٨، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/٥٩، الذهبي: دول الإسلام ٢/٨٦.

الفصل الرابع

النصيرية والدروز ودورهم في الحروب الصليبية

المبحث الأول: تأثر النصيرية بالمجوسية والنصرانية

المبحث الثاني: مساعدة النصيرية للصليبيين

المبحث الثالث: مساعدة الدروز للصليبيين

المبحث الأول

تأثر النصيرية بالمجوسية والنصرانية

بما أن مؤسس النصيرية (محمد بن نصير النميري) فارسي الأصل فقد تأثرت حركته ببعض الأفكار والعقائد الفارسية المجوسية، التي نقلها بحكم النزعة والتعصب للأصل، فشابت العقيدة النصيرية لوثات مجوسية تمثلت في بعض عقائدها وعباداتها وأعيادها.

فمن أعياد النصيرية التي يشاركون المجوس فيها:

(١) عيد النيروز ومدته ستة أيام ويسمون اليوم السادس النوروز الكبير.

(٢) عيد المهرجان ومدته ستة أيام ويسمون اليوم السادس منه المهرجان الأكبر.

(٣) عيد السدق ويسمى أيان روز.

(٤) عيد الشركان.

(٥) عيد الفرودجان.

(٦) عيد ركوب الكوسج[١]

ويعتقد النصيريون بالتقمص[٢]، وهذه العقيدة ليست إسلامية على الإطلاق، بل هي مجوسية[٣]. يقول لا مانس: ((إن النصيريين يشكلون فرقة غالية تذكرنا بأخلاق

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٢/٤١٨-٤٢٤.

(٢) التقمص هو إباحة المحرمات من النساء بالزواج وغيره.

(٣) الحسيني عبد الله: الجذور التاريخية للنصيرية العلوية ص ١٢٥.

المجوس حيث يبيحون إشاعة البنات والأخوات والأمهات وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون))[1].

أما بالنسبة لتأثر النصيرية بالنصرانية فلقد تأثرت الفرقة النصيرية إلى حد كبير في كثير من عقائدها بالعقائد النصرانية.

وذلك ناتج عن اندماج النصيريين في المجتمع الصليبي أثناء فترة الحروب الصليبية، فالعقيدة النصيرية تشبه إلى حد بعيد عقيدة النصارى، فالعقيدة النصيرية تقوم على التجسيد وتأليه الإمام، فالألوهية في نظر النصيريين مثلثة الأجزاء متحدة الحقيقة، تدور حول أسماء ثلاثة مكونة تثليثاً شبيهاً بتثليث النصارى ويتمتع أصحاب هذه الأسماء الثلاثة بالوحدانية والخلود، والتثليث عند النصيرية يشيرون إليه بكلمات ثلاث هي:

معنى، واسم، وباب، كما هو الحال في عقيدة النصارى الذي يتكون تثليثهم من أب، وابن، وروح القدس، ويرمز إلى هذا التثليث عند النصيرية بالحروف ع- م- س، ويفسرون ذلك فيقولون أن المقصود بالمعنى هو عليّ بن أبي طالب، وهو الله العليّ القدير ويرمزون إليه بالحرف (ع)، وأما الإسم فهو محمّد بن عبد الله، وهو حجابها النوراني ويرمزون إليه بالحرف (م)، وأما الباب فهو سلمان الفارسي الذي يوصل إلى الحجاب النوراني ويرمزون إليه بالحرف (س)[2].

ونستطيع أن نستشف أيضاً كيف أن النصيريين تأثروا في عقائدهم بالنصارى

---

(١) عبد الله الأمين: دراسات في الفرق ص ١٢٤.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الاسلام ٤/٢٦٦، عبد الله الأمين: دراسات في الفرق ص ١٠٨، الحسيني عبد الله: الجذور التاريخية للنصيرية العلوية ص ١٢٣-١٢٤.

عند مطالعتنا لكتاب تعليم ديانة النصيرية الذي أورده الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه مذاهب الإسلاميين، وهو على طريقة السؤال والجواب ويتألف من ١٠١ سؤال، نورد الأسئلة المتعلقة بذلك بأرقامها كما جاءت في الكتاب:

س٧٦: ما ((القُدَّاس))؟

ج: تقديس الخمر، التي تشرب على صحة النقباء أو النجباء.

س٧٧: ما ((القربان))؟

ج: تقديس الخبز، الذي يتخذه المؤمنون الصادقون ذكرى لأرواح إخوانهم ومن أجلهم يقرأون القُدَّاس.

س٧٨: من الذي يقرأ القُدَّاس، ويقرب القربان؟

ج: الأئمة والخطباء الكبار.

س٨٧: ما هو القُدَّاس الأول؟

ج: هو الذي يقام قبل دعاء النوروز.

س٨٨: وما دعاء النوروز؟

ج: تقديس الخمر والكأس[١].

إلى جانب ذلك تأثر النصيريون في بعض أعيادهم بأعياد النصارى مثل عيد الميلاد، ويصادف رأس السنة الشرقية عند الأرثوذكس، ويقدمون فيه النبيذ ولحم البقر، وعيد الصليب وهم يحتفلون به ويجعلونه تاريخاً لقطف الثمار وبدء الزراعة،

(١) عبد الرحمن بدوي ٢/٤٨٤، ٤٨٦.

ويجعلون منه تاريخاً لبداية معاملاتهم بعضهم مع بعض، كدفع أجور الرعي والمساكن والمخازن وما إليها، ويتوجهون في هذا العيد إلى المعارض المقامة في الأديرة لشراء لوازمهم[١].

ومن الأعياد التي يشارك فيها النصيريون النصارى عيد الغطاس، وعيد السعف، وعيد العنصرة وعيد القديسة بربارة، وعيد الميلاد[٢]

ومن الأعياد النصرانية التي يحتفل بها النصيريون عيد الزيتونة وهو عيد الشعانين، وعيد مريم المجدلانية، وعيد البشارة، وعيد الفصح[٣].

وللنصيريين طقوس تشبه القُدَّاس عند النصارى، فهم يعيدون بعض أعياد النصارى كعيد الميلاد والعيد الكبير، ويستعملون بعض الأسماء النصرانية مثل متى ويوحنا وهيلانه وكاترينا[٤]. وهم لا يؤدون صلاتهم في المساجد، إنما يصلون في بيوتهم صلاة تشبه صلاة النصارى، فيجتمعون أحياناً في بيوت معلومة ويسمون اجتماعهم (عيداً) ويجتمع بهم شيوخهم فيسمعونهم بعض القصص والأخبار والمعجزات الخرافية لأئمتهم، ثم يقومون بأداء بعض الطقوس والقُدَّاسات والصلوات القريبة الشبه بقُدَّاسات وصلوات النصارى[٥].

وحتى تكتمل الصورة فلا بأس من أن نأتي بنصوص ثلاثة قُدَّاسات نشرها

---

(١) الحسيني عبد الله: الجذور التاريخية للنصيرية العلوية ص ١٣٩، سليمان الحلبي: طائفة النصيرية ص ٧٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٤٠٩/٢، سليمان الحلبي: طائفة النصيرية ص ٧٤ عبد الله الأمين: دراسات في الفرق ص ١٢٠، ١٢١، الحسيني عبد الله: الجذور التاريخية للنصيرية العلوية ص ١٣٩.

(٣) مصطفى الشكعة: اسلام بلا مذاهب ص ٣٣٤، القلقشندي: صبح الأعشى ٤٢٥/٢، ٤٢٦.

(٤) فيليب حتي: تاريخ العرب المطول ٥٣٩/٢.

(٥) سليمان الحلبي: طائفة النصيرية ص ٥٨، عبد الله الأمين: دراسات في الفرق ص ١١٣.

كتفاجو في مجلة ZDMG المجلد الثاني (سنة ١٨٤٨م) وأثبتها الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه مذاهب الإسلاميين وهي:

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

قُدَّاس الطيب لكل أخ حبيب

أيها المؤمنون اسمعوا وطيعوا وانظروا إلى مقامي هذا الذي فيه (نحن) مجتمعون. انزعوا الغل والحسد والحقد من قلوبكم، يكمل لكم دينكم ويستجيب الله لدعائكم. واعلموا أن الله حاضر موجود بينكم يسمع ويرى ((أنه عليم بذات الصدور)).

إياكم، يا مؤمنون، من الضحك والقهقهة في أوقات الصلاة مع الجهال فمنها تحبط الأعمال وتتغير الأحوال، لأنها من طريق إبليس اللعين لعنه الله تعالى.

اسمعوا ما يقول لكم الإمام لأنه قائم فيكم في طاعة العلي العلام: إن هذا قُدَّاس الطيب بعد عقد النية (على) الصلاة الحقيقية التي خص بها السيد المسيح إلى سين، عطاء كل نفس هواها. قال في القُدَّاس المبارك: سبحان من جعل من الماء كل شيء حي. سبحان من يحيي الميت في صرصر بقدرته، العلي الكبير. الله أكبر. أسألك اللهم في يده القضيب (أن) تحل في دياركم البركة، يا أصحاب هذا الفضل، وهذا الطيب ونقدس أرواح إخواننا المؤمنين- البعيد (منهم) والقريب. يا مولاي يا أمير النحل، يا عليّ، يا عظيم.

(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

قُدَّاس البخور في روح يدور، في محل الفرح والسرور

قال: كان سيدنا محمّد بن سنان الزهري يقوم بالصلاة مرة ومرتين في يده ياقوتة حمراء، وقيل مرجانة صفراء، يبخر بها عبد النور ويقول:

يا أيها المؤمنون. بخروا أقداحكم. أنجزوا أعمالكم- تنالوا بها الآمال.

ويقول (باجمعكم): الحمد لله الذي جعل نوره تاماً وفضله عاماً علينا وعلى سائر إخواننا، بروح وريحان، وجنة الله والنعيم.

أسألك اللهم مولاي، بحق هذا قُدَّاس البخور، وبحق البراء بن معروف وبحق أبي الحسن المدني وتلميذه أبي الطاهر سابور، تحل في دياركم البركة يا أصحاب هذا الفضل وهذا البخور، يا أمير النحل، يا علي، يا عظيم.

(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

قُدَّاس الآذان، وبالله المستعان

وهو:

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر كبيراً. الحمد لله كثيراً وجهت وجهي إلى محمّد المحمود، طالباً سره المقصود، المتقرب بتجلي الصفات وعين الذات، وفاطر الفطر، ذو الجلال والحسن، ذو الكمال. اتبعوا ملة أبيكم ابراهيم الخليل هو الذي سماكم مسلمين، حنيفاً مسلماً ولا أنا من المشركين.

ديني سلسل، طاعة إلى القديم الأزل. أقر كما أقر السيد سلمان حين أذن المؤذن في أذنه وهو يقول: شهدت أن لا اله الا هو العلي المعبود ولا حجاب إلا السيد محمّد المحمود، ولا باب إلا السيد سلمان الفارسي، ولا ملائكة إلا الملائكة الخمسة الأيتام الكرام، ولا رب إلا ربي شيخنا (وهو) شيخنا وسيدنا الحسين بن حمدان الخصيبي، سفينة النجاة، وعين الحياة. حي على الصلاة، حي على الفلاح، تفلحوا يا مؤمنون. حي على خير العمل، يعينه الأجل.

ا لله أكبر.. الله أكبر.. قد قامت الصلاة على أربابها، وثبتت الحجة على أصحابها. الله مولاي. يا عليّ أسألك أن تقيمها وتديمها ما دامت السموات والأرض، وتجعل السيد محمّد خاتمها، والسيد سلمان زكاتها، والمقداد يمينها، وأبا ذر شمالها.

نحمد الله بحمد الحامدين، ونشكر الله بشكر الشاكرين. وصلى الله على سيدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين. أسألك، اللهم مولاي، بحق هذا قُدَّاس الأذان، وبحق متى وسمعان، والتواريخ والأعوام، بحق يوسف بن ما كان، بحق الأحد عشر كوكباً الذين رآهم يوسف بالمنام، تحل في دياركم البركة بالتمام. يا مولاي، يا عليّ يا عظيم[1].

ومما يدل على اندماج النصيريين في المجتمع الصليبي أثناء الحروب الصليبية ما يقوله صاحب كتاب تاريخ العلويين النصيري محمّد غالب الطويل. ((حتى أصبح الشعب العلوي يملك سجايا وميزات بنيوية تقارب جميع بقية الطوائف العربية والتركية، من مسيحية ويهودية ورومية وغير ذلك))[2].

(١) عبد الرحمن بدوي: مذاهب الاسلاميين ٢/٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤.

(٢) محمّد غالب الطويل: تاريخ العلويين ص ٢٠٨.

المبحث الثاني

مساعدة النصيرية للصليبيين

عندما قدم الغزو الصليبي على بلاد المسلمين وقويت محاولة الصليبيين السيطرة على الأماكن المقدسة، وبينما كانت جموع الحملة الصليبية الأولى تحاصر مدينة أنطاكية التي استماتت في الدفاع ضد هجمات الصليبيين المتكررة عليها، لم يقف النصيريون مكتوفي الأيدي بل وجدوا الفرصة مناسبة، ولن تعوض للانتقام من أهل السنة عن طريق التحالف مع الصليبيين وتقديم العون لهم، فنجدهم ينزلون إلى السواحل من جبالهم التي كانوا يعتصمون بها لكي يلاقوا الصليبيين ويقدموا لهم ما يحتاجون.

وبدلاً من أن يقف النصيريون إلى جانب المدافعين عن أنطاكية ويكونوا عوناً لهم ضد العدو الغاشم حدثتهم أنفسهم بالخيانة، فبعد حصار طويل استمر قرابة سبعة أشهر على أنطاكية من قبل الصليبيين حتى أن الجيش الصليبي ضاق ذرعاً بطول الحصار فأخذ شبح المجاعة يتهدد الصليبيين أمام أسوار أنطاكية لدرجة أن الفوضى وسوء النظام دبت بين الجند نتيجة لتأثير الجوع والإنهاك، فأخذ بعض الصليبيين يفرون من المعركة ويتسللون خفية هاربين، في هذا الموقف الحرج في هذه الفترة اتصل الزعيم النصيري فيروز الذي كان موكلاً بحراسة أحد أبراج المدينة من قبل الأمير ياغيسيان بالقائد الصليبي بوهيموند على تسليم البرج إليه ودخول المدينة منه، والاستيلاء عليها، فتم الاتفاق بينهما على ذلك وعند الفجر تسلق بوهيموند وأصحابه السلالم صاعدين إلى البرج حيث كان ينتظرهم فيروز وبمساعدته استطاعوا أن يحتلوا باقي الأبراج وتمكنوا من احتلال المدينة بكاملها فأعملوا

السيف في أهلها، ونهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم، وهكذا تمكن الصليبيون من الاستيلاء على أنطاكية بمساعدة الزعيم النصيري فيروز ولو لم يجد الصليبيون هذا الرجل الخائن الذي أعانهم على فتح المدينة لكان حصارهم لها قد طال كثيراً ولكانت النتيجة غير ما آلت إليه بعد ذلك[1].

ومن الأدلة الأخرى التي تثبت تعامل النصيرية مع الصليبيين ومساعدتهم لهم ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في سياق فتواه عن النصيرية إذ قال: ((ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم (أي جهة النصيريين) وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين فهم مع النصارى على المسلمين. ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل وانقهار النصارى ومن أعظم أعيادهم إذا استولى-والعياذ بالله تعالى- النصارى على ثغور المسلمين... فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك[2]).

ويستطرد شيخ الإسلام ابن تيمية في فضح مواقف هؤلاء الخونة ومآلأتهم للصليبيين، وينبه إلى عدم استخدام أمثال هؤلاء في حراسة ثغور المسلمين حتى لا يؤخذوا من قبلهم فيقول: ((وأما استخدام مثل هؤلاء (أي النصيريين) في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوط ٢/ ورقة ١٩ ب، سليمان الحلبي: طائفة النصيرية ص ١٠٩، عبد الله الأمين: دراسات في الفرق ص ١٢٨، سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق ص ١٣٥.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى ٣٥/١٥٠- ١٥١.

لرعي الغنم، فإنهم من أغش النّاس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص النّاس على تسليم الحصون إلى عدو المسلمين وعلى إفساد الجند على ولي الأمر وإخراجهم عن طاعته.

والواجب على ولاة الأمور قطعهم من دواوين المقاتلة، فلا يتركون في ثغر ولا في غير ثغر، فإن ضررهم في الثغر أشد، وأن يستخدم بدلهم من يحتاج إلى استخدامه من الرجال المأمونين على دين الإسلام، وعلى النصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، بل إذا كان ولي الأمر لا يستخدم من يغشه وإن كان مسلماً فكيف بمن يغش المسلمين كلهم؟[1]))).

ومن الملاحظ في تاريخ الفرق الباطنية أن هذه الفرق كانت دائماً تتحالف مع أي عدو للمسلمين وتقدم له العون في سبيل القضاء على أهل السنة وهذا ما أشار إليه فيليب حتى في معرض كلامه عن بعض الطوائف والفرق فقال: ((ثم إن العناصر الإسلامية المنشقة من شيعة وإسماعيلية ونصيرية عمدوا في مناسبات عديدة على نقض ولائهم بتقديم العون إلى الإفرنج))[2].

ومما يدل أيضاً على تعامل النصيريين مع الصليبيين ومساعدتهم لهم ما ذكره الشيخ محمّد أبو زهرة في كتابه تاريخ المذاهب الإسلامية فقال: ((كانت النصيرية عند الهجوم الصليبي على العالم الإسلامي عوناً للصليبيين ضد المسلمين، ولما استولى الصليبيون على بعض البلاد الإسلامية قربوهم وأدنوهم، وجعلوا لهم مكاناً

(١) ابن تيمية: الفتاوى ٣٥/١٥٥- ١٥٦.

(٢) فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢/٢٥٩.

مرموقاً. وعندما توحدت الجبهة الإسلامية في وجه الصليبيين على يد قادة الجهاد الإسلامي أمثال نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي اختفى هؤلاء عن الأعين واعتصموا بجبالهم، واقتصر عملهم على تدبير المكايد والفتن والفتك بكبراء المسلمين وقوادهم العظام. ولما أغار التتار بعد ذلك على الشام مالأهم أولئك النصيريون كما مالئوا الصليبيين من قبل، فمكنوا للتتار من الرقاب، حتى إذا انحسرت غارات التتار قبعوا في جبالهم قبوع القواقع في أصدافها لينتهزوا فرصة أخرى))[1].

(١) محمّد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الاسلامية ٦٤/٩.

المبحث الثالث

مساعدة الدروز للصليبيين

بعد سقوط مدينة أنطاكية بيد الصليبيين في عام ٤٩٠هـ وتمكن القائد الصليبي بوهيموند من جعل أنطاكية مملكة له، أخذ في الاستعداد للزحف جنوباً قصد السيطرة على بيت المقدس والأماكن المقدسة في فلسطين، فتحركت جموع الصليبيين صوب جنوب بلاد الشام مستولية على ما في طريقها من مدن وقرى. في هذا الوقت كان التنوخيون يشكلون عماد دعوة الدروز الموحدين في جبل لبنان، وتذكر المصادر أنه عندما توجه الصليبيون نحو الجنوب لم يلاقوا أي مقاومة من قبل الأمراء المحليين، بل أن بعض هؤلاء الأمراء صالح الصليبيين وأعطاهم الأمان. أما التنوخيون الدروز فكان موقفهم من الزحف الصليبي سلبياً للغاية، فلم يعترضوا سبيل القوات الصليبية القادمة من أنطاكية والمتجهة إلى بيت المقدس، ولم يمسوها بسوء بل مرت بأمان من جوارهم[1].

لم يقف التنوخيون الدروز عند حد... وقوفهم متفرجين على الزحف الصليبي بل تعدى الأمر لأبعد من ذلك حيث قام أحد زعمائهم بمصالحة الصليبيين والانسحاب من صيدا وتسليمها لهم. ففي عام ٤٩٥هـ ولى شمس الملوك دقاق ملك دمشق عضد الدولة عليّ التنوخي على مدينة صيدا وأمره بتحصين المدينتين (صيدا وبيروت) فحصنهما وأرسل إلى صيدا نائباً عنه هو الأمير مجد الدولة محمّد بن

(١) نديم حمزة: التنوخيون أحداد الموحدين الدروز ص ٨١.

عدي، وظل في صيدا إلى أن سقطت بيد الفرنج عام ٥٠٤هـ، فخرج منها بعد أن صالح الفرنج عليها بالأمان[١].

ظل الزعماء التنوخيون فيما بعد على هذه الشاكلة، إما مصالحين للفرنج متفرجين عليهم، أو يعقدون العلاقات الودية معهم وتقديم العون لهم. ففي عام ٥٢٨هـ انتقلت إمارة التنوخيين إلى الأمير بحتر بن شرف الدولة علي، والذي استطاع أن يحافظ على منطقة الغرب والتهيئة لسقوطها في يد الصليبيين وذلك بسبب مهادنته لهم وعدم الوقوف في وجههم ومحاربتهم[٢].

وبعد وفاة الأمير بحتر انتقلت اقطاعاته وشئون الإمارة إلى ابنه كرامة الملقب ب ((زهرة الدولة أبو العز كرامة))، وفي هذا الوقت كانت حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في أوجها على يد القائد المسلم نور الدين محمود ، الذي عمل على استقطاب الأمراء المحليين من حوله حتى يضمن تماسك الجبهة الإسلامية من الداخل، وكان من ضمن هؤلاء الأمراء الأمير كرامة الذي سارع في الدخول في خدمة الدولة النورية مهملا الفرنج مما يدل على ان الامير كرامة كان قبل ذلك محالفا للصليبيين داخلا في طاعتهم[٣].لكن الأمير كرامة لم يطل به العمر، فلم يلبث أن توفي، فخلفه في الإمارة أولاده الأربعة الذين لم يجدوا حرجا في مهادنة الفرنج وبناء العلاقات الجيدة مع حكام بيروت الصليبيين [٤].

---

(١) نديم حمزة: التنوخيون أجداد الموحدين الدروز ص ٨٢.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٨٩.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٩١.

(٤) نفس المرجع السابق ص ٩٤.

وفي أيام دولة المماليك، وعندما كان الظاهر بيبرس يعمل على استعادة السواحل من الفرنج ازدادت شكوكه في علاقة الأمراء التنوخيين الدروز بالصليبيين، فعلم باتصال الدروز بوالي طرابلس الصليبي فتوجس منهم خيفة، فأصدر أمرا بالقبض على هؤلاء الأمراء ليأمن غدرهم ووضعهم في السجون، وعندما توسط بعض الأمراء من المماليك لدى الظاهر بيبرس للإفراج عنهم، كان جواب السلطان: ((هؤلاء لا إفراج عنهم ولا آذيهم حتى أفتح طرابلس وبيروت وصيدا))[1].

ومن الأدلة الأخرى التي تثبت عداء الدروز للمسلمين السنّة وتحالفهم مع كل عدو لهم، وتقديم العون له هو ما ذكره شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في معرض جوابه على سؤال عن الدروز فقال: ((إن هؤلاء لا يجوز استخدامهم للحراسة والبوابة والحفاظ))[2]. فهذا دليل على أن هؤلاء القوم دأبوا على الخيانة وتقديم المساعدة إلى أعداء المسلمين فلا يؤتمنوا على القيام بحراسة المسلمين، أو يكونوا جنداً في صفوف جيش المسلمين حتى لا يؤتى الصف من داخله.

(١) نفس المرجع السابق ص ١١٠، عبد الله الأمين: دراسات في الفرق ص ١٦١.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى ١٦٣/٣٥.

الخاتمة

الخاتمة

بعد توفيق الله سبحانه وتعالى وامتنانه علي، انتهيت من دراسة موضوع بحث الرسالة، ومن خلال دراستي للموضوع توصلت إلى كثير من النتائج المهمة، سواء على صعيد دراسة عقائد وأفكار الحركات الباطنية، أو موقف وأعمال تلك الحركات.

فمن النتائج المهمة التي توصلت إليها، أن الحركات الباطنية لعبت دوراً خطيراً في أحداث التاريخ الإسلامي، روحياً وسياساً، فمن الناحية الروحية عملت هذه الحركات الباطنية على تبديل العقائد الإسلامية فحرفتها وزادت عليها وحذفت منها، حتى أصبحت في صورة ممسوخة أقرب ما تكون إلى الخرافات، وأخذ زعماء تلك الحركات يخترعون ما يحلوا لهم من أفكار وعقائد تتفق مع أهوائهم ونزعاتهم الشخصية، حتى أصبحت هذه الحركات أشد ما تكون خطراً على العقيدة الإسلامية الصحيحة والفكر الإسلامي القويم.

أما من الناحية السياسية فلقد أخذت الحركات الباطنية على عاتقها نشر الاضطرابات بين المسلمين، وإثارة الفتن بين أفراد المجتمع الإسلامي، فأخذت تحيك المؤامرات وتبث دعاتها في كل مكان، واستغلت كل نقطة ضعف في المجتمع الإسلامي وتسللت منها لتنفيذ مخططاتها، فافتعلت المشاكل وحاولت السيطرة على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي، ووجهت خناجرها الغادرة إلى ظهور القادة المسلمين الذين ندبوا أنفسهم لجمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم للوقوف في وجه الأعداء من صليبيين وغيرهم.

إن البلبلة التي أحدثتها الحركات الباطنية في المجتمع الإسلامي كان لها الأثر الكبير في تثبيط الروح الجهادية ضد أعداء الأمة الإسلامية الذين أخذوا يتكالبون

عليها من كل جانب طمعاً في خيراتها، وعملاً على تقليص نفوذها، لقد كان من نتائج سياسة تلك الحركات المعادية للمسلمين من أهل السنّة نجاح الصليبيين في حملاتهم العدوانية على العالم الإسلامي، فاستطاعوا بفضل مساعدة الحركات الباطنية لهم بطريق مباشر أو غير مباشر. تحقيق معظم أهدافهم التي جاءوا من أجلها، فتمكنوا من تأسيس إمارات صليبية لهم في بلاد الشام والجزيرة أصبحت كالخناجر في قلب العالم الإسلامي، وسيطروا على بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين ودنّسوه بخيولهم وسفكوا فيه الدماء، استطاع الصليبيون من خلال تلك الإمارات شن الغارات على بلاد المسلمين المجاورة لهم ونهبها وسلب غلالها ونشر الرعب فيها.

ومن النتائج الهامة التي توصلت إليها الدراسة بيان مواقف الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر وعلى رأسها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، فإن هذه الدولة لم تدرك هدف الحركة الصليبية الأساسي فظنت أنها حملات تهدف إلى تأسيس إمارات صليبية في شمال بلاد الشام مما دعا الوزير الأفضل إلى الاتصال بالصليبيين في محاولة لاقتسام بلاد الشام مع الصليبين وتدمير قوة السلاجقة السنيين وإزالتها من بلاد الشام، فترادفت الرسل بينهم وتبودلت الهدايا، ولم تشعر الخلافة الفاطمية بخطر الصليبيين وحقيقة أهدافهم إلا بعد فوات الأوان، حيث سقطت المعاقل الإسلامية جميعها في شمال بلاد الشام، وواصل الصليبيون زحفهم جنوباً حتى بيت المقدس هدفهم الأساسي واستطاعوا الاستيلاء عليه عام ٤٩٢هـ، عندها أدرك الوزير الأفضل حقيقة نوايا الصليبيين، فسارع إلى إرسال الحملات العسكرية المتوالية لردع الصليبيين وتوقيف زحفهم صوب الجنوب ولكن جميع هذه الحملات باءت بالفشل، ولم تستطع أن تحقق الهدف من إرسالها، وكانت مقاومة الفاطميين للصليبيين فيما بعد مقاومة باهتة، لم تتناسب مع حجمهم كدولة كبرى وقوية لها

مقدراتها وأهدافها وجيشها القوى، مما ترتب على ذلك فقد الدولة الفاطمية لجميع معاقلها ومدنها وموانئها في سواحل بلاد الشام لحساب الصليبيين.

وبينت الدراسة كذلك أن الخلاف المذهبي الذي كان قائماً بين الفاطميين من جهة والعباسيّين والسلاجقة من جهة أخرى، حال دون قيام أي وحدة إسلامية، أو تحالف إسلامي يتصدى للزحف الصليبي، إلا من بعض المحاولات العرجاء بين ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق والوزير الأفضل، وهي محاولات لم يكن لها أي أثر في سير الأحداث، بل بالعكس ساعد ذلك كله الصليبيين على تحقيق أهدافهم والاستيلاء على مزيد من المعاقل والحصون.

وبرهنت الدراسة أيضاً على أن نور الدين محمود أدرك بحسه العسكري منذ البداية أهمية موقع مصر الاستراتيجي، وأن القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية فيها وإعادتها إلى صف أهل السنة سوف يرجح الكفة العسكرية لصالح الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وذلك بما تملكه مصر من قوة بشرية واقتصادية، فبادر نور الدين محمود على الفور بإرسال الحملات العسكرية المتكررة على مصر بقيادة قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، حيث تمكنا في النهاية من الاستيلاء على مصر والقضاء على الدولة الفاطمية فيها عام ٥٦٧هـ وبعودة مصر إلى صف أهل السنة، وضع الصليبيون بين شقي الرحى، حيث اتخذها صلاح الدين فيما بعد قاعدة له في جهاده ضد الصليبيين.

وأوضحت الدراسة أن الحركة النزارية الباطنية كانت حجر عثرة أمام حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبين، بما أقدمت عليه من قتل واغتيال القادة والزعماء المسلمين الذين أخذوا على عاتقهم توحيد الجبهة الإسلامية، وبعث فكرة الجهاد الإسلامي وحمل راية لوائه ضد الصليبيين، فلقد قامت هذه الحركة بالتعاون مع الصليبيين ومد يد العون لهم في كل ما يحتاجونه، وساعدتهم في تحقيق أهدافهم

فخاضت معهم بعض المعارك جنباً إلى جنب ضد المسلمين، وعقدت معهم التحالفات، إضافة إلى ذلك أقدمت هذه الحركة على عمل خسيس خدم الصليبيين خدمة كبيرة فقامت باغتيال قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين وتصفيتهم، فاغتالت جناح الدولة حسين صاحب حمص سنة ٤٩٥هـ وشرف الدولة مودود صاحب الموصل سنة ٥٠٧هـ وآقسنقر البرسقي صاحب الموصل سنة ٥٢٠هـ.

وأثبتت الدراسة كذلك أن ما قامت به الحركة النزارية داخل المجتمع الإسلامي من قتل ونهب ونشر للرعب والخوف بين أفراده، كان له الأثر الكبير في تثبيط الروح الجهادية، وعرقلة الجهاد ضد الصليبيين، حيث أصبح لا همَّ للناس إلا البحث عن كيفية النجاة من بطش هؤلاء الباطنية.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن النصيرية والدروز كانوا وما يزالون أشد خطراً على الإسلام والمسلمين، وبذلك أفتى علماء المسلمين أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، فلقد دأب هؤلاء القوم على الخيانة ومما لأة أعداء المسلمين، فانخرطت النصيرية في المجتمع الصليبي وتأثروا بهم في كثير من أفكارهم وعباداتهم، وقدموا للصليبيين كل ما يحتاجونه في حربهم للمسلمين. وكذلك الدروز كانت تصرفاتهم كلها نابعة من مصالحهم الشخصية، فإن كانت المصلحة في التعامل مع الصليبيين، أسرعوا إليها، وإن كان غير ذلك وقفوا على الحياد وكأن الأمر لا يعنيهم لامن قريب ولا من بعيد.

وأخيراً برهنت الدراسة على أن الخلاف الذي كان يدب أحياناً بين القادة المسلمين، مثل النزاع الذي حصل بين أبناء السلطان السلجوقي ملكشاه على السلطة كان سبباً في انتعاش الباطنية وظهورها بشكل واضح في المجتمع الإسلامي حيث كانت تستغل ذلك النزاع لصالحها في تثبيت أقدامها داخل المجتمع الإسلامي، وزيادة رقعة مناطق نفوذها، وبينت الدراسة أن عدم تعامل القادة

المسلمين مع الباطنية ومهادنتهم كان سبباً في انتصار المسلمين على الأعداء من صليبيين وغيرهم.

وبرهنت الدراسة أيضاً على أن هؤلاء القوم من الباطنية، كانوا العامل الأساسي في مكوث الصليبيين هذه الفترة الطويلة في بلاد المسلمين حيث ساهموا بشكل فعال في إفشال أي جهود تبذل من أجل الوحدة الإسلامية وعرقلة الجهاد ضد الصليبيين.

وفي النهاية أرجو من الله أن أكون قد وفقت في عرضي لدور الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان... ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

الملاحق

الملحق الأول : النصوص والوثائق الهامة المتعلقة بموضوع البحث

الملحق الثاني : تراجم بعض المشاهير من القادة المسلمين الذين واجهوا الباطنية

الملحق الثالث : تراجم أشهر زعماء الباطنية في تلك الفترة

الملحق الرابع : جدول بأسماء القادة والعلماء الذين اغتيلوا بيد الباطنية

الملحق الأول

النصوص والوثائق الهامة المتعلقة بموضوع البحث

رسالة السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقي إلى الحسن بن الصباح في أوائل سنة ٤٨٣هـ: [١]

أنت يا حسن الصباح قد أظهرت ديناً جديداً، تخدع به الناس، وتغريهم على الخروج على والي الزمان، وجمعت نفراً من جهال الجبال تكلمهم على مقتضى طبعهم، فيذهبون ويغتالون الأبرياء، وتطعن في الخلفاء العباسيين الذين هم خلفاء الإسلام، وقوام الملك والملة، وبهم يوثق نظام الدين والدولة، فهلا خرجت عن هذه الضلالة وتركت هذه الغواية، وانضويت تحت راية الإسلام، إن جيوشي متوقفة على مجيئك، أو مجيء جوابك، وعليك أن ترحم نفسك ونفوس أتباعك، ولا تلق نفسك ونفوسهم إلى التهلكة، ولا يغرنك منعة قلاعك، وعليك أن تعلم أنه لو كانت قلعتك (آلموت) برجاً من بروج السماء لهدمنا أركانها بعون الله سبحانه وتعالى.

(١) مصطفى غالب: الثائر الحميري (الحسن بن الصباح) ص ١٢١.

رسالة من الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى سنان راشد الدين رئيس الحشيشية في الشام[1]

من الملك الناصر أبي المظفر صلاح الدين ملك مصر، إلى سنان راشد الدين زعيم الإسماعيلية في بلاد الشام:

اعلم يا سنان أنك وإن كنت قد أغلقت أبواب قلاعك، وأوصدت أبراج حصونك في وجهي، وأقمت الحراس، وحشدت الفدائية بالنبال والأقواس، فأنت لا تقدر أن تنجو من صلاح الدين، الذي سيقطع رأسك، ويخمد أنفاسك بالرغم من فدائيتك وحراسك. أنا قادم إليك بجيوشي ورجالي، فإما أن تأتي إلينا خاضعاً تائباً، ولأوامرنا طائعاً، أنت وجميع قوادك ورؤساء جنودك، وتسلموا إلينا مفاتيح القلاع والحصون، لنرفع عليها الأعلام والبنود، وإما نصبنا عليكم المنجنيقات فلا أبقينا منكم أحداً على قيد الحياة. وقد أعذر من أنذر والسلام.

صلاح الدين

(١) مصطفى غالب: سنان راشد الدين ص ١٢٣، نقلاً عن كتاب البستان مخطوط اسماعيلي ورقة ٣١٣-٣١٤.

رسالة من سنان راشد الدين إلى صلاح الدين رداً على رسالته[1]

ياذا الذي بقراع السيف هددنا ... الا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازي يهدده ... واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى باصبعه ... يكفيه ما قد تلاقي منه اصبعه

وقفنا على تفاصيله وجمله، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله فيا لله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل، وبعوضة تعد في التماثيل ولقد قالها من قبلك قوم آخرون، فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين أو للحق تدحضون، وللباطل تنصرون؟ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وأما ما صدر من قولك في قطع رأسي، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي، فتلك أماني كاذبة، وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض، كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض، كم بين قوي وضعيف، ودني وشريف؟ وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات، وعدلنا عن البواطن والمعقولات، قلنا أسوة برسول الله ﷺ في قوله: ((ما أوذي نبي ما أوذيت)) ولقد علمتم ما جرى على عترته، وأهل بيته وشيعته، والحال ما حال، والأمر ما زال، ولله الحمد في الآخرة والأولى إذ نحن مظلومون لا ظالمون، ومغصوبون لا غاصبون، وإذا جاء الحق زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، ولقد علمتم ظاهر حالنا، وكيفية رجالنا، وما يتمنونه من الفوت، ويتقربون به إلى حياض الموت، ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/١٨٦-١٨٧.
هذه الرسالة أوردها القاضي الفاضل على هذه الصورة، وقال بأن سنان راشد الدين أرسلها إلى الملك العادل نور الدين محمود رداً على رسالته التي أرسلها إليه، يتهدده ويتوعده فيها (يقول ابن خلكان) والصحيح أنه كتبها إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والله أعلم. انظر: ابن خلكان ٥/١٨٧.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾[1] وفي أمثال العامة السائرة: أو للبط تهددون بالشط؟ فهيىء للبلايا جلباباً، وتدرع للرزايا أثوابا، فلأظهرن عليك منك، ولأفتننهم فيك عنك، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه، وما ذلك على الله بعزيز.... فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد ومن حالك على اقتصاد، واقرأ أول النحل[2]، وآخر صاد[3].

رسالة من العاضد الخليفة الفاطمي إلى نور الدين محمود مستنجداً ضد الصليبيين الذين هددوا القاهرة[4]

((هذه شعور نسائي من قصري يستغث بك لتنقذهن من الفرنج)).

رسالة شاور إلى ملك القدس الصليبي مرى (أمالريك) يستنجده ضد أسد الدين شيركوه[5]

استجاب نور الدين محمود لنداء العاضد وأرسل له جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه، أبعد الخطر الصليبي عن مصر، وأراد شاور أن يتخلص من شيركوه، ولكن شيركوه رفض العودة بخفي حنين، فأرسل شاور إلى ملك القدس يستنجده ضد شيركوه ويقول:

---

(١) سورة الجمعة: ٦-٧.

(٢) أول سورة النحل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(٣) آخر سورة ص: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٣٨.

(٥) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ١٦٧/١.

((إنّ شيركوه طلع معي نجدة على ضرغام، فلما حصلوا في البلد طمعوا فيها، ومتى ملكوها مضافة إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولا قرار)).

رسالة شاور إلى شيركوه أثناء حصاره له في بلبيس[1]

حاصر الفرنج وقوات شاور شيركوه في بلبيس وطال عليهم الحصار وفي تلك الأثناء أثخن نور الدين في بلاد الفرنج، فقرر هؤلاء العودة إلى بلادهم، فاستمهلهم شاور أياماً، ثم بدأ يراسل شيركوه في الصلح وأرسل إليه يقول:

((اعلم أني أبقيت عليك ولم أمكن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين عليك، وإنما فعلت ذلك لأمرين: أولهما: أني ما أختار أن أكسر جاه المسلمين، وأقوي الفرنج عليهم، والثاني: أني خفت أن الفرنج إذا فتحوا بلبيس طمعوا فيها وقالوا: هذه لنا لأنا فتحناها بسيوفنا وما من يوم كان يمضي بمصر إلا وأنا أنفذ إلى كبار الفرنج الجملة من المال، وأسألهم أن يكسروا همة الملك عن الزحف)).

رسالة شيركوه إلى شاور لما قدم مصر للمرة الثانية واجتمع شاور مع الصليبيين ضده[2]

اجتمع شاور والصليبيون على حرب شيركوه، ورأى شيركوه في ذلك فرصة نادرة للقضاء عليهم إذا ما انضم شاور إليه فأرسل اليه يقول:

((أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه،

---

(١) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ١/١٦٧.

(٢) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ١/١٦٨.

أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود اليها أبداً، ولا أمكن أحداً من التعرض إليها، ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه، وما أؤمل منك إلا نصر الإسلام فقط. وهو أن العدو قد حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت، والغنيمة التي قد كتبت فنستأصل شأفته، ونخمد ثائرته وما أظن أنه يعود فيتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً)).

ولكن شاور رفض ذلك.

رسالة شاور إلى مرى ملك بيت المقدس الفرنجي[1]

هاجم الفرنج مصر بعد رحيل شيركوه عنها، فأرسل شاور إلى نور الدين يستنجده ضدهم، ولجأ في نفس الوقت إلى المراوغة فأرسل إلى مري يقول:

((إن هذا بلد عظيم كبير وفيه خلق كثير، ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم، ولا تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة. والرأي أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي، وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً)).

واستقرت المصالحة على أربعمائة ألف دينار.

رسالة مرى ملك الفرنج إلى شاور[2]

كان بين شاور وملك الفرنج اتفاق يُقدم له شاور بموجبه جزية سنوية في حال

(١) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ١/١٧١.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٢٩٢، أبو شامة: الروضتين ١/١٧٠.

مساعدته على صد أعدائه عنه. وقد أحس ملك الفرنج بضعف شاور ومصر بعد رحيل شيركوه عنها، فأراد إما احتلالها أو مضاعفة الجزية فزحف نحو مصر وأرسل إلى شاور يقول:

((إني قد قصدت الخدمة على ما قررته لي من العطاء في كل يوم)).

جواب شاور إلى الملك عن رسالته السابقة

((إن الذي قررته إنما جعلته لك متى احتجت إلى نجدتك، أو إذا قدم عليّ عدو، فأما مع خلو بالي من الأعداء فلا حاجة لي إليك ولا لك عندي مقرر)).

جواب الملك إلى شاور عن الرسالة السابقة

((لا بد من حضوري وأخذ المقرر)).

رسالة مرى ملك الفرنج إلى شاور لما احتل بلبيس وقتل سكانها[1]

احتل مرى بلبيس وسبى نساءها، وأسر ولدين من أولاد شاور وأرسل إليه يقول:

((إن ابنك قال: أيحسب مري أن بلبيس جبنة يأكلها؟ نعم بلبيس جبنة والقاهرة زبدة)).

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢٩٣/٣، أبو شامة: الروضتين ١٧٠/١.

رسالة من المستعلي خليفة مصر إلى السيدة الملكة أروى بنت أحمد بن جعفر الصليحي حاكمة اليمن[1]

لما توفي المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٨٧هـ وخلفه ابنه أبو القاسم أحمد الملقب بالمستعلي بالله، أيدت السيدة الحرة الملكة أروى صاحبة اليمن خلافته، فأرسل المستعلي إلى السيدة الحرة رسالة مؤرخة في ٨ صفر سنة ٤٨٩هـ تضمنت وصفاً لثورة نزار وتغلب وزيره الأفضل بن بدر الجمالي عليها نهائياً. ومما ورد في هذه الرسالة:

((من عبد الله ووليه أحمد أبي القاسم الإمام المستعلي با لله أمير المؤمنين ابن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى الحرة، الملكة السيدة، السديدة، ولية أمير المؤمنين. قد علمت ما كان قد صدر إليك من حضرة أمير المؤمنين، عندما أصاره ا لله تعالى إليه من إرث خلافته وذلك بالنص الذي كان من مولانا الإمام المستنصر با لله... وإن البيعة انتظمت لأمير المؤمنين على أجمل القضايا والأسباب. ودخل النّاس فيها من كل باب بحسن سياسة فتاه وخليله، السيد، الأجل، الأفضل، أمير الجيوش سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين وكان الأمراء اخوة أمير المؤمنين أول من دخل في البيعة مسارعاً، وانقاد لأحكامها طائعاً.. ومن جملتهم نزار وهو الأخ الأكبر سناً... ثم إن الشيطان استزله واستغواه، ففارق جناب أمير المؤمنين... وسار منه متوغلاً في القفار، راكباً الأخطار حتى وصل إلى الإسكندرية، وفيها أفتكين – أحد مماليك السيد الأجل، أمير الجيوش.. فقابل هذا العبد العاق نعم مواليه بالكفر، وأظهر ما كان كامناً في نفسه من الخيانة

(١) محمّد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص ٩٣-٩٤.

والغدر، ووافق نزاراً على ما سعى إليه من فساد.. فتقدم أمير المؤمنين إلى فتاه الأمين.. بأن يكاتبهم معذراً وزاجراً وهم على غلوائهم متمادون.. إلى أن حملهم العدوان على البروز عن الإسكندرية فيمن انضم إليهم من لفيف الأجناد وطوائف العربان المغاربة والسودان.. وأمير المؤمنين يمده بصائب الآراء.. فصدمهم صدمة تزعزع منها أركان الجبال، وأحل بجمعهم قوارع الشتات والنكال.. ولما يسر الله تعالى مفتتح هذا النصر أذن أمير المؤمنين لفتاه السيد الأجل باتباعهم.. فتوجه يقتص آثارهم وحمي بين الفريقين وطيس الهجاء.. وكان المخازيل في هذه النوبة قد تجمعوا من كل فج وواد، فزادت عدتهم على ثلاثين ألف فارس وراجل فرمى الله جمعهم بالحتف العاجل.. وطار نزار وافتكين على رسمهما في الفرار، وكان الفتح في هذه الوقعة مثل ما تقدمه بحملات واصلها السيد الأجل بنفسه وغلمانه، فلم تزل السيوف تتحكم فيهم إلى أن سترتهم الظلماء وقتل وأسر منهم ألوف كثيرة، وتوجه نحوهم، حتى نزل على البلدة، فحصرها براً وبحراً، وحضر شهر الصوم، فأخر مناجزتهم حفظاً لحرمة الشهر الشريف فلما انقضى (هذا الشهر) ولم تنقض غوايتهم وبغيهم. رماهم بحجارة المنجنيقات، فلم تمض إلا أيام قلائل حتى تداعى الحصن من سائر أركانه فتهاوت الرجال مستأمنين وبالعفو لائذين، فخرج (أفتكين) بغير عهد ولا عقد يتعلق به، ووقف بين يدي مولاه ملحفاً ثوب الذل والهوان، فأضرب عنه صفحاً، وتوفر على المهم من الحوطة على نزار، وحفظ الثغر من عوادي النهب والأضرار)).

رسالة من والدة الخليفة المستعلي بالله إلى السيدة الحرة الملكة أروى بنت أحمد الصليحية[1]

حاولت والدة الخليفة المستعلي بالله صاحب مصر جذب الدعاة في اليمن إليه لتأييد إمامته، فبعثت إلى السيدة الحرة أروى ملكة اليمن رسالة، تحدثت فيها عن عهد الخليفة المستنصر لولدها أبي القاسم أحمد وثورة نزار وأفتكين بالإسكندرية على خلافته. ومما جاء في هذه الرسالة ما يلي:

((من السيدة الملكة الكريمة... والدة الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين ابن الإمام المستنصر بالله، إلى الملكة السيدة، السديدة.. قد اشتهر بين كافة المؤمنين، وأولياء الدين، ورعايا الدولة أجمعين أن الإمام المستنصر بالله كان يشير (بالإمامة) إلى ولده الإمام المستعلي بالله، ثم أفصح، وأنه تولى بنفسه الشريفة الكريمة توفيقه وتفهيمه، واختصه دون الأولياء بمزية ألفه وأنسه، ثم انتقل إلى دار الكرامة، ومحل الإقامة، بعد أن أظهر النص عليه، وأعلن بنقل الأمر إليه، وجعل خليله ووزيره، السيد الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام ولياً أعلى الله همته في ارتياد الصلاح واغتنامه، ومدبراً جرى به أمر المملكة على اطراده وانتظامه، فقام لأمير المؤمنين بأمر البيعة أحسن قيام، وكان أول داخل فيها الأمراء اخوة أمير المؤمنين تسليماً لحقه واذعاناً، وعلماً بأن الله تعالى يفيض شعار الإمامة على من يرتضيه ومن جملتهم نزار أخوه الأكبر سناً فإنه عرف الحق فعاهد وبايع ثم أدركه الحسد... فانسل ذليلاً تحت جنح الليل... ومضى إلى الإسكندرية وبها أفتكين، واجتمعا معاً على الفتنة... واستغويا طوائف من المنافقين... وكان أمير المؤمنين بما آتاه الله تعالى من شرف

(١) محمّد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص ٩٥.

العلم وحبب إليه من الفضل والحلم، موعزاً إلى فتاه وخليله السيد الأجل الأفضل، بمواصلتهم بالمكاتبات المشتملة على الإنذار والإعذار... وهم متمادون على غلوائهم في البغي والعناد... فعند ذلك أذن له مولانا في لقائهم)).

ملخص نص فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية في النصيرية[1]

أجاب شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية حين سُئِل عن النصيرية فقال:

((هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من إليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمّد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل: كفار التتار والفرنج وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله، ولا برسوله، ولا بكتابه ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين قبل محمّد ﷺ، ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأولونه على أمور يفترونها يدعون أنها علم الباطن. ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكتب مصنفة، فإذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين كما قتلوا مرة الحُجّاج وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا مرة الحجر الأسود وبقي عندهم مدة، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى.

ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم،

---

(١) تجد نص فتوى شيخ الاسلام في النصيرية كاملاً في كتاب الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٣٥/١٤٥- ١٦٠.

وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل، وانقهار النصارى، بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار ومن أعظم أعيادهم إذا استولى- والعياذ بالله تعالى- النصارى على ثغور المسلمين فإن ثغور المسلمين ما زالت بأيدي المسلمين، حتى جزيرة قبرص يسر الله فتحها عن قريب.

فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك، ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى كنور الدين الشهيد وصلاح الدين، وأتباعهما، وفتحوا السواحل من النصارى، وممن كان بها منهم، وفتحوا أيضاً أرض مصر، فإنهم كانوا مستولين عليها نحو مائتي سنة، واتفقوا هم والنصارى، فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد، ومن ذلك التاريخ انتشرت دعوة الإسلام بالديار المصرية والشامية.

ثم إنّ التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم، فإن منجم هولاكو الذي كان وزيرهم وهو ((النصير الطوسي)) كان وزيراً لهم بالآلموت، وهو الذي أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء.

ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين، تارة يسمون ((الملاحدة)) وتارة يسمون ((القرامطة)) وتارة يسمون ((الباطنية)) وتارة يسمون ((الإسماعيلية)) وتارة يسمون ((النصيرية)) وتارة يسمون ((الخرمية)) وتارة يسمون ((المحمرة)) وهذه الأسماء منها ما يعمهم، ومنها ما يخص بعض أصنافهم، كما أن الإسلام والإيمان يعم المسلمين. ولبعضهم اسم يخصه: إما لنسب، وإما لمذهب وإما لبلد، وإما لغير ذلك. وشرح

مقاصدهم يطول، وهم كما قال العلماء فيهم: ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض، وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء والمرسلين، ولا بشيء من كتب الله المنزلة.

وأما استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم، فإنهم من أغش النّاس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص النّاس على فساد المملكة والدولة، وهم شر من المخامر الذي يكون في العسكر، فإن المخامر قد يكون له غرض: إمّا مع أمير العسكر، وإمّا مع العدو. وهؤلاء مع الملة ونبيها، ودينها، وملوكها، وعلمائها، وعامتها، وخاصتها ((وهم أحرص النّاس على تسليم الحصون إلى عدو المسلمين، وعلى إفساد الجند على ولي الأمر وإخراجهم عن طاعته)).

والواجب على ولاة الأمور قطعهم من دواوين المقاتلة، فلا يتركون في ثغر، ولا في غير ثغر، فإنّ ضررهم في الثغر أشد، وأن يستخدم بدلهم من يحتاج إلى استخدامه من الرجال المأمونين على دين الإسلام، وعلى النصح لله ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، بل إذا كان ولي الأمر لا يستخدم من يغشه وإن كان مسلماً فكيف بمن يغش المسلمين كلهم... ولا يجوز له تأخير هذا الواجب مع القدرة عليه، بل في أي وقت قدر على الاستبدال بهم وجب عليه ذلك.

((ولا ريب أنّ جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، فإن هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، و الصديق وسائر الصحابة بدأوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب. فإن جهاد هؤلاء حفظ لما فتح من بلاد المسلمين)) وأيضا فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك، بل ضرر

هؤلاء من جنس ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، وضررهم في الدين على كثير من النّاس أشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب.

ويجب على كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب ما يقدر عليه من الواجب، فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، ولا يحل لأحد أن يعاونهم على بقائهم في الجند والمستخدمين، ولا يحل لأحد السكوت عن القيام عليهم بما أمر الله به ورسوله، ولا يحل لأحد أن ينهى عن القيام بما أمر الله به ورسوله، فإن هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وهؤلاء لا يخرجون عن الكفار والمنافقين.

والمعاون على كشف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان، له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإن المقصود بالقصد الأول هو هدايتهم، كما قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قال أبو هريرة: كنتم خير النّاس للناس تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الإسلام. فالمقصود بالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد بحسب الإمكان، فمن هداه الله سعد في الدّنيا والآخرة، ومن لم يهتد كفّ الله ضرره عن غيره.

نص جواب شيخ الإسلام ابن تيمية حين سئل عن ((الدرزية)) و((النصيرية)) ما حكمهم؟[1]

فأجاب: هؤلاء ((الدرزية)) و ((النصيرية)) كفار باتفاق المسلمين لا يحل أكل ذبائحهم، ولا نكاح نسائهم، بل ولا يقرّون بالجزية، فإنهم مرتدون عن دين الإسلام، ليسوا مسلمين، ولا يهود، ولا نصارى، لا يقرون بوجوب الصلوات الخمس، ولا وجوب صوم رمضان، ولا وجوب الحج، ولا تحريم ما حرم الله ورسوله من الميتة والخمر وغيرها. وإن أظهروا الشهادتين مع هذه العقائد فهم كفار باتفاق المسلمين.

فأما ((النصيرية)) فهم أتباع أبي شعيب محمّد بن نصير، وكان من الغلاة الذين يقولون: إن عَلياً إله، وهم ينشدون:

أشهد أن لا إله إلا حيدة الأنزع البطين
ولا حجاب عليه إلا محمّد الصادق الأمين
ولا طريق إليه إلا سلمان ذو القوة المتين

وأما ((الدرزية)) فاتباع هشتكين الدرزي، وكان من موالي الحاكم أرسله إلى أهل وادي تيم الله بن ثعلبة، فدعاهم إلى الإهية الحاكم ويسمونه ((الباري، العلاّم)) ويحلفون به، وهم من الإسماعيلية القائلين بأن محمّد بن إسماعيل نسخ شريعة محمّد بن عبد الله، وهم أعظم كفراً من الغالية، يقولون بقدم العالم، وإنكار المعاد، وإنكار واجبات الإسلام ومحرماته، وهم من القرامطة الباطنية الذين هم أكفر من إليهود

(١) ابن تيمية: الفتاوى ٣٥/١٦١- ١٦٢.

والنصارى ومشركي العرب، وغايتهم أن يكونوا ((فلاسفة)) على مذهب أرسطو وأمثاله، أو ((مجوساً)). وقولهم مركب من قول الفلاسفة والمجوس، ويظهرون التشيع نفاقاً. والله أعلم.

نص شيخ الإسلام ابن تيمية لنبذ طوائف من ((الدروز))[1]

قال شيخ الإسلام رحمه الله رداً على نبذ لطوائف من ((الدروز)): كفر هؤلاء مما لا يختلف فيه المسلمون، بل من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم لاهم بمنزلة أهل الكتاب ولا المشركين، بل هم الكفرة الضّالون، فلا يباح أكل طعامهم، وتسبى نساؤهم، وتؤخذ أموالهم. فإنهم زنادقة مرتدون لا تقبل توبتهم، بل يقتلون أينما ثقفوا، ويلعنون كما وصفوا، ولا يجوز استخدامهم للحراسة والبوابة والحفاظ. ويجب قتل علمائهم وصلحائهم لئلا يضلوا غيرهم، ويحرم النوم معهم في بيوتهم، ورفقتهم، والمشي معهم وتشييع جنائزهم إذا علم موتها، ويحرم على ولاة أمور المسلمين إضاعة ما أمر الله من إقامة الحدود عليهم بأي شيء يراه المقيم لا المقام عليه. والله المستعان وعليه التكلان.

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى ١٦٢/٣٥.

الملحق الثاني

تراجم بعض المشاهير من القادة المسلمين الذين واجهوا الباطنية

منذ اللحظة الأولى التي ظهرت فيها الباطنية، وأصبح خطرها يهدد أركان المجتمع الإسلامي هب القادة والزعماء المسلمون لمواجهة هذا الخطر وإزالته من المجتمع الإسلامي، فقام بمواجهة الباطنية العديد من القادة المسلمين الذين اشتهروا بغيرتهم الدينية وحبهم للجهاد في سبيل الله ضد أعداء الأمة الإسلامية من صليبيين وغيرهم، وكان على رأس هؤلاء القادة الوزير السلجوقي نظام الملك، وعماد الدين زنكي والملك العادل نور الدين محمود، والسلطان صلاح الدين الأيوبي، والسلطان المملوكي الظاهر بيبرس، والسلطان السلجوقي محمّد بن ملكشاه، والقائد أسد الدين شيركوه، وغيرهم الكثير.

ومن الملاحظ أن شخصيات نظام الملك وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس حظيت بالعناية الفائقة من قبل الباحثين والمؤلفين، فهناك العشرات من الكتب المتداولة التي بحثت الجوانب المختلفة في شخصية كل قائد من هؤلاء القادة، ولاحظت من خلال مطالعاتي أن شخصية السلطان محمّد السلجوقي، وأسد الدين شيركوه لم تلق العناية الكافية من قبل الباحثين، لذلك اقتصرت هنا في هذا الملحق على الترجمة لهاتين الشخصيتين، وأترك للقارىء إذا أراد الاستزادة عن الشخصيات السابقة

الرجوع إلى مصادرها ومراجعها المتوفرة والمتداولة بين الأيدي بسهولة ويسر.

١- ترجمة السلطان محمّد بن ملكشاه السلجوقي

هو السلطان محمّد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقماق أبو شجاع غياث الدين السلجوقي. ولد سنة ٤٧٤هـ وتولى السلطنة في الدولة السلجوقية سنة ٤٩٨هـ بعد وفاة أخيه السلطان بركيارق وخطب له ببغداد قبل ذلك أكثر من مرة كان أولها في عام ٤٩٢هـ، ولقي من المشاق والأخطار مالاحد له[١].

وذكر العماد الأصفهاني طرفاً من سيرته وما كان له مع الباطنية من وقائع فقال: «ظهرت له آثار حميدة وآراء سديدة، وكانت علامته (الحمد لله على نعمه). وكانت له في الباطنية نكايات، ورفعت له في فتح قلعة شاهدرز (قلعة أصبهان) رايات. وكانت قلعة منيعة على جبل أصفهان تناصي السماك وتناظر الأفلاك، وقد تحصن بها أحمد بن عبد الملك بن عطاش طاغية الباطنية في طائفته، وبليت أصفهان وضياعها ببليته، فسما لها سعد الملك (وزير السلطان محمد) بالرأي الصائب، والعزم الثاقب وتلطف في افتتاحها، ودبر في استنزال من فيها على إيثار الملة الإسلامية واقتراحها، فأنزلوه من معقل إلى عقال. وبدلوه آجالاً من آمال، وألصقوا خد تلك القلعة بالتراب»[٢].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٥٢٥، ٥٢٦، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/٧٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٢١٤.

(٢) العماد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨٨.

قال ابن الأثير عنه: «كان عادلاً، حسن السيرة شجاعاً، ومن عدله: أنه أطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد، ولم يعرف منه فعل قبيح، ومن محاسن أعماله ما فعله مع الباطنية»[1].

أما ابن خلكان فقال عنه: «كان السلطان محمّد رجل الملوك السلجوقية وفحلهم، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة، والمعدلة الشاملة، والبر للفقراء والأيتام، والحرب للطائفة الملحدة والنظر في أمور الرعية»[2].

توفي السلطان محمّد يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة بمدينة أصبهان، وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وهو مدفون بأصبهان في مدرسة عظيمة، وهي موقوفة على الطائفة الحنفية[3].

٢- ترجمة أسد الدين شيركوه

أسد الدين شيركوه كان من أكبر قواد الملك العادل نور الدين محمود واسمه الكامل الملك المنصور أبو الحارث أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان وهو عم السلطان صلاح الدين الأيوبي، وهو من بلد دوين[4]، وأصله من الأكراد الروادية وهذا النسل هم أشرف الأكراد، وتولى أسد الدين

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٥٢٦، ٥٢٧.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/٧٢.

(٣) نفس المصدر السابق ٥/٧٣.

(٤) دوين: بلد من نواحي أران في آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس منها ملوك الشام بنو أيوب. انظر ياقوت: معجم البلدان ٢/٤٩١.

شيركوه دمشق مدة، وقام بحرب الفرنج وفتح حصونهم أكثر من مرة، وكان شجاعاً مقداماً صارماً مهيباً، وحج بالناس سنة ٥٥٥هـ، ثم قصد ديار مصر ثلاث دفعات، فتحها في الثالثة فكان مفتاحاً للخير بها، ويسّر الله دعوة الحق والقبول والسنة بها على يدي الملك الناصر صلاح الدين[١].

كان شاور وزير مصر قد وصل إلى الشام يستنجد بنور الدين محمود في سنة ٥٥٩هـ، فسير معه جماعة من عسكره، وجعل مقدمهم أسد الدين شيركوه وقدموا مصر، وغدر بهم شاور ولم يف بما وعدهم به، فعادوا إلى دمشق ثم إنه عاد إلى مصر، وكان توجهه إليها في سنة ٥٦٢هـ لأنه طمع في ملكها في الدفعة الأولى، وسلك طريق وادي الغزلان، وخرج عند اطفيح، وكانت في تلك الدفعة وقعة البابين عند الأشمونين، وتوجه السلطان صلاح الدين إلى الإسكندرية واحتمى بها، وحاصره شاور وعسكر مصر. ثم رجع أسد الدين من الصعيد إلى بلبيس، وجرى الصلح بينه وبين المصريين، وسيروا له صلاح الدين، وعاد إلى الشام، ولما وصل الفرنج إلى بلبيس وملكوها وقتلوا أهلها، سيروا إلى أسد الدين وطلبوا ومنوه ودخلوا في مرضاته لأن ينجدهم، فمضى إليهم وطرد الفرنج عنهم، وعزم شاور على قتله وقتل الأمراء الكبار الذين معه، فبادروا وقتلوه وكان ذلك في عام ٥٦٤هـ[٢].

بعد مقتل شاور نصب الخليفة العاضد أسد الدين شيركوه في الوزارة مكانه فتولاها يوم الأربعاء سابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ وأقام بها شهرين وخمسة أيام، وما لبث أن توفي فجأة بالقاهرة يوم السبت الثاني

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١١/٣٤١، ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق ٦/٣٦٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/٤٧٩، ٤٨٠، ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق ٦/٣٦٠.

والعشرين من نفس السنة ودفن بها، ثم نقل إلى مدينة الرسول ﷺ بعد مدة بوصية منه[1].

قال عنه المؤرخ ابن تغري بردي: «كان أسد الدين أميراً عاقلاً شجاعاً مدبراً عارفاً فطناً وقوراً، كان هو وأخوه أيوب من أكابر أمراء نور الدين محمود الشهيد»[2].

قال ابن شداد في «سيرة صلاح الدين»: «إن أسد الدين كان كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، وتتواتر عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد معاناة شديدة عظيمة، فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله في تاريخ السنة المذكورة»[3].

(١) انظر نفس المصادر السابقة، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٣٨٨.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٣٨٩.

(٣) ابن شداد: سيرة السلطان صلاح الدين ص ٤٠.

الملحق الثالث

تراجم أشهر زعماء الباطنية في تلك الفترة

١- ترجمة الحسن بن الصباح

ولد الحسن بن عليّ بن محمّد بن جعفر بن الحسين بن الصباح الحميري في حدود عام ٤٣٠هـ في الري، وكان والده الصباح فقيهاً متواضعاً يعتنق مذهب الشيعة الإثنى عشرية قدم من اليمن إلى الكوفة ومن الكوفة إلى قم ومن قم إلى الري، فاستوطنها وهناك ولد له ابنه الحسن[١]، نشأ الحسن بن الصباح في الري وأخذ في تلقي العلوم كعادة أهل عصره ولما كبر بعث به والده إلى نيسابور حيث التحق بجامعتها العظيمة التي ذاع صيتها وهناك تلقى علوم الفقه والحديث على يد أكبر علماء هذه الجامعة المحدث الشهير موفق الدين النيسابوري، ونتيجة لذكائه برع أيضاً في عدة علوم منها العلوم الفلسفية والمنطق وعلم الكلام والرياضيات والنجوم والسحر، وكان من زملائه في الدراسة في تلك الجامعة اثنان تألق نجمهما فيما بعد، وأصبحا من أعلام العصر، وهما الشاعر الشهير عمر الخيام، والوزير الكبير نظام الملك[٢].

كان الحسن بن الصباح كوالده على مذهب الشيعة الإثنى عشرية، ولكنه لم يلبث أن تأثر بداعية فاطمي اسمه (أمير ضراب) فتلقى عليه مبادىء

---

(١) الجويني: تاريخ جهنكشاي ص ١٨٤، محمّد عبد الله عنان: تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ص ٣٩، عمر أبو النصر: قلعة آلموت ص ٨٩، دائرة المعارف الاسلامية ٣٩٦/٧.

(٢) عمر أبو النصر: قلعة آلموت ص ٩٠، ٩١، ابن الأثير: الكامل ٣١٦/١٠، مصطفى غالب: الثائر الحميري ص٣٣.

الإسماعيلية ولكنه لم يؤمن بها، ثم مرض مرضاً شديداً، ولما شفي من مرضه اتصل بداعيين آخرين هما: الداعي (أبي النجم السراج) والداعي (المؤمن) الذي كان موكلاً بالدعوة من قبل الداعي أحمد بن عبد الملك بن عطاش كبير الدعاة وزعيم الإسماعيلية في بلاد فارس، فتلقى تعاليم الإسماعيلية عليهما، وتمكن الداعي (المؤمن) من أخذ العهد والبيعة على الحسن بن الصباح للخليفة الفاطمي الإمام المستنصر، ولما جاء ابن عطاش إلى الري عام ٤٦٤هـ التقى بالحسن بن الصباح هناك فأعجب به وبمقدرته الفائقة وتحمسه للمذهب، فاختاره وكيلاً له وكبيراً لدعاته في تلك البلاد، وأمره بالسفر إلى مصر لإنهاء دراسته المذهبية في دار الحكمة، وليأخذ المعارف الإلهية السرمدية عن داعي الدعاة هناك وليحضر مجالس الحكمة الباطنية السرية، ويدرس أساليب الدعوة على أساتذة دار الحكمة المصرية التي غدت أعظم مركز علمي لتلقين الدعوات السرية، في تلك الأيام[1].

ويحدثنا المؤرخ عطا ملك الجويني في كتابه جهنكشاي عن سيرة الحسن بن الصباح التي كتبها عن نفسه والتي عثر عليها في كتاب «سركذشت سيدنا» أي (سيرة سيدنا) والذي وجده في مكتبة قلعة آلموت عند استيلاء المغول عليها فقال: (كنت أتبع مذهب آبائي، وهو مذهب الشيعة الإثنى عشرية، وكان في الري رجل يسمى أميره ضراب على مذهب باطنية مصر، وكنا نتناظر معاً بصفة دائمة، فيكسر مذهبنا، ولكني لم أكن أسلم بينما استقرت آراؤه في قلبي. وفي تلك الأثناء أصبت بمرض خطير شديد فقلت في نفسي: إن

(١) عمر أبو النصر: قلعة آلموت ص ٥٤، مصطفى غالب: الثائر الحميري ص ٤٥-٤٦، محمّد عبد الله عنان: تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ص ٤٠.

ذلك المذهب هو الحق ولكني لم أقبله من جراء تعصبي الشديد فلو وصل الأجل الموعود، والعياذ بالله، لهلكت دون أن أصل إلى الحق، فشفيت مما ألم بي من مرض، وكان هناك رجل آخر من جملة الباطنية يسمى أبو نجم سراج. فذهبت أتعرف عنده على هذا المذهب، فشرحه لي وفصله حتى وقفت على غوامضه، وكان هناك رجل آخر يسمى «مؤمن» منحه عبد الملك بن عطاش الإجازة بالقيام بأمر الدعوة، فأردت أن آخذ على يديه عهد البيعة فقال: «إن مرتبتك أعلى من مرتبتي فأنت حسن، أما أنا فمؤمن، فكيف آخذ عليك عهداً؟ يعني كيف آخذ منك البيعة للامام؟» إلا أنه أخذ العهد مني بعد إلحاح.

ولما وصل عبد الملك بن عطاش داعي العراق في ذلك الوقت إلى الري سنة ٤٦٤هـ أعجب بي، فأمر بأن أتولى نيابة الدعوة وأشار بوجوب توجهي إلى خليفة مصر، وكان في ذلك الوقت هو المستنصر.

وفي سنة ٤٦٩هـ توجهت عازماً على السفر إلى مصر، فوصلت إليها في سنة ٤٧١هـ فأقمت بها ما يقرب من سنة ونصف ولم أصل طوال مدة إقامتي إلى المستنصر، ولكن المستنصر كان واقفاً على أمري وامتدحني غير مرة. وكان أمير الجيوش أمير جنده. وهو المتسلط والحاكم المطلق، وهو في نفس الوقت صهر المستعلي الإبن الأصغر الذي كان المستنصر قد نص نصاً ثانياً بأن يكون ولياً للعهد. وكنت أنا طبقاً لقاعدة أصول مذهبي أقوم بالدعوة لنزار، لهذا ساءت علاقة أمير الجيوش بي، فعقد خاصره استعداداً للنيل مني، وكانت نتيجة ذلك أنهم أجبروني على التوجه إلى المغرب فوق ظهر إحدى السفن مع جماعة من الفرنج. وكان البحر هائجاً فألقى بالسفينة إلى الشام)[1].

(١) الجويني: تاريخ جهنكشاي ص ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧.

نزل الحسن بن الصباح في الشام ثم توجه إلى حلب والتقى فيها ببعض الإسماعيليين وأقام بها حيناً ثم رحل إلى بغداد فخوزستان فأصفهان ثم إلى يزد[1] وكرمان وهو يبث دعوته أينما حل، ويلتقي بالأتباع ودعاة الإسماعيلية.

ظل الحسن بن الصباح يتنقل بين الأقاليم ويرسل الدعاة إلى الأطراف وينشر دعوته ويبث تعاليمه وهو متخف ولا يعرف بنفسه لأحد الا لبعض الأتباع الخاصين، وفي نفس الوقت ركز جهوده للحصول على مكان استراتيجي يكون مأوى له ولأتباعه من الباطنية ولينطلق منه لتحقيق أهدافه ونشر تعاليمه، فوقع نظره على قلعة آلموت الحصينة وكان أتباعه قد سبقوه إليها فمهدوا له الطريق واتصل الحسن بصاحب القلعة وكان علوياً يدعى أبو مسلم، وتوثقت بينهما أواصر الصداقة ولبث الحسن يتحين الفرص وفي ذات مساء وثب بصاحب القلعة في جمع من أنصاره فأخرجه منها واستولى عليها وذلك في عام ٤٨٣هـ[2].

كان صعود الحسن بن الصباح إلى قلعة آلموت واستقراره فيها بداية مرحلة جديدة في حياته وحياة طائفته، فأخذ في تنظيم دعوته تنظيماً سرياً دقيقاً، واهتم بشكل خاص في إعداد فرقة الفداوية التي غدت الأداة الفعالة في تنفيذ سياسة الحسن بن الصباح حيث اغتالت كل المناوئين له، وأصبحت فيما بعد العمود الفقري للدولة الإسماعيلية التي أقامها ابن صباح في بلاد فارس والتي لبث أعواماً طويلة يرعاها ويوطد أركانها ويصيغ مبادئها المدهشة، حتى

---

(١) يزد: مدينة متوسطة بين نيسابور وشيراز وأصبهان معدودة في أعمال فارس. انظر ياقوت: معجم البلدان ٥/٤٣٥.

(٢) الجويني: تاريخ جهنكشاي ص ١٨٩، ١٩٠، ابن الأثير: الكامل ١٠/٣١٧، عمر أبو النصر: قلعة آلموت ص ١٢٢.

صارت أشبه بجمعية سرية هائلة[1].

كانت حياة الحسن بن الصباح في قلعة آلموت حياة زهد وتقشف وعبادة يلبس الصوف، ويعيش عيشة الفقراء المتعبدين الزاهدين في الدّنْيا وكان رجاله مثله وعلى غراره، وقد فرض عليهم نظاماً صارماً، فلا يسمح لأحد منهم بأن يشرب الخمر، ومن فعل ذلك فجزاؤه الموت[2].

ومنذ ذلك اليوم الذي صعد فيه الحسن بن الصباح إلى قلعة آلموت إلى أن توفي بعد خمسة وثلاثين عاماً، لم ينزل من القلعة مرة واحدة، ولم يخرج من القصر الذي كان يقيم فيه سوى مرتين وصعد إلى سطح القصر مرتين، إذ أنه اعتكف باقي أوقاته داخل القصر، يطالع الكتب، ويؤلف المؤلفات التي تخدم دعوته، واشتغل بتدبير أمور مملكته إلى أن أتاه الأجل حيث توفي ليلة الأربعاء السادس من ربيع الثاني سنة ٥١٨هـ[3].

كان الحسن بن الصباح مغامراً من أفذاذ الرجال، يفيض ذكاء وجرأة وإقداماً وكان سياسياً من أعظم سياسي عصره، وقد شق إلى الرياسة والملك طريقاً وعراً محفوفاً بالمخاطر فذلل وعره وصعابه بدهاء وبعد نظر ثاقب ومعرفة بالناس والحوادث، ويعتبره فون هامار من كبار العباقرة[4]. أما ابن الأثير فقد قال عنه: «كان الحسن بن الصباح رجلاً شهماً، كافياً، عالماً بالهندسة والحساب، والنجوم، والسحر، وغير ذلك»[5].

---

(١) محمّد عبد الله عنان: تراجم اسلامية شرقية واندلسية ص ٤٣.

(٢) عمر أبو النصر: قلعة آلموت ص ١٢٧.

(٣) الجويني: تاريخ جهنكشاي ص ٢٠٦.

(٤) عمر أبو النصر: قلعة آلموت ص ١٥٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٣١٦/١٠.

٢- ترجمة سنان راشد الدين

هو مقدم الإسماعيلية في الشام، وأصله من أهالي عقر السودان، قرية قرب البصرة، واسمه الكامل أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمّد ولد بالقرب من البصرة في سنة ٥٢٨هـ، رحل إلى آلموت فنشأ وتثقف في مدارسها فأظهر نجابة ونبوغاً عجيباً، ولما أكمل دراسته أرسله الإمام الإسماعيلي في آلموت سنة ٥٥٥هـ فاستقر بالبصرة حتى سنة ٥٥٨هـ حيث اختاره الإمام الإسماعيلي في آلموت (الحسن الثاني الألموتي) إماماً لإسماعيلية الشام (النزارية) بعد أن رأى منه نجابة وشهامة وعقلاً وتدبيراً[١].

وصل سنان راشد الدين إلى الشام في أيام الملك العادل نور الدين محمود، وتولى زعامة الباطنية في الشام بعد وفاة كبير دعاتهم هناك (أبو محمّد المينقي) فنقل مقر قيادة الإسماعيلية من حصن الكهف إلى مدينة مصياف حيث استقر فيها وبدأ في تطبيق الأنظمة التي تعلمها في آلموت فوجه جل اهتمامه لتربية جيل جديد من المحاربين المدربين على الأعمال الفدائية والأمور العسكرية، ولإيجاد المدارس التعليمية لتخريج الدعاة وعكف على بناء حياة الإسماعيلية على أسس منظمة من العمل المستمر في جميع الميادين حتى أن الإسماعيلية الباطنية في الشام بلغت في عهده ذروة مجدها في شتى المجالات[٢].

وفي الوقت الذي ظهر فيه سنان راشد الدين وأخذ يهتم بشئون باطنيته كانت حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في أوجها بقيادة الملك العادل

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١٧/٦، دائرة المعارف الاسلامية ٤٦٩/٩، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٢) مصطفى غالب: سنان راشد الدين ص ١١٤، ١١٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١٧/٦.

نور الدين محمود، فكان كل ما يقوم به سنان راشد الدين من أعمال حجر عثرة أمام جهود نور الدين محمود في ذلك المجال، فعزم على محاربته والتخلص منه ومن جماعته فجرت بينهما عدة وقعات وحروب لم يتمكن نور الدين محمود من خلالها القضاء على سنان وجماعته قضاء نهائياً، فقرر قصده بنفسه ومحاربته لكن المنية عاجلته وتوفي[1].

بعد وفاة نور الدين محمود أخذ القائد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي على عاتقه توحيد الجبهة الإسلامية ومواصلة الجهاد ضد الصليبيين، وأثناء قيامه بتلك المهمة اصطدم بسنان راشد الدين وجماعته الباطنية حيث قاموا بعدة محاولات لاغتياله، وتعطيل جهوده لتوحيد الجبهة الإسلامية، فعزم صلاح الدين على التخلص من خطر سنان راشد الدين وجماعته فشن عليهم صلاح الدين حرباً شعواء كان آخرها محاصرته لعاصمتهم مصياف ودكها بالمنجنيقات وتكبيدها خسائر فادحة، إلى أن انتهى الأمر بدخول الباطنية في الشام في طاعة السلطان صلاح الدين الأيوبي بمقتضى شروط المعاهدة التي تمت بين صلاح الدين والقائد الصليبي ريتشارد قلب الأسد، حيث اشترط صلاح الدين أن تكون مناطق نفوذ تلك الطائفة داخلة في طاعته وفي مناطق نفوذه[2].

ظل سنان راشد الدين في زعامة الباطنية النزارية في بلاد الشام إلى أن وافته المنية في سنة ٥٨٨هـ، حيث مكث على زعامة الباطنية قرابة الثلاثين عاماً صرفها لخدمة تلك الطائفة بكل ما أوتي من علم ومكر ودهاء[3].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/١١٧.

(٢) انظر ما سبق ص ٦٨، ٦٩.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/١١٧، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية ص ٣٠٣.

قال عنه الرحالة المسلم ابن جبير الذي زار بلاد الشام واطلع على جانب من حياة تلك الطائفة الباطنية، وحياة وتصرفات زعيمها راشد الدين سنان فقال وهو يصف جبل لبنان: «وفي صفحته حصون للملاحدة الإسماعيلية فرقة مرقت من الإسلام وادعت الالهية في أحد الأنام، قيض لهم الشيطان من الإنس يعرف بسنان[1] خدعهم بأباطيل وخيالات موه عليهم باستعمالها، وسحرهم بمحالها، فاتخذوه إلهاً يعبدونه، ويبذلون الأنفس دونه، وحصلوا من طاعته وامتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردى ويستعجل في مرضاته الردى»[2].

وقال عنه اليافعي في مرآة الجنان: «وفيها (أي سنة ٥٨٨هـ) توفي سنان بن سليمان أبو الحسن البصري الإسماعيلي الباطني صاحب الدعوة، وصاحب حصون الإسماعيلية، كان أديباً متفنناً متكلماً عالماً عارفاً بالفلسفة أخبارياً شاعراً»[3].

٣- ترجمة أحمد بن عبد الملك بن عطاش*

أحمد بن عبد الملك بن عطاش ولد في نيسابور حوالي عام ٤٣٧هـ، وكان والده عبد الملك حكيماً متعمقاً في علوم الفلسفة والفقه، فنشأ ابنه مقتدياً به، فأصبح في مدة وجيزة من الدعاة المشهورين، أوفده والده إلى القاهرة سنة

(١) هو سنان راشد الدين صاحب الترجمة.

(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص ٢٢٩.

(٣) اليافعي: مرآة الجنان ٤٣٨/٣.

* الترجمة مأخوذة من كتاب أعلام الإسماعيلية لمصطفى غالب.

٤٦٠هـ لينهي دراسته المذهبية في مقر الدعوة هناك[١] ومن ثم عاد إلى الري سنة ٤٦٤هـ حيث أصبح داعي دعاة العراقين (العراق العربي والعجمي). بذل أحمد بن عبد الملك بن عطاش جهوداً جبارة في سبيل تأليف جيش إسماعيلي حيث تمكن بواسطته من الاستيلاء على عدد من الحصون المنيعة بالقرب من أصفهان كقلعة خالنجان وشيركوه وغيرهما من الحصون المنيعة التي اصبحت فيما بعد أكبر العون له في تحقيق أمانيه.

بقي أحمد بن عبد الملك بن عطاش على زعامة الإسماعيلية إلى سنة ٥٠٠هـ حيث قتل على يد أتباع السلطان السلجوقي محمّد حين أسر بعد استيلائهم على قلعة أصبهان، مقر إقامة أحمد بن عبد الملك بن عطاش، حيث أن السلطان محمّد لما شعر بخطر الباطنية وانتشار دعوتهم وأن خطرهم يهدد دولته ويحيط ببلاده من جميع الجهات أمر بتعبئة الجيوش لقتالهم وخرج بنفسه سنة ٤٩٤هـ فتمكن من اجتياح بعض معاقلهم وقتل منهم عدداً كبيراً وعاد السلطان مرة ثانية لقتالهم، فتمكنت جيوشه في عام ٥٠٠هـ من ضرب الطوق وحصار قلعة أصبهان (شاه دز) مقر القيادة الإسماعيلية ومركز ابن عطاش إلى أن انتهى الأمر بسقوط تلك القلعة وقتل أكثر الباطنية الذين بها، ووقوع ابن عطاش في الأسر حيث أمر السلطان محمّد بأن يشهر في البلد، ثم يسلخ جلده حياً حتى الموت، فسلخ جلده ثم مات[٢].

---

(١) كان المقصود من إرسال الدعاة الإسماعيلية إلى مقر الدعوة في القاهرة هو تلقي العلم وحضور المجالس التأويلية أولاً، ولزيارة الإمام المفروضة على كل من بلغ أعلى المراتب. وهذه الزيارة مفروضة كالحج لأن الإسماعيلية يعتبرون زيارة الإمام الحج الباطن، وزيارة بيت الله الحرام الحج الظاهر.
انظر مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية ص ١١٤ حاشية رقم (٢).

(٢) انظر تفاصيل ذلك في ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٣٠- ٤٣٤.

الملحق الرابع
جدول بأسماء القادة والعلماء الذين اغتيلوا بيد الباطنية

اسم المغتال	سنة الاغتيال	كيفية وقوع حادث الاغتيال
١- الخليفة المسترشد بالله العباسي	٥٢٩هـ	هجم عليه بضعة عشر من الباطنية وطعنوه بالخناجر، ثم مثلوا به
٢- الخليفة الراشد العباسي	٥٣٢هـ	اغتيل غدراً في أصبهان
٣- الوزير نظام الملك السلجوقي	٤٨٥هـ	تقدم إليه باطني في صورة مستغيث ولما اقترب منه طعنه بسكين وقتله
٤- الوزير نظام الملك (أبو نصر)	٥٠٣هـ	وثب عليه جماعة من الباطنية وهو يؤدي الصلاة في الجامع وجرحوه عدة جراحات
٥- الوزير أبو المحاسن عبد الجليل الدهستاني	٤٩٥هـ	عدا عليه شاب باطني وجرحه عدة جراحات مات بعدها.

٦- الوزير الكمال أبو طالب السميرمي	٥١٦هـ	وثب عليه الباطنية وهو سائر في طريق ضيق وقتلوه.
٧- الوزير معين الملك (أبو نصر)	٥٢١هـ	وثب عليه باطني وهو غافل مطمئن فقتله، وكان هذا الباطني يعمل سائساً لخيل معين الملك ليصل إلى هدفه.
٨- الوزير عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء	٥٧٣هـ	تقدم إليه جماعة من الباطنية في صورة فقراء ومعهم رقاع وهو في طريقه إلى الحج فتقدم إليه أحدهم وضربه بسكين وتبعه ثان وثالث حتى قتلوه.
٩- الوزير نظام الملك مسعود بن علي	٥٩٦هـ	قتله الباطنية غدراً
١٠- الوزير فخر الملك أبو المظفر عليّ بن نظام الملك	٥٠٠هـ	تقدم إليه شاب من الباطنية وهو يتظلم وفي يده رقعة، وبينما كان يقرؤها الوزير وثب عليه ذلك الشاب بخنجر كان معه وقتله.
١١- الأمير بلكابك سرمز	٤٩٣هـ	طعنه الباطنية بسكاكينهم غدراً فقتلوه.
١٢- الأمير مودود	٥٠٧هـ	وثب عليه الباطنية بعد فراغه من أداء صلاة الجمعة في جامع دمشق وقتلوه.

١٣- الأمير أحمديل بن إبراهيم الروادي	٥١٠هـ	تقدم إليه رجل من الباطنية وهو يتظلم ويبكي ومد إليه رقعة سأله أن يوصلها له إلى السلطان، فلما أخذها منه وثب عليه ذلك الرجل على الفور بسكينة وقتله.
١٤- الأمير قسيم الدولة آقسنقر البرسقي	٥٢٠هـ	هجم عليه بضعة عشر نفراً من الباطنية في الجامع وهو يؤدي صلاة الجمعة فقتلوه.
١٥- الأمير تاج الملوك بوري بن طغتكين	٥٢٥هـ	هجم عليه اثنان من الباطنية وحاولا قتله، لكنه برأ من جراحه فيما بعد ولكنه توفي في السنة التي بعدها متأثراً بأحد تلك الجراح.
١٦- الأمير آقسنقر الأحمديلي	٥٢٧هـ	قتله الباطنية غدراً
١٧- الأمير أغلمش	٦١٤هـ	قتله الباطنية غدراً
١٨- الأمير شهاب الدين الغوري	٦٠٢هـ	قتله الباطنية غدراً وخوفاً منه ومن بطشه.
١٩- أمير من أمراء جلال الدين بن خوارزم شاه	٦٢٤هـ	قتله الباطنية غدراً
٢٠- الأمير جناح الدولة حسين	٤٩٥هـ	وثب عليه ثلاثة من الباطنية في الجامع بعد فراغه من أداء صلاة الجمعة وقتلوه.

٢١- الأمير خلف بن ملاعب	٤٩٩هـ	قتله الباطنية غدراً.
٢٢- الأمير شمس الملوك إسماعيل بن بوري	٥٢٩هـ	قتله الباطنية غدراً.
٢٣- الأمير برسق الكبير	٤٩٠هـ	قتله الباطنية غدراً.
٢٤- الأمير سيف الدين أخو علاء الدين الغوري	٥٤٧هـ	قتله الباطنية غدراً.
٢٥- السلطان داود بن السلطان محمود	٥٣٨هـ	قتله الباطنية غدراً.
٢٦- السلطان بكتمر	٥٨٩هـ	تقدم إليه أربعة من الباطنية في زي الصوفية، وقدم إليه أحدهم قصة فأخذها، وضربه بسكين على الفور وقتله.
٢٧- السلطان صلاح الدين الأيوبي	٥٧٠هـ	حاولوا قتله داخل معسكر جيشه لكنهم فشلوا.
٢٨- السلطان صلاح الدين الأيوبي	٥٧١هـ	حاولوا قتله وهو محاصر لحلب لكنهم فشلوا.
٢٩- النائب نصر خان بن أرسلان خان محمد	٥٢٤هـ	قتله الباطنية غدراً.
٣٠- المقرب جوهر	٥٤٧هـ	تعرض إليه جماعة من الباطنية في زي نساء واستغثن به، فوقف يسمع كلامهم، فوثبوا عليه وقتلوه.
٣١- أبو صالح بن العجمي	٥٧٣هـ	وثب عليه جماعة من

		الباطنية في الجامع وقتلوه.
٣٢- أخو الأمير قتادة أمير مكة	٦٠٨هـ	وثبوا عليه بمنى أيام الحج وقتلوه.
٣٣- أبو القاسم ابن امام الحرمين	٤٩٢هـ	قتله الباطنية غدراً.
٣٤- الفقيه أحمد بن الحسين البلخي	٤٩٤هـ	قتله الباطنية غدراً.
٣٥- الفقيه عبد اللطيف ابن الخجندي	٥٢٣هـ	قتله الباطنية غدراً.
٣٦- الفقيه أبو المحاسن الروياني	٥٠٢هـ	قتله الباطنية غدراً.
٣٧- القاضي أبو العلاء صاعد النيسابوري	٤٩٩هـ	قتله الباطنية بجامع أصبهان.
٣٨- القاضي عبيد الله بن عليّ الخطيبي	٥٠٢هـ	قتله الباطنية بالجامع وهو يؤدي صلاة الجمعة.
٣٩- القاضي صاعد بن عبد الرحمن أبو العلاء	٥٠٢هـ	قتله الباطنية يوم عيد الفطر بنيسابور.
٤٠- القاضي أبو سعد محمّد بن نصر الهروي	٥١٨هـ	هجم عليه قوم من الباطنية في جامع همذان وقتلوه.
٤١- الواعظ أبو جعفر ابن المشاط	٤٩٨هـ	كان يدرس للناس في الجامع ولما نزل من على كرسيه وثب عليه باطني وقتله.
٤٢- الواعظ أبو المظفر الخجندي	٤٩٦هـ	كان يدرس للناس في الجامع ولما نزل من على كرسيه وثب عليه باطني وقتله.

المصادر والمراجع

قائمة

المصادر والمراجع

أولا : المصادر.

*** ابن الأثير (عـز الديـن علـيّ بـن أبـي الكـرم محمّـد بـن محمّـد الشيباني ت٦٣٠هـ)**

(١) الكامل في التاريخ

ط دار صادر، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(٢) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية

تحقيق عبد القادر احمد طليمات- دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٣م.

*** ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت ٩٣٠هـ)**

بدائع الزهور في وقائع الدهور

تحقيق محمّد مصطفى - الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة

ط الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

*** البخاري (أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦هـ)**

صحيح البخاري بحاشية السندي

٤ أجزاء- دار المعرفة- بيروت.

*** ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمّد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ت ٧٧٩هـ)**

مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

جزآن. تهذيب وضبط أحمد العوامري بك، ومحمد أحمد جاد المولى بك القاهرة ط ١٩٣٤م.

*** البغدادي (عبد القاهر بن طاهر بن محمّد البغدادي الأسفرائيني التميمي ت٤٢٩هـ)**

الفرق بين الفرق

تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، نشر دار المعرفة- بيروت.

*** البغدادي (عبد المؤمن بن عبد الحق صفي الدين ت ٧٣٩هـ)**

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع وهو مختصر معجم البلدان لياقوت، ٣ أجزاء.

تحقيق وتعليق علي محمّد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية ط الأولى ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

*** البنداري (الفتح بن عليّ بن محمّد البنداري الأصفهاني- توفي في النصف الأول من القرن ٧هـ)**

تاريخ دولة آل سلجوق

وهو مختصر لتاريخ السلاجقة الذي ألفه عماد الدين الأصفهاني بعنوان «نصرة الفترة وعصرة الفطرة»

دار الآفاق الجديدة- بيروت- ط الثانية ١٩٧٨م.

*** ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ت ٨٧٤هـ)**

النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب- نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

*** ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية النميري الحراني الدمشقي ت ٧٢٨هـ)**

مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٣٥، ٣٦.

طبعة الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين بالسعودية.

*** ابن جبير (أبي الحسن محمّد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ت٦١٤هـ)**

رحلة ابن جبير

دار صادر- بيروت ط ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

*** ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن محمّد الجوزي القرشي البغدادي ت ٥٩٧هـ)**

(١) تلبيس إبليس

دار الكتب العلمية- بيروت- ط الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم الأجزاء ٨، ٩

حيدر أباد الدكن- الهند- ط الأولى ١٣٥٩هـ.

*** الجويني (علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمّد بن محمّد الجويني ت٦٨١هـ)**

تاريخ جهانكشاي

ترجمة محمّد السعيد جمال الدين- مؤسسة سجل العرب- القاهرة ط١٩٧٥م.

(طبع مع بحث في تطور الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الدولة تأليف محمّد السعيد جمال الدين).

*** ابن حجر (أبو الفضل أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ)**

لسان الميزان ٧ أجزاء

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط الثانية ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.

*** ابن أبي الحديد (أبو حامد بن هبة الله بن محمّد بن أبي الحديد المدائني ت٦٥٦هـ)**

شرح نهج البلاغة ٢٠ جزء

تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم- دار إحياء الكتب العربية القاهرة- ط الأولى ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م.

*** ابن حزم (أبو محمّد على بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري ت٤٥٦هـ)**

الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥ أجزاء

تحقيق محمّد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة- دار عكاظ السعودية ط لأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

*** الحميري (محمد بن عبد المنعم الحميري ت ٧٢٧هـ)**

الروض المعطار في خبر الأقطار

تحقيق إحسان عباس- بيروت ط ١٩٧٥م.

*** ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمّد ت ٨٠٨هـ)**

العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) ٨ أجزاء

ضبط خليل شحادة- مراجعة سهيل زكار- دار الفكر بيروت- ط الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

*** ابن خلكان (أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن خلكان ت ٦٨١هـ)**

وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان

تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

*** ابن دقماق (إبراهيم بن محمّد بن أيدمر العلائي المعروف بابن دقماق ت٨٠٩هـ)**

الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين

تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور- طبع مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

*** ابن أبي الدم الحموي (أبو اسحاق إبراهيم بن عبد الله ت٦٤٢هـ)**

التاريخ المظفري

مخطوط بمكتبة خدابخش بالهند تحت رقم ٣٨٦٩، ويوجد منه صورة على ميكروفلم في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى تحت رقم ١١٣١.

* الذهبي (شمس الدين محمّد بن أحمد بن قيمازت ٧٤٨هـ)

(١) دول الإسلام جزآن

تحقيق فهيم محمّد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥ جزء

تحقيق شعيب الأرناؤوط، إبراهيم الزيبق- مؤسسة الرسالة، بيروت ط الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٣) العبر في خبر من غبر ٤ أجزاء

تحقيق أبو هاجر محمّد السعيد بن بسيوني زغلول- دار الكتب العلمية- بيروت- ط الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

* سبط بن الجوزي (أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي ت ٦٥٤هـ)

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان

الجزء الثاني والثالث مخطوط بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة تحت رقم ٤٦٩/٦٧٦٥ / ٤٦٩/٦٧٦٥ ويوجد منه صورة على ميكروفلم في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى تحت رقم ٤٤١-٤٦٥.

الجزء الثالث عشر والرابع عشر، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث بتركيا تحت رقم ٢٩٠٧/١٣ ويوجد منه صورة على ميكروفلم في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى تحت رقم ٤٥٢-١٩٩٥.

*** السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن عليّ بن عبد الكافي ت ٧٧١هـ)**

طبقات الشافعية الكبرى ٩ أجزاء

تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود محمّد الطناحي- طبع عيسى البابي الحلبي- القاهرة- ط الأولى ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.

*** السخاوي (شمس الدين محمّد بن عبد الرحمن السخاوي ت ٩٠٢هـ)**

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع

منشورات مكتبة الحياة- بيروت.

*** السمعاني (عبد الكريم بن محمّد بن منصور التميمي السمعاني ت٥٦٢هـ)**

الأنساب ٩ أجزاء

تحقيق محمّد عوامه- نشر محمّد أمين دمج- بيروت- ط الأولى ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

*** السموقي (حمزة بن عليّ بن أحمد إسماعيل بن محمّد التميمي بهاء الدين على بن أحمد)**

رسائل الحكمة

ط سنة ١٤٠٠هـ.

*** السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت ٩١١هـ)**

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة.

تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم- دار إحياء الكتب العربية- ط الأولى ١٣٧٨هـ/١٩٦٧م.

*** ابن شاكر (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر الكتبي ت٧٦٤هـ)**

فوات الوفيات والذيل عليه

تحقيق إحسان عباس- دار صادر- بيروت ط ١٩٧٣م.

*** أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي ت ٦٥٥هـ)**

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

دار الجيل- بيروت.

*** ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد ت ٦٣٢هـ)**

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية- أو- سيرة السلطان صلاح الدين.

تحقيق جمال الدين الشيال- الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة - ط الأولى ١٩٦٤م.

*** الشهرستاني (محمد عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشافعي ت ٥٤٨هـ)**

الملل والنحل

تقديم وإعداد عبد اللطيف محمّد العبد- الناشر مكتبة الانجلو المصرية- ط الأولى ١٩٧٧م.

*** الشوكاني (محمد بن عليّ الشوكاني ت ١٢٥٠هـ)**

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع

مطبعة السعادة، القاهرة- ط الأولى ١٣٤٨هـ.

*** ابن ظافر (جمال الدين عليّ بن ظافر الأزدي ت ٦١٣هـ)**

أخبار الدول المنقطعة- القسم الخاص بالفاطميين

نشر المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة- ط ١٩٧٢م.

*** ابن طباطبا (محمد بن عليّ بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا ت ٧٠٩هـ)**

الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية

دار صادر- بيروت- ط ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

*** ابن العبري (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الملطي ت ٦٨٥هـ)**

تاريخ مختصر الدول

المطبعة الكاثوليكية- بيروت- ط الثانية ١٩٥٨م.

*** ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ت ٦٦٠هـ)**

بغية الطلب في تاريخ حلب

جزء التراجم الخاصة بتاريخ السلاجقة- نشر وتعليق على سويم مطبعة الجمعية التاريخية التركية- أنقرة ط ١٩٧٦م.

*** ابن عساكر (أبو القاسم عليّ بن الحسن بن هبة الله الشافعي ت ٥٧١هـ)**

تهذيب تاريخ دمشق

تهذيب وترتيب الشيخ عبد القادر بدران- دار المسيرة- بيروت ط الثانية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

*** ابن عليّ (يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمّد ت ١١٠٠هـ)**

غاية الأماني في أخبار القطر اليماني جزآن

تحقيق وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور- دار الكتاب العربي بالقاهرة- ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

*** ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمّد المعروف بابن العماد الحنبلي ت ١٠٨٩هـ)**

شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨ أجزاء

المكتب التجاري- بيروت.

*** عمارة اليمني (نجم الدين عمارة بن علي اليمني الشاعر المشهور ت ٥٦٩هـ)**

تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها

تحقيق محمّد بن عليّ الأكوع الحوالي - ط الثانية ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م القاهرة.

*** الغزالي (أبو حامد محمّد بن محمّد بن محمّد المشهور بأبي حامد الغزالي ت ٥٠٥هـ)**

فضائح الباطنية

تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي- مؤسسة دار الكتب الثقافية/ الكويت.

*** الفارقي (أحمد بن يوسف بن عليّ بن الأزرق الفارقي ت ٥٧٢هـ)**

تاريخ الفارقي (أو الدولة المروانية)

تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض- دار الكتاب اللبناني- بيروت ط الثانية ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

*** أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبي الفدا ت ٧٣٢هـ)**

المختصر في أخبار البشر

دار المعرفة- بيروت- بدون تاريخ.

*** الفيروز أبادي (مجد الدين محمّد بن يعقوب الفيروز أبادي ت ٨١٧هـ)**

القاموس المحيط ٥ أجزاء

المطبعة المصرية- ط الثالثة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م.

*** القزويني (زكريا بن محمّد بن محمود ت ٦٨٢هـ)**

آثار البلاد وأخبار العباد

دار صادر، بيروت، ط ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

*** ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن أسد بن عليّ بن محمّد التميمي ت ٥٥٥هـ)**

ذيل تاريخ دمشق

تحقيق سهيل زكار، نشر دار حسان، دمشق ط الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

*** القلقشندي (أبو العباس أحمد بن عليّ ت ٨٢١هـ)**

صبح الأعشى في صناعة الانشا ١٤ جزء

نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي-القاهرة- بدون تاريخ.

*** ابن كثير (عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ)**

البداية والنهاية

نشر دار الفكر العربي.

*** ماركوبولو**

رحلات ماركوبولو المسماة بالينابيع

ترجمها إلى الانجليزية ونشرها وليم مارسدن وترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد- الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.

*** مسلم (أبو الحسن مسلم بن الحَجّاج بن مسلم القشيري ت ٢٦١هـ)**

صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ جزء

دار احياء التراث العربي- بيروت- ط الثانية ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

*** المقريزي (تقي الدين أحمد بن عليّ عبد القادر بن محمّد المعروف بالمقريزي ت ٨٤٥هـ)**

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ٣ أجزاء

تحقيق محمّد حلمي أحمد- مطابع الأهرام التجارية- القاهرة ط١٣٩٠هـ/١٩٧١م.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك

تحقيق محمّد مصطفى زيادة- ط الثانية ١٩٥٦م- القاهرة.

(٣) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (خطط المقريزي)

إصدار دار التحرير عن طبعة بولاق -سنة ١٢٧٠هـ.

* ابن منقذ (أبو المظفر أسامة بن مرشد بن عليّ بن مقلد الكناني الشيزري ت ٥٨٤هـ)

كتاب الاعتبار

تحقيق فيليب حتي- نشر جامعة برنستون- الولايات المتحدة الأمريكية ط١٩٣٠م.

* النوبختي (أبو محمّد الحسن بن موسى النوبختي ت٢١٠هـ)

فرق الشيعة

تعليق السيد محمّد صادق بحر العلوم- المطبعة الحيدرية بالنجف العراق- ط الرابعة ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

* النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ت ٧٣٣هـ)

نهاية الأرب في فنون الأدب

ج ٢٦ تحقيق محمّد فوزي العنتيل.

ج ٢٧ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور.

الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

* ابن واصل (جمال الدين محمّد بن سالم ت ٦٩٧هـ)

(١) التاريخ الصالحي

مخطوط بمكتبة فاتح بتركيا تحت رقم ٤٢٢٤، ويوجد منه صورة على ميكروفلم في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى تحت رقم ١٠٦١.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج١

تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال- طبع جامعة فؤاد الأول بالقاهرة ١٩٥٣م- الجزء الثاني، طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧م.

* الهمداني (لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ت ٣٣٤هـ)

صفة جزيرة العرب

تحقيق محمّد بن عليّ الأكوع الحوالي- نشر دار اليمامة بالرياض ط ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

* الهيثمي (نور الدين عليّ بن أبي بكر الهيثمي ت ٨٠٧هـ)

كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة

تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ٤ أجزاء

مؤسسة الرسالة- بيروت- ط الثانية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

*** اليافعي (أبو محمّد عبد الله بن أسعد بن عليّ بن سليمان اليافعي ت ٧٦٨هـ)**

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ٤ أجزاء

منشورات مؤسسة الأعلمي- بيروت- ط الثانية ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

*** ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت ٦٢٦هـ)**

(١) المشترك وضعاً والمفترق صقعاً

نشر مكتبة المثنى ببغداد ١٨٤٦م.

(٢) معجم البلدان ٥ أجزاء

ط دار صادر، بيروت ط ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

*** اليماني (محمد بن مالك بن أبي الفضل الحمادي اليماني)**

كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة

تقديم وتعليق محمّد زاهد بن الحسن الكوثري- نشر عزت العطار مطبعة الأنوار ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م.

*** اليونيني (موسى بن محمّد بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي الحنبلي ت ٧٢٦هـ)**

ذيل مرآة الزمان ٤ أجزاء

حيدر أباد الدكن-الهند- ط الأولى ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

ثانياً: المراجع

*** أحمد: أحمد رمضان**

شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى

مطابع شركة الاعلانات الشرقية- ط١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

*** الأمين: عبد الله**

دراسات في الفرق والمذاهب القديمة والمعاصرة

دار الحقيقة- بيروت- ط الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

*** الباشا: حسن**

الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية

دار النهضة العربية - القاهرة- ط ١٩٦٦م.

*** بدوي: أحمد أحمد**

الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام

دار نهضة مصر- ط ١٩٧٢م.

*** بدوي: عبد الرحمن**

مذاهب الإسلاميين ج ٢

دار العلم للملايين- بيروت- ط الأولى ١٩٧٣م.

*** برجاوي: سعيد أحمد**

الحروب الصليبية في المشرق

منشورات دار الآفاق الجديدة- بيروت- ط الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

*** جلي: أحمد محمّد أحمد**

دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين «الخوارج والشيعة»

نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض- ط الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

*** جمال الدين: محمّد السعيد**

دولة الإسماعيلية في ايران

(بحث في تطور الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الدولة- مع ترجمة النص الفارسي الذي ورد عنها في كتاب «تاريخ جهانكشاي» لعطا ملك الجويني)- مطابع سجل العرب بالقاهرة- ١٩٧٥م.

***حبشي: حسن**

(١) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس (مؤلف مجهول)

ترجمة حسن حبشي- دار الفكر العربي- القاهرة ط ١٩٥٨م.

(٢) الحرب الصليبية الأولى

دار الفكر العربي- القاهرة- ط الثانية ١٩٥٨م.

*** حتي: فيليب**

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين الجزء الثاني

ترجمة كمال اليازجي- دار الثقافة بيروت- ط الثانية ١٩٧٢م.

(٢) تاريخ العرب المطول

دار الكشاف للنشر - بيروت- ط الثالثة ١٩٦١م.

*** حسن: حسن إبراهيم**

(١) تاريخ الإسلام السياسي ٤ أجزاء

مكتبة النهضة المصرية- ط الأولى ١٩٦٧م.

(٢) الدولة الفاطمية

مكتبة النهضة المصرية- ط الثانية ١٩٥٨م.

*** حسنين: عبد النعيم محمّد**

(١) سلاجقة ايران والعراق

مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- ط الثانية ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

(٢) قاموس الفارسية (فارسي عربي)

دار الكتاب اللبناني- بيروت- ط الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

*** حسين: محمّد كامل**

(١) طائفة الإسماعيلية- تاريخها، نظمها، عقائدها

نشر مكتبة النهضة المصرية- ط الأولى ١٩٥٩م.

(٢) طائفة الدروز- تاريخها وعقائدها

دار المعارف بمصر- ط الثانية.

*** الحلبي: سليمان**

طائفة النصيرية تاريخها وعقائدها

الدار السلفية- الكويت- ط الثانية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

*** حلمي: أحمد كمال الدين**

السلاجقة في التاريخ والحضارة

دار البحوث العلمية- الكويت- ط الأولى ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

*** حمزة: نديم نايف**

التنوخيون، أجداد الموحدين (الدروز) ودورهم في جبل لبنان

دار النهار للنشر- ط الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

*** الخطيب: محمّد أحمد**

(١) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي- عقائدها وحكم الإسلام فيها

نشر مكتبة الأقصى-عمان- ط الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٢) عقيدة الدروز- عرض ونقد

نشر مكتبة الأقصى-عمان- ط الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

*** دائرة المعارف الإسلامية**

ترجمة أحمد الشنتاوي (ومجموعة من الأساتذة) ١٥ جزء.

*** أبو راشد: حنا**

جبل الدروز

وهو الحلقة الأولى من الرحلة الشرقية العامة، ومعه كتاب حوران الدامية، وهو الحلقة الثانية من الرحلة.

نشر مكتبة زيدان بمصر- ط الأولى ١٩٢٥م.

*** رنيسمان: ستيفن**

تاريخ الحروب الصليبية

ترجمة السيد الباز العريني- دار الثقافة- بيروت- ط الأولى ١٩٦٧م.

*** أبو زهرة: محمّد**

تاريخ المذاهب الإسلامية

الجزء الأول في السياسة والعقائد

دار الفكر العربي- القاهرة.

*** سالم: السيد عبد العزيز**

التاريخ والمؤرخون العرب

مؤسسة شباب الجامعة -ط ١٩٨١م.

*** سرور: محمّد جمال الدين**

(١) سياسة الفاطميين الخارجية

دار الفكر العربي- ط الرابعة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

(٢) دولة الظاهر بيبرس في مصر

دار الفكر العربي- ط ١٩٦٠م.

(٣) الدولة الفاطمية في مصر: سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها

دار الفكر العربي بالقاهرة ط ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

* شرف الدين: أحمد حسين

اليمن عبر التاريخ

مطابع البادية بالرياض- ط الثالثة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

* الشكعة: مصطفى

إسلام بلا مذاهب

دار النهضة العربية- بيروت- ط الرابعة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

* الطويل: محمّد أمين غالب

تاريخ العلويين

دار الأندلس- بيروت- ط الثانية ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

* ظهير: احسان الهي

الإسماعيلية: تاريخ وعقائد

ادارة ترجمان السنة -لاهور- باكستان- ط الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

*** عاشور: سعيد عبد الفتاح**

(١) بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى

بيروت- ١٩٧٧م.

(٢) الحركة الصليبية جزآن

الناشر مكتبة الانجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٢م.

*** عاشور: فايد حماد**

جهاد المسلمين في الحروب الصليبية

مؤسسة الرسالة- بيروت- ط الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

*** عبد الله: الحسيني**

الجذور التاريخية للنصيرية العلوية

دار الاعتصام- القاهرة- ط الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

*** عبد الكريم: أحمد عزت (ونخبة من الأساتذة)**

أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى

الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- ط ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

*** العريني: السيد الباز**

مؤرخو الحروب الصليبية

دار النهضة العربية- القاهرة- ط١٩٦٢م.

***علي: محمّد كرد**

خطط الشام ٣ أجزاء

دار العلم للملايين- بيروت- ط الثانية ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

*** عنان: محمّد عبد الله**

(١) تراجم اسلامية- شرقية وأندلسية

مكتبة الخانجي بالقاهرة- ط الثانية ١٣٩٠هـ.

(٢) مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري

القاهرة- ط الأولى ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

(٣) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية

نشر مؤسسة الخانجي- القاهرة- ط الثانية ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

*** غالب: مصطفى**

(١) أعلام الإسماعيلية

نشر دار اليقظة العربية- بيروت- ط ١٩٦٤م.

(٢) الثائر الحميري «الحسن بن الصباح»

دار الأندلس- بيروت- ط ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

(٣) سنان راشد الدين «شيخ الجبل الثالث»

دار اليقظة العربية - بيروت- ط الأولى ١٩٦٧م.

* غوانمه : يوسف حسن درويش

دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي

دار الفكر- عمان- ط ١٩٨٣م.

* الفوزان : أحمد

أضواء على العقيدة الدرزية

ط الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

* كحالة : عمر رضا

التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية

المطبعة التعاونية بدمشق- ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

* الكناني : مصطفى حسن محمّد

(١) العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى

الهيئة المصرية العامة للكتاب- فرع الإسكندرية ط ١٩٨١م.

(٢) العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي

الهيئة المصرية العامة للكتاب- فرع الإسكندرية ط ١٩٨١م.

*** لسترنج: كي**

بلدان الخلافة الشرقية

ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد- مؤسسة الرسالة- ط الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

***لويس: برنارند**

الدعوة الإسماعيلية الجديدة «الحشيشية»

نقله إلى العربية د. سهيل زكار- دار الفكر- بيروت- ط الأولى ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

*** مصطفى: شاكر**

التاريخ العربي والمؤرخون- دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام- جزآن

دار العلم للملايين- بيروت- ط الأولى ١٩٧٩م.

*** المعاضيدي: خاشع**

الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي

دار الحرية- بغداد- ط الأولى ١٩٧٥هـ/١٩٧٦م.

*** مكارم: سامي نسيب**

أضواء على مسلك التوحيد «الدرزية»

دار صادر -بيروت- ١٩٦٦م.

*** المناوى: محمد حمدي**

الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي

نشر دار المعارف بمصر.

*** أبو النصر: عمر**

قلعة آلموت (الحسن بن الصباح)

إصدار مكتب عمر أبو النصر للتأليف- بيروت- ط الثانية ١٩٧٠م.

*** النقاش: زكي**

العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية

منشورات دار الكتاب اللبناني- ط ١٩٥٨م.

*** نوري: دريد عبد القادر**

سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة

مطبعة الاشاد- بغداد- ١٩٧٦م.

* **وجدي: محمّد فريد**

دائرة معارف القرن العشرين ١٠ أجزاء

دار المعرفة -بيروت- ط الثالثة ١٩٧١م

* **ياسين: أنور -ومجموعة من المؤلفين**

بين العقل والنبي

ط باريس ١٩٨١م.

* **اليماني: عبد الواسع بن يحيى الواسعي**

تاريخ اليمن- المسمى فرحة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن

الدار اليمنية للنشر- ط الثالثة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

ثالثاً: المجلات والدوريات

(١) المجلة التاريخية المصرية

مجلة تصدر عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المجلد (٨) لسنة ١٩٥٩م.

المجلد (١٦) لسنة ١٩٦٩م.

(٢) مجلة الدارة

مجلة تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض

العدد الثاني- السنة الثانية عشرة- محرم ١٤٠٧هـ/ سبتمبر ١٩٨٦م.

فهرس الكتاب

فهرس الكتاب

الصفحة

المقدمة

١- موضوع البحث وخطة الدراسة..... ١٥-٢٥

٢- دراسة وتحليل لأهم المصادر التي اعتمد عليها البحث... ٢٧-٤٢

الفصل الأول: الحركات الباطنية عند قدوم الغزو الصليبي

المبحث الأول: الحركات المتواجدة على الساحة وخصائصها..... ٤٥

١- النزارية (الحشاشون)..... ٤٥-٨٣

٢- المستعلية (الفاطميون)..... ٨٣-٩٧

٣- النصيرية..... ٩٧-١٠٣

٤- الدروز..... ١٠٣-١١٠

المبحث الثاني: مناطق نفوذ هذه الحركات..... ١١١-١٢٣

المبحث الثالث: علاقة هذه الحركات بالمسلمين من أهل السنة..... ١٢٤-١٣٣

المبحث الرابع: العلاقات بين النزارية والمستعلية..... ١٣٤-١٣٦

الفصل الثاني: العلاقات السياسية والعسكرية بين الفاطميين والصليبيين

المبحث الأول: تعامل الفاطميين مع الصليبيين..... ١٣٩-١٧٠

المبحث الثاني: مقاومة الفاطميين للصليبيين..... ١٧١-١٨٣

الفصل الثالث: الباطنية النزارية (الحشاشون) ودورهم في الحروب الصليبية

المبحث الأول: تعامل الباطنية النزارية مع الصليبيين..... ١٨٧-١٩٦

المبحث الثاني: اغتيال القادة المسلمين..... ١٩٧-٢١٨

المبحث الثالث: إفساد المجتمع الإسلامي من الداخل..... ٢١٩-٢٢٧

المبحث الرابع: موقف القادة المسلمين من الباطنية والنزارية..... ٢٢٨-٢٤٤

الفصل الرابع: النصيرية والدروز ودورهم في الحروب الصليبية

المبحث الأول: تأثر النصيرية بالمجوسية والنصرانية..... ٢٤٧-٢٥٣

المبحث الثاني: مساعدة النصيرية للصليبيين..... ٢٥٤-٢٥٧

المبحث الثالث: مساعدة الدروز للصليبيين..... ٢٥٨-٢٦٠

الخاتمة..... ٢٦١-٢٦٧

الملاحق

الملحق الأول: النصوص والوثائق الهامة المتعلقة بموضوع البحث..... ٢٧١-٢٨٦

الملحق الثاني: تراجم بعض المشاهير من القادة المسلمين الذين واجهوا الباطنية..... ٢٨٧-٢٩١

الملحق الثالث: تراجم أشهر زعماء الباطنية في تلك الفترة.. ٢٩٢-٣٠٠

الملحق الرابع: جدول بأسماء القادة والعلماء الذين اغتيلوا بيد الباطنية..... ٣٠١-٣٠٥

المصادر والمراجع..... ٣٠٧-٣٤٠

الفهرس..... ٣٤١-٣٤٣

من إصداراتنا

١	**أبطال التنديد**	الشيخ حمد بن عتيق
٢	**أحكام أهل الذمة ١ /٣**	إبن القيم، تحقيق/ يوسف البكرى وشاكر العاروري
٣	**أسئلة طال حولها الجدل**	عبد الرحمن عبد الصمد
٤	**أم حمدي الغسالة (سلسله القصص المدرسية)**	محمد سعيد مولوي
٥	**الأب الغاضب**	محمد سعيد مولوي
٦	**الإعلام بذكر المصنفات التي حذر منها شيخ الإسلام**	رائد صبري
٧	**التلميذ الأمين (سلسلة القصص المدرسية)**	محمد سعيد مولوي
٨	**التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع**	الملطي / تحقيق يمان الميداني
٩	**الثواب والأجر في الأيام والليالي العشر**	محمد احمد العبود
١٠	**الرياض الناظرة**	السعدي، تحقيق عبد لمرحمن بن محمد
١١	**السنة لعبد الله بن أحمد**	محمد سعيد القحطاني
١٢	**الصارم المسلول على شاتم الرســـول لابن تيمية ٣/١**	تحقيق الحلواني والشودري
١٣	**الطريق الجديدة (سلسلة القصص المدرسية)**	محمد سعيد مولوي
١٤	**الفوائد البهية في أحكام التشميت الخفية**	رائد صبري
١٥	**القواعد والأصول الجامعة**	السعدي / تحقيق سمير الماضي
١٦	**اللؤلؤ المصنوع في الأحاديث التي حكم عليها النووي في المجموع**	محمد شومان الرملي
١٧	**المنتقى من بهجة المجالس**	لابن عبد البر / سمير الماضي
١٨	**المواهب الربانية من الآيات القرآنية**	السعدي / تحقيق سمير الماضي
١٩	**النبع الريان**	محمد بحور محمد
٢٠	**بطل المقلاع (سلسلة القصص المدرسية)**	سعيد مولوي

٢١	تصحيح الأخطاء والأوهام	رائد صبري
٢٢	حادي الأرواح في بلاد الأفراح	ابن القيم / ت محمد إبراهيم الزغلي
٢٣	حكاية حسان (سلسلة لمقصص المدرسية)	محمد سعيد مولوي
٢٤	دراجة في الجنة (سلسله القصص المدرسية)	محمد سعيد مولوي
٢٥	سائق العربة والإنجليز (سلسلة القصص المدرسية)	محمد سعيد مولوي
٢٦	طريق الوصول للعلم المأمول	السعدي / تحقيق سمير الماضي - يوسف البكري
٢٧	عمل المسلم في اليوم والليلة	محمد صالح محمد طارق
٢٨	فتح الرحمن في جواب من سأل عن حلاوة الأيمان	محمد أحمد العبود
٢٩	فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم	إسماعيل القاضي / ت عبدالحق التركماني
٣٠	فقد جاء أشراطها	محمود عطية
٣١	قواعد التعايش بين أهل الأديان عند شيخ الإسلام ابن تيمية	محمد أحمد العبود
٣٢	كيف يربي المسلم ولده	محمد سعيد المولوي
٣٣	مستدرك المرابط على رسالة الضوابط	محمد أحمد العبود
٣٤	منكر ات الجنائز	رائد صبري
٣٥	منهج السلف في الأسماء والصفات	شاكر العروري
٣٦	نداء الريان مجالس شهر رمضان	سمير الماضي
٣٧	وقتك يا مسلمة	إلهام إبراهيم
٣٨	من روائع القصص في السيرة النبوية	خالد الخراز - عبدالله عبد القادر
٣٩	نيل المرام تفسير آيات الأحكام	صديق حسن خان - تحقيق يوسف البكري / رائد صبري
٤٠	مسائل ومشكلات تهم المسلمين والمسلمات	د. خالد بن علي الحاج
٤١	تاريخ نجد	محمود شكري الألوسي - تحقيق بهجت الأثري سمير الماضي
٤٢	المختار من الفوائد والآداب والعبر والأخلاق	

يصدر قريباً

١	**السراج المنير في شرح الجامع الصغير**	للحافظ العزيزي تحقيق وتعليق/ يوسف البكري
٢	**فضل الله الصمد في توضيح الادب المفرد**	فضل الله الجيلاني ، تحقيق وتعليق/ يوسف البكري
٣	**أحاديث مخالفة الكفار «رسالة ماجستير»** «جمعاً وتبويباً وتخريجاً وتعليقاً »	علي عجين
٤	**أثر تعليم النص على دلالته عند الأصوليين (رسالة ماجستير)**	ايمن علي
٥	**سنن الصلوات الخاصة وبدعها**	د. خالد بن علي الحاج

* * *

الإشراف الفنى والإدارى
ناصر السيد شعبان
فاكس : ٢٥٣٤٣٩٧ - القاهرة